إلى السلطان، فأمهله واعتقله واستولى على ملكه. وعمد على سجلماسة، واستعمل عليها، ورحل منكفياً إلى الحضرة، فاحتل بها سنة ثلاث وثلاثين. واعتقل أخاه في إحدى حجر القصر إلى أن قتله لأشهر اعتقاله خنقا بمحبسه. وعذر له هذا الفتح بفتح الجبل، واسترجاعه من يد العدو دمره الله بأيدي عسكره تحت راية ابنه أبي مالك. كما نذكره إن شاء الله تعالى.

الخبر عن منازلة جبل الفتح، واستئثار الأمير أبي مالك والمسلمين به:

لما هلك السلطان أبو الوليد ابن الرئيس أبي السعيد المتغلب على ملك الأندلس من يد ابن عمه أبي الجيوش، قام بالأمر من بعده ابنه محمد طفلا صغيرا إلى نظر وزيره محمد بن المحروق، من بيوت الأندلس وصنائع الدولة، واستبد عليه. فلما شب وناهز، وأنف من الاستبداد عليه، أغراه المعلوجي من حشمه بالوزير، فاغتاله وقتله سنة تسع وعشرين. وشمر للاستبداد وشيد أواخي الملك. وكان الطاغية قد أخذ جبل الفتح سنة تسع، وجاورت النصرانية به ثغور الفرضة، وصار شجى في صدرها، وأهمَّ الملسمين شأنه. وشغل عنهم صاحب المغرب بما كان من فتنة ابنه، فرجعوا الجزيرة وحصونها إلى ابن الأحمر منذ سنة اثنتي عشرة لأول المائة الثامنة. واستغلظ الطاغية عليهم بعد ذلك، فرجعوا الجزيرة إلى صاحب المغرب سنة تسع وعشرين. وولى عليها السلطان أبو سعيد من أهل دولته سلطان بن مهلهل من عرب الخلط وأخواله. وأسف الطاغية إلى حصونها عند مهلك السلطان أبي سعيد، فملك أكثرها ومنع البحر من الإجازة. وقارن ذلك استبداد صاحب الأندلس، وقتله لوزيره المحروق. وأهمه شأن الطاغية، فبادر إلى إجازه البحر. ووفد على

السلطان أبي الحسن بدار ملكه بفاس سنة اثنتين وثلاثين، فأكبر موصله وأركب الناس للقائه، وأنزله بروض المصارة لصق داره، واستبلغ في تكريمه وفاوضه ابن الأحمر في شأن المسلمين وراء البحر، وما أهمهم من عدوهم، وشكا إليه حال الجبل واعتراضه شجى في صدر الثغور، فأشكاه السلطان. وعامل الله في أسباب الجهاد، وكان مشغوفا به متقبلا مذهب جده يعقوب فيه. وعقد لابنه الأمير أبي مالك على خمسة آلاف من بني مرين، وأنفذه مع السلطان محمد بن إسماعيل لمنازلة الجبل فاحتل بالجزيرة، وتتابع إليه الأسطول بالمدد. وأرسل ابن الأحمر حاشرين في الأندلس فتسايلوا إليه وأضربوا معسكرهم جميعا بساحة الجبل. وأبلوا في حربه ومنازلته البلاء الحسن، إلى أن تغلبوا عليه سنة ثلاث وثلاثين، واقتحمه المسلمون عنوة. ونقلهم الله من كان به من النصرانية بما معهم، ووفاه الطاغية بأمم الكفر لثالثة فتحه، وقد شحنه المسلمون بالأقوات نقلوها من الجزيرة على خيولهم. وباشر نقلها الأمير أبو مالك وابن الأحمر، فنقلها الناس عامة. وتحيز الأمير أبو مالك إلى الجزيرة، وترك بالجبل يحيى بن طلحة بن محلى من وزراء أبيه. ووصل الطاغية بعد ثلاث، فأناخ عليه. وبرز أبو مالك بعساكره، فنزل قبالته. وبعث إلى الأمير أبي عبد الله صاحب الأندلس، فوصل بحشد المسلمين بعد أن دوخ أرض النصرانية. وخرج فنزل بإزاء عسكر الطاغية، وتحصن العدو في محلتهم. وأقاموا كذلك عادية لقرب العهد بارتجاعه، وخفة ما به من الحامية والسلاح، فبادر السلطان ابن الأحمر إلى لقاء الطاغية. وسبق الناس إلى فسطاطه عجلا، بائعا نفسه من الله في رضى المسلمين، وسد فرجتهم، فتلقاه الطاغية راجلا حاسرا إعظاما لموصله. وأجابه إلى ما سأل من الإفراج عن هذا المعقل، وأتحفه بذخائر مما لديه، وارتحل لفوره. وأخذ الأمير أبو مالك في تثقيف أطراف الثغر، وسد فروجه، وإنزال الحامية به، ونقل الأقوات إليه. وكان فتحا طوى دولة السلطان أبي الحسن قلادة الفخر آخر الأيام. ثم رجع بعدها إلى شأنه من منازلة تلمسان وحصاره، كما سنذكره إن شاء الله تعالى.

الخبر عن حصار تلمسان، وتغلب السلطان أبي الحسن عليها، وانقراض بني عبد الواد بمهلك أبي تاشفين:

لما تغلب السلطان على أخيه، وحسم علة انتزائه ومنازعته، وسد ثغور المغرب، وعظمت لديه نعمة الله بظهور عسكره على النصرانية، وارتجاع جبل الفتح من أيديهم، بعد أن أقام في ملكتهم نحوا من عشرين سنة، فرغ لعدوه وأجمع على غزو تلمسان. ووفد عليه رسل السلطان أبي يحيى في سبيل التهنئة بالفتح والأخذ بحجزة أبي تاشفين على الثغور. وأوفد السلطان رسله إلى أبي تاشفين شفعا، وأن يتخلى عن عمل الموحدين جملة، وينزل لهم عن تدلس، وبرجع إلى تخم أعمالهم منذ أول الأمر، ولو عامئذ، ليعلم الناس جاه السلطان عند الملوك، ويقدروه حق قدره. واستنكف أبو تاشفين من ذلك، ولج وأغلظ للرسل في القول، وأفحش بمجلسه بعض السفهاء من العبدى في الرد عليهم، والنيل من مرسلهم، فانقلبوا بما أحفظه، فانبعثت عزائم السلطان للصعود إليهم. وعسكر بساحة البلد الجديد، وبعث وزراءه إلى قاصية البلاد المراكشية لحشد القبائل والعساكر. ثم تعجل فاعترض جنوده وأزاح عللهم وعبا مواكبه. وسار في التعبئة، وفصل بمعسكره من فاس أواسط خمس وثلاثين. وسار يجر الشوك والمدد من امم المغرب وجنوده. ومر بوجدة، فجمر الكتائب لحصارها. ثم مر بندرومة، فقاتلها بعض يوم واقتحمها، فقتل حاميتها واستولى عليها آخر سنة خمس. ثم سار على تعبئته حتى أناخ على تلمسان، وبلغه الخبر بتغلب عساكره على وجدة سنة ست وثلاثين، فأوعز إليهم بتخريب أسوارها، فأصرعوها بالأرض.

وتوافت إليه أمداد النواحي وحشودها، وربض على فريسته. ووفدت عليه قبائل مغراوة وبني توجين، فأتوه طاعتهم. ثم سرح عساكره إلى الجهات، فتغلب على وهران وهنين، ثم على مليانة وتنس والجزائر، كل ذلك سنة ست وثلاثين. ونزع إليه يحيى بن موسى صاحب القاصية الشرقية من عمله، والمتاخم كان لعمل الموحدين، والقائم بحصار بجاية بعد نكبة موسى بن علي، فلقاه مبرة وتكريما ورفع مجلسه في بساطه، ونظمه في طبقات وزرائه وجلسائه. وعقد على فتح البلاد الشرقية ليحيى

بن سليمان العسكري كبير بني عسكر بن محمد، وشيخ بني مرين وصاحب شوراهم بمجلس السلطان، والمخصوص بالصهر من السلطان وعقد له على ابنته، فسار في الأولوية والجنود وطوع ضاحية الشرق وقبائله، وافتتح أمصاره، حتى انتهى إلى المدية. ونظم البلاد في طاعة السلطان، وأحشد مقاتليها إلى معسكره فلحقوا به وكاثروا جنوده. واستعمل السلطان على وانشريش وعمل الحشم من بني توجين. وعقد لسعد بن سلامة بن علي على بني يدللتن. وجعل الوالي بالقلعة إلى نظره. وكان خلص إليه بالمغرب قبل فصوله نازعا عن أبي تاشفين لمكان أخيه قريعه محمد من الدولة.

واستعمل السلطان أيضا على شلف وسائر أعمال المغرب الأوسط. واختط السلطان بقرب تلمسان البلد الجديد لسكناه. ونزل عساكره وسماه المنصورة. وأدار على البلد المخروب سياجا من السور ونطاقا من الخندق. ونصب المجانيق والآلات من وراء خندقه. وشيد قبالة كل برج من أبراج البلد برجا على ساقه خندقه، ينضخ رماته بالنبل رملهم، وشغلوهم بأنفسهم حتى شيدوا برجا آخر أقرب منه، وترتفع شرفاته فوق خندقهم. ولم يزل يتقرب بوضع الأبراج من حد إلى ما بعده، حتى اختطها من قرب على ساقة خندقهم. وتماصع المقاتلة بالسيوف من أعاليها، وقربت المجانيق إلى رجمها ودكها، فنالت من ذلك فوق الغاية. واشتد الحرب وضاق نطاق الحصار. وكان السلطان يصابحهم كل يوم بالبكور والطواف على البلد من جميع جهاته لتفقد المقاتلة في مراكزهم، وربما ينفرد في تطوافه بعض الأيام عن حاشيته، فاهتبلوا الأمر يحسبونه غرة. وصفوا جيوشهم من وراء السور مما يلي الجبل المطل على البلد، حتى إذا حاذاه السلطان في تطوافه، فتحوا أبوابهم، وأرسلوا عليه عقبان جنودهم، فاضطروه إلى سفح الجبل، حين لحق بأوغاره، وكان أن ينزل عن فرسه هو ووليه عريف بن يحيى أمير سويد. ووصل الصائح إلى المعسكر، فركب الأميران، ابناه: أبو عبد الرحمن وأبو مالك، في جموع بني مرين، وتهاوت فرسان المعسكر من كل جانب، فشمروا جنود بني عبد الواد إلى مراكزهم. ثم دفعوهم عنها، وحملوهم على هوة الخندق، فتطارحوا فيها وترادفوا وهلك بالكظيظ أكثر مما هلك بالقتل. واستلحم في ذلك اليوم زعماء ملاحمهم: مثل عمر بن

عثمان كبير الحشم من بني توجين، ومحمد بن سلامة بن علي كبير بني يدللتن منهم أيضا وغيرهم. وكان يوما له ما بعده. واعتز بنو مرين عليهم من يومئذ.

ونذر بنو عبد الواد بالتغلب عليهم، واتصلت الحرب عامين. ثم اقتح مها السلطان غلابا لسبع وعشرين من رمضان سنة سبع وثلاثين. ووقف أبو تاشفين بساحة قصره مع خاصته، وقاتل هنالك حتى قتل ابناه عثمان ومسعود ووزيره موسى بن علي، ووليه عبد الحق بن عثمان بن محمد من أعياص آل عبد الحق. نزع إليه من جملة الموحدين كما أشرنا إليه، ونستوفي في أخباره. فهلك هو وابنه وابن أخيه، وأثخنت السلطان أبا تاشفين الجراحات. ووهن لها، فتقبض عليه واحتقبه بعض الفرسان إلى السلطان، فلقيه الأمير أبو عبد الرحمن صالي تلك الحروب ووارد غمرتها بنفسه، فاعترضه وقد غص الطرق بموكبه، فأمر به للحين، فقتل واحتز رأسه. وسخط ذلك السلطان من فعله لحرصه على توبيخه وتقريعه، وذهب مثلا في الغابرين. واقتحم السلطان بكافة عساكره، وتواقع الناس بباب كشوك لجنوبهم من كظيظ الزحام، فهلك منهم امم.

وانطلقت أيدي النهب على البلد، فلحقت الكثير من أهله معرة في أموالهم

وحرمهم. وخلص السلطان إلى المسجد الجامع مع لمة من خواصه وحاشيته. واستدعى شيوخ الفتيا بالبلد: أبو زيد وأبو موسى ابنا الإمام، وفاء بحق العلم وأهله، فخلصوا إليه بعد الجهد ووعظوه وذكروه بما نال الناس من النهب، فركب لذلك بنفسه وسكن ووزع جنوده وأشياعه عن الرعية، وقبض أيديهم عن الفساد وعاد إلى معسكره بالبلد الجديد. وقد كمل الفتح وعز النصر، وشهد ذلك اليوم أبو محمد عبد الله بن تافراكين، وافاه رسولا عن مولانا السلطان أبي يحيى مجددا للعهد، فأعجله السلطان إلى مرسله بالخبر وسابق السابقين. ودخل تونس لسبع عشرة ليلة من نوبة الفتح، فعظم السرور عند السلطان أبي يحيى بمهلك عدوه والانتقام منه بشارة، واعتدها بمساعيه. ورفع السلطان أبو الحسن القتل عن بني عبد الواد أعدائهم، وشفا نفسه بقتل سلطانهم، وعفا عنهم وثبتهم في الديوان، وفرض لهم العطاء، واستتبعهم على راياتهم ومراكزهم. وجمع كلمة بني واسين من بني مرين وبني عبد الواد وتوجين، بل وسائر زناتة. وأنزلهم ببلاد المغرب، وسد بكل طائفة منهم ثغرا من أعماله. وساروا عصباً تحت لوائه، فأنزل منهم بقاصية السوس وبلاد غمارة، وأجاز منهم إلى ثغور عمله بالأندلس حامية ومرابطين، واندرجوا في جملته، واتسع تطاق ملكه. وأصبخ ملك زناتة، بعد أن كان ملك بني مرين. وسلطان العدوتين بعد أن كان سلطان المغرب. والأرض لله يورثها من يشاء من عباده، والعاقبة للمتقين.

الخبر عن نكبة الأمير أبي عبد الرحمن بمتيجة، وتقبض السلطان عليه، ثم مهلكه آخراً:

قد قدمنا ما كان من اشتراط السلطان أبي سعيد على الموحدين منازلتهم تلمسان

مع عساكره، وتلوم السلطان أبو الحسن بتاسالة لانتظار مولانا السلطان أبي يحيى. ولما نازل تلمسان بعساكره المرة الثانية، لم يطالبهم بذلك. وكان أبو محمد بن تافراكين يتردد إليه، وهو بمعسكره من حصار تلمسان مؤديا حقه مستخبراً مآل عدوهم. فلما تغلب على تلمسان أسر إليه سفيرهما أبو محمد بن تافراكين بأن سلطانه قادم عليه للقائه وتهنئته بالظفر بعدوه. وتشوف السلطان أبو الحسن إليها لما كان يحب الفخر

ويعنى به، فارتحل من تلمسان سنة ثمان وثلاثين، وعسكر ببسيط متيجة منتظراً وفادة مولانا السلطان أبي

يحيى عليه. وتكاسل السلطان عنها لما أراه سيفه المتحكم في دولته محمد بن الحكيم من حذر مغبتها، وقال له: إن لقاء سلطانين لا يتفق إلا في يوم على أحدهما، فنكره لذلك السلطان وتقاعد عنه. وطال مقام السلطان أبي الحسن في الموعد الذي القي إليه أبو محمد بن تافراكين، واعتل لأشهر من مقامه ومرض بفسطاطه. وتحدث أهل المعسكر بمهلكه. وكان ابناه الأميران أبو عبد الرحمن وأبو مالك متناغيين في ولاية عهده منذ أيام جدهما أبي سعيد. وكان السلطان قد جعل لهما من أول دولته ألقاب الأمارة وأحوالها، من اتخاذ الوزراء والكتاب ووضع العلامة وتدوين الدواوين وإثبات العطاء واستلحاق الفرسان والانفراد بالمعسكر، فكانا من ذلك على ثبج. وجعل لهما مع ذلك الجلوس بمقعد فصله، والمناوبة لتنفيذ الأوامر السلطانية، فكانا لذلك رديفين له في سلطانه.

ولما اشتد وجع السلطان تمشت سماسرة الفتن بين هذين الأميرين وحزبوا أهل المعسكر لهما أحزابا، وبث كل واحد منهما المال وحمله على القربات. وصاروا شيعا وانقسموا فرقا. وهم الأمير أبو عبد الرحمن بالتوثب على الأمر، قبل أن يتبين حال السلطان بإغراء وزرائه وبطانته بذلك. وتفطن خاصة السلطان لها، فأخبروه الخبر، وحضوه على الخروج إلى الناس قبل أن يتفاقم الأمر ويتسع الخرق، فبرز إلى فسطاط جلوسه. وتسامع أهل المعسكر به، فازدحموا على مجلسه وتقبيل يديه. وتقبض على أهل الظنة من العسكر، فأودعهم السجن وسخط على الأميرين. ورحل الناس من معسكرهما، فردهما إلى معسكره. ثم رجع إلى فسطاطه، فارتاب الأميران لذلك ووجما، وطفئت نار فتنتهما. وسكن سعي المفسدين عندهما، وانتبذ الناس عنهما. واشتدت روعة الأمير أبي عبد الرحمن، وركب من فساطيطه وخاض الليل، وأصبح بحلة أولاد زغلى أمراء زغبة الموطنين بأرض حمزة، فتقبض عليه أميرهم موسى بن أبي الفضل. ورده إلى أبيه، فاعتقله بوجدة ورتب العيون لحراسته من حشمه، إلى أن قتله بعد ذلك سنة اثنتين وأربعين. توثب بالسجان فقتله. وأنفذ السلطان حاجبه علال بن محمد، فقضى عليه. ولحق وزيره زيان بن عمر الوطاسي بالموحدين، فأجاروه.

ورضي السلطان صبيحة نزوع أبي عبد الرحمن عن أخيه أبي مالك، وعقد له على ثغور عمله بالأندلس، وصرفه إليها، وانكفأ إلى تلمسان. والله أعلم.

الخبر عن خروج ابن هيدور، وتلبيسه بأبي عبد الرحمن:

لما تقبض السلطان على ابنه أبي عبد الرحمن وأودعه السجن، تفرق خدمه وحشمه انذعروا في الجهات. وهمل جازر من مطبخه، كان يعرف بابن هيدور، كان شبيها له في الصورة، فلحق ببني عامر من زغبة. وكانوا لذلك العهد منحرفين عن الطاعة، خوارج على الدولة لما كان السلطان وأبوه قد اختص عريف بن يحيى أمير بني سويد أقتالهم، منذ نزع إليهم عن أبي تاشفين. فركبوا سنن الخلاف ولبسوا جلدة النفاق، وانتبذوا بالقفار. ورياستهم لذلك العهد لصغير بن عامر وإخوته. وعقد السلطان على حربهم لونزمار ابن وليه عريف. وكان سيد البدو يومئذ، فجمع لهم وشفر لطلبهم. وأبعدوا إمامه في المذهب، وأوقع بهم مرارا. ولحق بهم هذا الجازر، وانتسب لهم إلى السلطان أبي الحسن، وأنه أبو عبد الرحمن ابنه النازع، عنه فشبه لهم. وبايعوه وأجلبوا به على نواحي المدية. وبرز إليهم قائدها مجاهد من صنائع الدولة، ففضوا جمعه وانهزم أمامهم. ثم جمع لهم ونزمار وفروا عن تلك النواحي، وافترق جمعهم. ونبذوا إلى ذلك الجازر عهده، فلحق ببني يراتن من زواوة، ونزل على سيدتهم شمسي، فقامت بأمره. وحمل بنوها من بني عبد الصمد قومهم على طاعته. وشاع في الناس خبره: فمن مصدق ومكذب، حتى تبينت حاله، ووقفوا على كذبه في انتسابه، فنبذوا إليه عهده. ولحق بالدواودة أمراء رياح، ونزل على سيدهم يعقوب بن علي، وانتسب له في مثل ذلك النسب، فأجاره إلى أن صدق نسبه. وأوعز السلطان إلى مولانا السلطان أبي يحيى في شأنه، فبعث إلى يعقوب بن علي فيه. وأرسل إليه زيان بن عمر وزير أبي عبد الرحمن النازع إليهم، فكشف لهم عن خبثه، فتقبض عليه يعقوب، وأشخصه إلى السلطان مع ذويه، فلحق به بمكانه من سبتة، فامتحنه السلطان وقطعه من خلاف وانحسم داؤه. وبقي بالمغرب تحت جراية من الدولة، إلى أن هلك سنة ثمان وستين. والله تعالى أعلم.

الخبر عن شأن الجهاد، وإغراء السلطان ابنه الأمير أبا مالك، واستشهاده:

لما فرغ السلطان من أمر عدوه وما تبع ذلك من الأحوال، صرف اعتزامه إلى الجهاد، لما كان كلفاً به. وكان الطاغية منذ شغل بنو مرين عن الجهاد، منذ عهد

يوسف بن يعقوب، وقد اعتزوا على المسلمين بالعدوة. ونازلوا معاقلهم، وتغلبوا على الكثير منها، وارتجعوا الجبل ونازلوا السلطان أبا الوليد في عقر داره بغرناطة ووضعوا عليهم الجزية، فتقبلوها وأسفوا إلى التهام المسلمين بالأندلس. فلما فرغ السلطان أبو الحسن من شأن عدوه، وغلب على الأيدي يده، وانفسح نطاق ملكه، دعته نفسه إلى الجهاد. وأوعز إلى ابنه الأمير أبي مالك، أمير الثغور من عمله، من الدعوة سنة أربعين، بالدخول إلى دار الحرب. وجهز إليه العساكر من حضرته، وأنفذ إليه الوزراء، فشخص غازياً في الجحفل، وتوغل في بلاد الطاغية واكتسحها، وخرج بالسبي والغنائم إلى أدنى صدرة من أرضهم وأناخ بها. واتصل الخبر بأن النصارى جمعوا له، وأغذوا السير في اتباعه. وأشار عليه الملأ بالخروج عن أرضهم، وإجازة الوادي الذي كان تخما بين أرض الإسلام ودار الحرب. وأن يسير إلى مدن المسلمين، فيمتنع بها، فلج في إبايته وصمم على التعريس. وكان قدما ثبتا، إلا أنه كان غير بصير بالحروب لمكان سنه، فصبحتهم عساكر النصرانية في مضاجعهم قبل أن يستركبوا وخالطوهم في أبياتهم. وأدرك الأمير أبو مالك قبل أن يستوي على فرسه، فجدلوه واستلحموا الكثير من قومه، واحتووا على المسكر بما فيه من أموال المسلمين، ورجعوا على أعقابهم. واتصل الخبر بالسلطان، فتفجع لمهلك ابنه واسترحم له. واحتسب عند الله أجره وفي سبيله قتله. وشرع في إجازة العساكر للجهاد وتجهيز الأساطيل.

الخبر عن واقعة الملند، والظفر به، وظهور أساطيل المسلمين علي أسطول النصاري:

لما بلغ الخبر إلى السلطان باستشهاد ابنه، أخرج وزراءه إلى السواحل لتجهيز الأساطيل. وفتح ديوان العطاء، واعترض الجنود وأزاح عللهم. واستنفر أهل المغرب، وارتحل إلى سبتة ليباشر أحوال الجهاد. وتسامعت النصرانية بذلك، فاستعدوا للدفاع. وأخرج الطاغية أسطوله إلى الزقاق ليمنع السلطان من الإجازة. واستحث السلطان أساطيل المسلمين من مرسى العدوة. وبعث إلى الموحدين بتجهيز أسطولهم إليه، فعقدوا عليه لزيد بن فرحون قائد أسطول بجاية من صنائع دولتهم وأوفى سبتة في ستة عسر من أساطيل إفريقية، كان فيها من طرابلس وقابس وجربة وتونس

وبونة وبجاية. وتوافت أساطيل المغربين بمرسى سبتة تناهز الماية. وعقد السلطان عليها لمحمد بن

علي العزفي، الذي كان صاحب سبتة يوم فتحها، وأمره بمناجزة أسطول النصارى بالزقاق. وقد أكمل عديدهم وعدتهم، فاستلأموا وتظاهروا في السلاح. وتزاحفوا إلى أسطول النصارى، وتواقفوا مليا. ثم قربوا الأساطيل بعضها إلى بعض وقرنوها للمصاع، ولم يكن إلا كلا ولا، حتى هبت ريح النصر، وأظفر الله المسلمين بعدوهم، وخالطوهم في أساطيلهم. واستلحموهم قهرا بالسيوف وطعنا بالرماح، وألقوا أشلاءهم في اليم. وقتلوا قائدهم الملند، واستاقوا أساطيلهم مجنوبة إلى مرسى سبتة، فبرز الناس لمشاهدتها. وطيفت بكثير من رؤوسهم في جوانب البلد. ونظمت أصفاد الأسارى بدار الإنشاء. وعظم الفتح، وجلس السلطان للتهنئة، وأنشدت الشعراء بين يديه. وكان يوماً من أغر الأيام. والمنة لله سبحانه.

الخبر عن واقعة طريف وتمحيص المسلمين:

لما ظفر المسلمون بأسطول النصارى، وخضدوا شوكتهم عن ممانعة الجواز،

شرع السلطان في إجازة العسكر الغزاة من المرتزقين. وانتظمت الأساطيل بسلسلة واحدة من العدوة إلى العدوة. ولما استكمل إجازة العساكر، أجاز هو في أسطوله وخاصته وحشمه آخر سنة أربعين. ونزل بساحة طريف، وأناخ بعساكره عليها، واضطرب معسكره بفنائها، وبدأ بمنازلتها. ووافاه سلطان الأندلس أبو الحجاج ابن السلطان أبي الوليد بعسكر الأندلس، من غزاة زناتة وحامية الثغور ورجل البدو، فعسكروا حذو معسكره، وأحاطوا بطريف نطاقا واحدا، وأنزلوا بهم أنواع القتال، ونصبوا عليها الآلات. وجهز الطاغية أسطولاً آخر اعترض به الزقاق لقطع المرافق عن المعسكر، وطال ثواهم بمكانهم من حصار البلد، ففنيت أزوادهم وافتقدوا العلوفات، فوهن الظهر واختلت أحوال المعسكر. واحتشد الطاغية أمم النصرانية، وظاهره البرتغال: صاحب أشبونة وغرب الأندلس، فجاء معه في قومه. وزحف إليهم لستة أشهر من نزولهم. ولما قرب من معسكرهم سرب إلى طريف جيشا من النصارى أكمنهم بها، فدخلوها ليلا على حين غفلة من العسس الذي أرصد لهم. وأحسوا بهم آخر ليلتهم، فثاروا بهم من مراصدهم. وأدركوا أعقابهم قبل دخول البلد، فقتلوا منهم عددا ولبسوا على

السلطان بأن لم يدخل البلد سواهم حذرا من سطوته. وزحف الطاغية من الغد في جموعه، وعبأ السلطان

عساكر المسلمين صفوفاً وتزاحفوا. ولما نشب الحرب برز الجيش الكمين من البلد، وخالفوهم إلى المعسكر، وعمدوا إلى فساطيط السلطان. ودافعهم عنها الناشبة الذين أعدوا لحراستها، فاستلحموهم. ثم دافعهم النساء عن أنفسهن، فقتلوهن وخلصوا إلى حظايا السلطان: عائشة بنت عمه أبي يحيى بن يعقوب، وفاطمة بنت مولانا السلطان أبي يحيى ملك إفريقية وغيرهما من حظاياه، فقتلوهن واستلبوهن. وانتهبوا سائر الفساطيط، وأضرموا المعسكر نارا. وأحس المسلمون بما وراءهم في معسكرهم، فاختل مصافهم وارتدوا على أعقابهم، بعد أن كان ابن السلطان صمم في طائفة من قومه وذويه حتى خالطهم في صفوفهم، فأحاطوا به وتقبضوا عليه. وولى السلطان متحيزا إلى فئة المسلمين. واستشهد كثير من الغزاة. ووصل الطاغية إلى فسطاط السلطان من المحفة. ونكر قتل النساء والولدان، ووقف منها بمنتهى أثره، وانكفأ راجعا إلى بلاده. ولحق ابن الأحمر بغرناطة، وخلص السلطان إلى الجزيرة، ثم إلى الجبل. ثم ركب السفين إلى سبتة في ليلته. ومحص الله المسلمين، وأجزل مثوبتهم، وأرجأ لهم الكرة على عدوهم.

الخبر عن منازلة الطاغية الجزيرة، ثم تغلبه عليها، بعد أن غاب علي القلعة من ثغور ابن الأحمر:

لما رجع الطاغية من واقعة طريف استأسد على المسلمين بالأندلس، وطمع في التهامهم، وجمع عساكر النصرانية، ونزل قلعة بني سعيد ثغر غرناطة، وعلى مرحلة منها. وجمع الآلات والأيدي على حصارها، واشتد مخنقها. وأصابهم الجهد من العطش، فنزلوا على حكمه سنة اثنتين وأربعين. وأدال الله الطيب منها بالخبيث، وانصرف إلى بلده. وكان السلطان أبو الحسن لما أجاز إلى سبتة أخذ نفسه بالعودة إلى الجهاد لرجع الكرة وبعث في الأمصار للاستنفار، وأخرج قواده إلى سواحل البحر لتجهيز الأساطيل حتى أكمل له منها عدد. ثم ارتحل إلى سبتة لمشارفتها، وقدم عسكره إلى العدوة مع وزيره عسكر بن تاحضريت. وبعث على الجزيرة محمد بن العباس بن تاحضريت من قرابة الوزير، وبعث إليها مددا من العسكر مع

موسى بن إبراهيم اليرنياني من المرشحين للوزارة ببابه. وبلغ الطاغية خبره، فجهز أسطوله وأجراه إلى بحر الزقاق

لمدافعته. وتلاقت الأساطيل، فمحص الله المسلمين. واستشهد منهم أعداد. وتغلب أسطول الطاغية على بحر الزقاق، وملكوه دون المسلمين. وأقبل الطاغية من إشبيلية يجر عساكر النصرانية، حتى أناخ بها على الجزيرة الخضراء، مرقى أساطيل المسلمين وفرضة المجاز. وأمل أن ينظمها في ملكته مع جارتها طريف. وحشد الفعلة والصناع للآلات، وجمع الأيدي عليها وطاولها الحصار. واتخذ أهل المعسكر بيوتا من الخشب للمطاولة. وجاء السلطان أبو الحجاج بعساكر الأندلس، فنزل قبالة الطاغية بظاهر جبل الفتح في سبيل الممانعة. وأقام السلطان أبو الحسن بمكانه من سبتة يسرب إليها المدد، من الفرسان والمال والزرع، في أحايين الغفلة من أساطيلهم، وتحت جناح الليل، فلم يغنهم ذلك، واشتد عليهم الحصار وأصابهم الجهد. وأجاز إليه السلطان أبو الحجاج يفاوضه في شأن السلم مع الطاغية، بعد أن أذن له الطاغية في الإجازة مكرا به. وترصدته بعض الأساطيل في طريقه، فصدقهم المسلمون القتال، وخلصوا إلى الساحل بعد عصب الريق، فضاقت أحوال هذه الجزيرة ومن كان بها من عساكر السلطان. وسألوا من الطاغية الأمان على أن ينزلوا عن البلد، فبذله وخرجوا فوفى لهم. وأجازوا إلى المغرب سنة ثلاث وأربعين، فأنزلهم السلطان ببلاده خير نزل، ولقاهم من المبرة والكرامة ما أعاضهم مما فاتهم، أو خلع عليهم وحملهم وأجازهم بما تحدث به الناس. وتقبض على وزيره عسكر بن تاحضريت عقوبة على تقصيره في المدافعة، مع تمكنه منها لما كان لديه من العساكر. وانكفأ السلطان إلى حضرته موقنا بظهور أمر الله، وإنجاز وعده برجع الكرة وعلو الدين. والله متم نوره ولو كره الكافرون.

الخبر عن شفاعة صاب تونس في أولاد أبي العلاء ووصولهم إلى السلطان:

كان عثمان بن أبي العلاء من أعياص آل عبد الحق، شيخ الغزاة المجاهدين من

زناتة والبربر بالأندلس. وكان له فيها مقام جمعلوم، في حماية الثغور، ومدافعة العدو، وغزو دار الحرب، ومساهمة صاحب الأندلس الجهاد كما نستوفي في أخباره. وكان السلطان أبو سعيد لما استصرخ به أهل

الأندلس، اعتذر بمكانه بينهم. واستشرط عليهم أن يمكنوه من قياده حتى يقضي نوبة الجهاد، فلم يسعفوه بذلك. ولما هلك عثمان بن أبي العلاء قام بأمره من بعده في مراسم الجهاد بنوه، وكانوا يرجعون في رياستهم إلى

كبيرهم أبي ثابت عامر. وقويت عصابتهم بالأبناء الموالي، وعلت على يد السلطان يدهم، واستبدوا عليه في أكثر الأحوال، واستنكف لها، وكان ذلك مما دعاه إلى القدوم على السلطان أبي الحسن. وارتاب بنو أبي العلاء بإجازته إليه، واتهموه على أنفسهم، واستعدهم إلى منازلة جبل الفتح على كره. فلما تغلب المسلمون عليه، وقضى ابن الأحمر من مدافعة الطاغية عنه بالرغبة ما قضى كما ذكرناه، واعتزم على القفول إلى حضرته، أجمعوا الفتك به في طريقه. وداخلوا في ذلك مواليه من المعلوجي، لما أسفهم به إرهاف حده، والتضيق عليهم في جاهه، فبرموا وطووا على النث. حتى إذا وجدوا من بني أبي العلاء داعية إلى ذلك، خفوا إلى إجابتها. ونذر بهم محمد بن الأحمر، فبعث عن السفين يعترضه في طريقه. وساحل إليه، وتسابقوا لشأنهم قبل فوته، فأدركوه دون حصن أصطبونة. وعتبوه فاستعتب، ثم أغلظوا في القول، وقتلوا مولاه عاصماً صاحب ديوان العطاء تجنيا عليه. ونكر السلطان ذلك، فتناولوه بالرماح طعنا، حتى قعصوه. ورجعوا إلى المعسكر، فاستدعوا من كان داخلهم من الموالي. وجاءوا بأخيه أبي الحجاج يوسف بن أبي الوليد، فبايعوا له وأصفقوا على تقديمه. وسرح لحينه قائده ابن عزون، فاستولى له على دار ملكه، وتم أمره. وحجبه رضوان مولى أبيهم، واستبد عليه، وسكن بين جنبيه من بني أبي العلاء وقتلهم لأخيه داء دخيل. حتى إذا سما السلطان أبو الحسن إلى الجهاد، وأجاز المدد إلى ثغور عمله بالأندلس، وعقد لابنه الأمير أبي مالك، أسر إليهم في شأن بني أبي العلاء ما كان أبوه السلطان أبو سعيد اشترط علبهم في مثلها. ووافق منهم داعية لذلك، فتقبض عليهم أبو الحجاج وأودعهم المطبق اجمع. ثم أشخصهم في السفين إلى مراسي إفريقية، فنزلوا بتونس على مولانا السلطان أبي بحيى. وبعث فيهم السلطان أبو الحسن إليه، فاعتقلهم. ثم أوعز إليه مع عريف الوزعة ببابه ميمون بن بكرون في إشخاصهم إلى حضرته، فتوقف عنها. وأبى من إخفار ذئنه، وتوسوس إليه وزيره أبو محمد بن تافراكين بأن مقصد السلطان فيهم غير ما ظنوا به من الشر. ورغب في منة السلطان ببعثهم إليه، والمبالغة في الشفاعة فيهم علما بأن شفاعته لا ترد، فأجابه إلى ذلك، وجنبوهم إليه مع ابن بكرون. واتبعهم أبو محمد بن تافراكين بكتابة

الشفاعة فيهم من السلطان. وقدموا على السلطان أبي الحسن مرجعه من الجهاد سنة اثنتين وأربعين، فتلقاهم بالبر والترحيب إكراماً لشفيعهم. وأنزلهم بمعسكره،

وجنب لهم القربات بالمراكب الثقيلة، وسرب لهم الفساطيط، وأسنى لهم الخلع والجوائز، وفرض لهم أعلى رتب العطاء، وصاروا في جملته. ولما احتل بسبتة لمشارفة أحوال الجزيرة، سعى عنده فيهم بأن كثيراً من المفسدين يداخلونهم في الخروج والتوثب على الملك، فتقبض عليهم وأودعهم السجن بمكناسة، إلى أن كان من خبرهم مع ابنه أبي عنان ما نذكره إن شاء الله تعالى. والله أعلم.

الخبر عن هدية السلطان إلى المشرق، وبعثه بنسخة المصحف من خطه إلي الحرمين والقدس:

كان للسلطان أبي الحسن مذاهب في ولاية ملوك المشرق، والكلف بالمعاهد الشريفة تقبله من سلفه، وضاعفه لديه متين ديانته. ولما قضى من أمر تلمسان ما قضى، وتغلب على المغرب الأوسط، وصار أهل النواحي تحت ربقة منه، واستطال بجناح سلطانه، وخاطب لحينه صاحب مصر والشام محمد برت قلاوون الملك الناصر، وعرفه بالفتح وارتفاع العوائق عن الحاج في سابلتهم. وكان فرانقه في ذلك فارس بن ميمون بن ودرار. وعاد بجواب الكتاب وتقرير المودة بين السلف. وأجمع السلطان على كتابة نسخة أنيقة من المصحف الكريم بخط يديه، ليوقفها بالحرم الشريف قربة إلى الله وابتغاء للمثوبة. فانتسخها وجمع الوراقين لمعاناة تذهيبها وتنميقها، والقراء لضبطها وتهذيبها حتى اكتمل شأنها. ووضع لها وعاء مؤلف من خشب الأبنوس والعاج والصندل فائق الصنعة، وغشي بصفائح الذهب، ونظم بالجوهر والياقوت، واتخذت له أصونة الجلد المحكمة الصناعة المرقوم أديمها بخيوط الذهب ومن فوقها غلاف الحرير والديباج وأغشية الكتان. وأخرج من خزائنه أموالا عينا لشراء الضياع بالمشرق لتكون وقفا على القراء فيها. وأوفد على الملك الناصر محمد بن قلاوون صاحب مصر والشام، من خواص مجلسه وكبار أهل دولته، عريف بن يحيى أمير زغبة، والسابق القدم في بساطه على كل خالصة، وعطية بن مهلهل بن يحيى كبير الخولة. وبعث كاتبه أبا الفضل بن محمد بن أبي مدين، وعريف الوزعة بدولته، وصاحب الباب عبو بن قاسم المزوار. واحتفل في الهدية للسلطان

صاحب مصر احتفالا تحدث به الناس دهرا. ووقفت على برنامج الهدية بخط أبي الفضل بن أبي مدين هذا الرسول ووعيته وأنسيته. وذكر لي بعض

قهارمة الدار أنه كان فيها خمسماية من عتاق الخيل المقربات، بسروج الذهب والفضة ولجمها، خالصا ومغشى ومموهاً. وخمسماية حمل من متاع الغرب وماعونه وأسلحته، ومن نسج الصوف المحكم ثيابا وأكسية وبرانس وعمائم، وازرا معلمة وغير معلمة. ومن نسج الحرير الفائق المعلم بالذهب ملونا وغير ملون، وسادجا منمقا. ومن الدرق المجلوبة من بلاد الصحراء المحكمة بالدباغ المتعارف، وتنسب إلى اللمط. ومن حرثى المغرب وماعونه ما يستظرف صناعته بالمشرق، حتى لقد كان فيها مكيل من حصى الجوهر والياقوت. واعتزمت حظية من حظايا أبيه على الحج في ركابه ذلك، فأذن لها واستبلغ في تكريمها. واستوصى بها وافده وسلطان مصر في كتابه. وفصلوا من تلمسان، وأدوا رسالتهم إلى الملك الناصر وهديتهم، فتقبلها وحسن لديه موقعها. وكان يوم وفادتهم عليه بمصر يوما مشهودا تحدث به الناس دهرا، ولقاهم في طريقهم أنواع البر والتكرمة حتى قضوا فرضهم، ووضعوا المصحف الكريم بحيث أمرهم صاحبهم. وأسنى هدية السلطان من فساطيطهم الغريبة الهيكل والصنعة بالمغرب، ومن ثياب إسكندرية البديعة النسج المرقومة بالذهب، ورجعهم بها إلى مرسلهم وقد استبلغ في تكريمهم وصلتهم. وبقي حديث هذه الهدية مذكورا بين الناس لهذا العهد.

ثم انتسخ السلطان نسخة أخرى من المصحف الكريم على القانون الأول، ووقفها

على القراء بالمدينة، وبعثها مع من تخيره لذلك العهد من أهل دولته. واتصلت الولاية بينه وبين الملك الناصر إلى أن هلك سنة إحدى وأربعين. وولي الأمر من بعده ابنه أبو الفداء إسماعيل، فخاطبه السلطان وأتحفه وعزاه عن أبيه. وأوفد عليه كاتبه وصاحب ديوان الخراج ببابه أبا الفضل بن عبد الله بن أبي مدين، فقضى من وفادته ما حمل. وكان شأنه عجبا في إظهار أبهة سلطانه، والإنفاق على المستضعفين من الحاج في سبيلهم، و.إتحاف رجال الدولة التركية بذات يده، والتعفف عما في أيديهم. ثم شرع السلطان بعده عند استيلائه على إفريقية كما نذكره في كتابة نسخة أخرى

من المصحف الكريم ليوقفها ببيت المقدس، فلم يقدر على إتمامها. وهلك قبل فراغه من نسخها كما نذكره إن شاء الله تعالى.

الخبر عن هدية السلطان إلى ملك مالي من السود إن المجاورين للمغرب:

كان للسلطان أبي الحسن مذهب في الفخر معروف، يتطاول به إلى مناغاة الملوك

الأعاظم واقتفاء سننهم في مهاداة الأقتال والأنظار، وإنفاذ الرسل على ملوك القاصية والتخوم البعيدة. وكان ملك مالي أعظم ملوك السودان لعهده مجاورا لملكه بالمغرب على ماية مرحلة في القفر من ثغور ممالكه القبلية. ولما غلب بني عبد الواد على تلمسان، وابتزهم ملكهم، واستولى على ممالك المغرب الأوسط، وتحدث الناس بشأن أبي تاشفين وحصاره ومقتله، وما كان للسلطان في ذلك من سورة التغلب وإهانة العدو، شاعت أخبار ذلك في الآفاق. وسما سلطان مالي منسا موسى المتقدم ذكره في أخبارهم إلى مخاطبته، فأوفد عليه فرانقين من أهل مملكته مع ترجمان من الملثمين المجاورين لممالكهم من صنهاجة، فوفدوا على السلطان في التهنئة بالتغلب والظفر بالعدو، فكرم وفادتهم وأحسن مثواهم ومنقلبهم. ونزع إلى طريقته في الفخر، فانتخب طرفا من متاع المغرب وماعونه من ذخيرة داره وأسناها. وعين رجالا من أهل دولته، كان فيهم كاتب الديوان أبو طالب بن محمد بن أبي مدين، ومولاه عنبر الخصي. وأنفذهم بها على ملك مالي منسا سليمان بن منسا موسى، لمهلك أبيه قبل مرجع وفده. وأوعز إلى أعراب الفلاة من المعقل بالسير معهم ذاهبين وجائين، فشمر لذلك علي بن غانم أمير أولاد جار الله من المعقل، وصحبهم في طريقهم امتثالا لأمر السلطان. وتوغل ذلك الركاب في القفر إلى بلد مالي، بعد الجهد وطول المشقة، فأحسن مبرتهم وأعظم موصلهم وكرم وفادتهم ومنقلبهم. وعادوا إلى مرسلهم في وفد من كبار مالي يعظمون سلطانه، ويوجبون حقه، ويؤدون من خضوع مرسلهم وقيامه بحق السلطان واعتماله في مرضاته ما استوصاهم به، فأذوا رسالتهم. وبلغ السلطان إربا من اعتزازه على الملوك، وخضوعهم لسلطانه. وقضى حق الشكر لله في صنعه.

الخبر عن إصهار السلطان إلي صاحب تونس:

لما هلكت ابنة مولانا السلطان أبي يحيى بطريف فيمن هلك من حظايا السلطان

أبي الحسن بفساطيطه، بقي في نفسه منها شيء حنينا إلى ما شغفته من خلالها وعز سلطانها، وقيامها على بيتها، وظرفها في تصرفاتها، والاستماع بأحوال الترف ولذاذ العيش في عشرتها، فسما أمله إلى الاعتياض منها

ببعض أخواتها. وأوفد في خطبتها وليه عريف بن يحيى أمير زغبة، وكاتب الجباية والعساكر بدولته أبا الفضل بن عبد الله بن

أبي مدين، وفقيه الفتيا بمجلسه أبا عبد الله محمد بن سليمان السطي، ومولاه عنبر الخصي، فوفدوا يوم مثنى من سنة ست وأربعين. وأنزلوا منزل البر، واستبلغ في تكريمهم. ودس الحاجب أبو محمد عبد الله بن تافراكين إلى سلطانه غرض وفادتهم، فأبى عن ذلك صونا لحرمه عن جولة الأقطار وتحكم الرجال، واستعظاما لمثل هذا العرس. ولم يزل حاجبه ابن تافراكين يخفض عليه الشأن، ويعظم عليه حق السلطان أبي الحسن في رد خطبته، مع الأزمة السالفة بينهما من الصهر والمخالطة، إلى أن أجاب وأسعف. وجعل ذلك إليه، فانعقد الصهر بينهما. وأخذ الحاجب في شوار العروس، وتأنق فيه، واحتفل واستكثر، وطال ثواء الرسل إلى أن استكمل. وارتحلوا من تونس لشهر ربيع من سنة سبع. وأوعز مولانا السلطان أبو يحيى إلى ابنه الفضل صاحب بونة، وشقيق هذه العروس أن يزفها على السلطان أبي الحسن قياما لحقه. وبعث من بابه مشيخة من الموحدين، مقدمهم عبد الواحد بن أكمازير، صحبوا ركابها إليه. ووفدوا جميعا على السلطان. واتصل بهم الخبر أثناء طريقهم بمهلك مولانا أبي يحيى عفا الله عنه، فعزاهم السلطان أبو الحسن عنه عندما وصلوا إليه. واستبلغ في تكريمهم، وأجمل موعد أخيه الفضل بسلطانه، ومظاهرته على تراث أبيه، فاطمأنت به الدار إلى أن سار في جملة السلطان، وتحت ألويته إلى إفريقية، كما نذكر إن شاء الله تعالى.

الخبر عن حركة السلطان إلي إفريقية واستيلائه عليها:

كان السلطان أبو الحسن قد امتدت عينه إلى ملك إفريقية، لولا مكان مولانا السلطان أبي يحيى من ولاية صهره، وأقام يتحين لها الوفاة. ولما بعث إليه في الصهر، واشيع بتلمسان أن الموحدين ردوا خطبته، نهض من المنصورة بتلمسان، وأغذ السير إلى فاس. ففتح ديوان العطاء، وأزاح علل عساكره. وعقد على المغرب الأقصى لحافده منصور ابن الأمير أبي مالك. وفوض إلى الحسن بن سليمان بن يرزيكن في أحكام الشرطة، وعقد له على الضاحية. وارتحل إلى تلمسان مضمر الحركة إلى إفريقية، حتى إذا جاءه الخبر اليقين بالإسعاف والزفاف، سكن غربه وهدأ طائره. فلما هلك السلطان أبو يحيى في رجب من سنة سبع وأربعين، وكان من قيام ابنه عمر

بالأمر، ونزوع الحاجب أبي محمد بن تافراكين منها في رمضان ما ذكرناه، تحركت عزائمه لذلك.

ورغبه ابن تافراكين في ملك الموحدين، فرغب وجاء على أثره الخبر بما كان من قتل عمر لأخيه أحمد ولي العهد، وكان يستظهر على عهده بكتاب أبيه، وما أودعه السلطان بطرته من الوفاق على ذلك بخطه، اقتضاه منه حاجبه أبو القاسم بن عتو في سفارته إليه، فامتعض السلطان لما أضاع عمر من عهد أبيه، وهدر من دم أخيه. وارتكب مذاهب العقوق فيهم، وخرق السياج الذي فرضه بخطه عليهم، فأجمع الحركة إلى إفريقية. ولحق به خالد بن حمزة بن عمر نازعا إليه مستغذا مسيره، ففتح ديوان العطاء، ونادى في الناس بالمسير إلى إفريقية، وأزاح عللهم. وكان صاحب بجاية المولى أبو عبد الله حافد مولانا السلطان أبي يحيى، وفد على السلطان أبي الحسن إثر مهلك جده يقرر المتات بسفارة أبيه إليه، ويطلب الإقرار على عمله. فلما استيأس منه، واستيقن حركته بنفسه إلى إفريقية، طلب الرجوع إلى مكانه فأسعف، وفصل إلى بجاية.

ولما قضى السلطان منسك الأضحى من سنة سبع وأربعين، عقد لابنه الأمير أبي

عنان على المغرب الأوسط، وعهد إليه بالنظر في أموره كافة، وجعل إليه جبايته، وارتحل يريد إفريقية. وسار في جملته هو وخالد بن حمزة أمير البدو. ولما احتل بوهران، وافاه هنالك وفد قسطيلية وبلاد الجريد، يقدمهم أحمد بن مكي أمير جربة ورديف أخيه عبد الملك في أمارة قابس، ويحيى بن محمد بن يملول أمير توزر. سقط إليها بعد خروج الأمير أبي العباس ولي العهد عنها، ومهلكه بتونس، وأحمد بن عمر بن العابد رئيس نفطة، رجعا إليها كذلك بعد مهلك ولي العهد، فلقيه هؤلاء الرؤساء بوهران في ملأ من وجوه بلادهم، فأتوه بيعتهم، وقضوا حق طاعته. وتثاقل محمد بن ثابت أمير طرابلس عن اللحاق، فبعث بيعته معهم، فأكرم وفدهم. وعقد لهم على أمصارهم، وصرفهم إلى أعمالهم. وتمسك بأحمد بن مكي لصحابة ركابه، وفي جملته، وأغذ السير. ولما احتل ببني حسن من أعمال بجاية، وافاه بها منصور بن مزني أمير بسكرة وبلاد الزاب في وفد من أهل وطنه، ويعقوب بن علي بن أحمد سيد الدواودة وأمير البدو بضاحية بجاية وقسنطينة، فتلقاهم بالمبرة والاحتفاء، وألزمهم ساقته. وسرح بين يديه قائده حمو بن

يحيى العشري من صنائع أبيه. فلما عسكر بساحة بجاية أبي عبدالله، أبى عليه أهل البلد رهبة من السلطان ورغبة فيه. وانفضوا من حوله، ولحقت مشيختهم بالقضاة وأهل الفتيا والشورى بمجلس السلطان. وسابقهم إليه حاجبه فارح مولى ابن

سيد الناس، فأدى طاعته ورجعه إليه بالخروج للقاء ركابه. وارتحل حتى إذا أطلت راياته على البلد، بادر المولى أبو عبدالله ولقيه بساحة البلد، واعتذر عن تخففه، فتقبل عذره وأحله من البرور والتكرمة محل الولد العزيز. وأقطعه عمل كومية من ضواحي هنين، وأسنى جرايته بتلمسان، وأصحبه إلى ابنه فأبى عنان صاحب المغرب الأوسط، واستوصاه به. ودخل بجاية، فرفع عنهم الظلامات، وحط عنهم الربع من المغارم. ونظر في أحوال ثغورها، فثقف أطرافها وسد فروجها. وعقد عليها لمحمد بن الثوار من طبقة الوزراء والمرشحين لها، وأنزل معه حامية بني مرين، وكاتب الخراج ببابه بركات بن حسون بن البواق. وارتحل مغذا سيره حتى احتل بقسنطينة. وتلقاه أميرها أبو زيد حافد مولانا السلطان أبي يحيى واخوته أبو العباس أحمد، وأبو يحيى زكرياء، وسائر إخونهم، فأتوه بيعتهم ونزلوا عن عملهم. وأدالهم السلطان منه بندرومة من عمل تلمسان، عقد للمولى أبي زيد على أمارتها، وجعله أسوة إخوته في إقطاع جبايتها، ودخل البلد، وعقد عليها لمحمد بن العباس، وأنزل معه العباس بن عمر في قومه من بني عسكر. وأمضى إقطاعات الدواودة، ووافاه هنالك عمر بن حمزة سيد الكعوب لعهده وأمير البدو مستحثا لركابه. وأخبره برحيل السلطان عمر بن مولانا أبي يحيى من تونس، فبمن اجتمع إليه من أولاد مهلهل أقتالهم من الكعوب متوجها إلى ناحية قابس. وأشار علي السلطان بتسريح العساكر لاعتراضه قبل أن يخلص إلى طرابلس، فسرح معه حمو بن يحيى العشري قائده في عسكر من بني مرين والجند. وارتحلوا في اتباع السلطان أبي حفص. وتلوم السلطان أبو الحسن بقسنطينة، واعترض عساكره بسطح الجعاب منها. وصرف يوسف بن مزني إلى عمله بالزاب، بعد أن خلع عليه وحمله.

ثم عقد للمولى الفضل ابن مولانا السلطان أبي يحيى على مكان عمله ببونة، وملأ

حقائبه جائزة وخلعا نفيسة وسرحه، ثم ارتحل على أثرهم وأغذ حمو بن يحيى السير مع الناجعة من أحياء أولاد أبي الليل، ولحقوا بالأمير أبي حفص بمباركه من ناحية قابس، فأوقعوا به وتردى عن فرسه في حومة القتال هو ومولاه ظافر السنان لقائم بدولته من المعلوجي، فتقبض عليهما وسيقا إلى

حفو، فاعتقلهما إلى الليل. ثم ذبحهما وأنفذ برؤوسهما إلى السلطان. ولحق الفل بقابس، فتقبض عبد الملك بن مكي على أبي القاسم بن عتو صاحب الأمير أبي حفص وشيخ الموحدين، وعلى صخر بن موسى شيخ

بني سكين فيمن تقبض عليه من ذلك الفل، وأشخصهم مقرنين في الأصفاد إلى السلطان. وسرح السلطان عسكره إلى تونس وعقد عليهم ليحيي بن سليمان صهره من بني عسكر على ابنته، وأنفذ معه أحمد بن مكي، فاحتلوا بتونس واستولوا عليها. وانطلق ابن مكي إلى مكان عمله من هنالك لما عقد له السلطان عليه وسرحه إليه بعد أن خلع عليه وعلى حاشيته وحملهم. ونزل السلطان بباجة، فوافاه هنالك البريد برأس الأمير أبي حفص، وعظم الفتح.

ثم ارتحل إلى تونس، واحتل بها يوم الأربعاء الثامن من جمادى الآخرة من سنة

ثمان. وتلقاه وفد تونس وملأوها من شيوخ الشورى وأرباب الفتيا، فأتوا طاعتهم وانقلبوا مسرورين بملكتهم. ثم عبأ يوم السبت لدخولها مواكبه، وصف جنده سماطين من معسكره بسيجوم إلى باب البلد، يناهز ثلاثة أميال أو أربعة. وركب بنو مرين في جموعهم على مراكزهم وتحت راياتهم. وركب السلطان من فسطاطه، وواكبه من عن يمينه وليه عريف بن يحيى أمير زغبة، ويليه أبو محمد عبد الله بن تافراكين. ومن عن يساره الأمير أبو عبد الله محمد أخو مولانا السلطان أبي يحيى، ويليه الأمير أبو عبد الله ابن أخيه خالد. كانا معتقلين بقسنطينة مع ولدهما منذ خرج الأمير أبو فارس، فأطلق السلطان أبو العباس وصحبوه إلى تونس، فكانوا طرازا في ذلك الموكب فيمن لا يحصى من أعياص بني مرين وكبرائهم. وهدرت طبوله، وخفقت راياته، وكانت يومئذ ماية. وجاؤوا لمواكب تجتمع عليه صفا صفا، إلى أن وصل إلى البلد، وقد ماجت الأرض بالجيوش، وكان يوما لم ير مثله فيما عقلناه. ودخل السلطان إلى القصر، وخلع على أبي محمد بن تافراكين كسوته، وقرب اليد فرسه بسرجه ولجامه. وطعم الناس بين يديه وانتشروا. ودخل السلطان مع أبي محمد بن تافراكين إلى حجر القصر ومساكن الخلفاء فطاف عليها ودخل منه إلى الرياض المتصلة به المدعوة برأس الطابية، فطاف على بساتينه وجوائزه، وأفضى منه إلى معسكره وأنزل يحيى بن سليمان بقصبة تونس في عسكر لحمايتها. ووصل إليه فل الأمير أبي حفص والأسرى بقابس مقرنين في أصفادهم، فأودعهم السجن بعد أن

قطع أبا القاسم بن عتو وصخر بن موسى من خلاف لفتيا الفقهاء بجرايتهم.
وارتحل من الغد إلى القيروان، فجال في نواحيها. ووقف على

آثار الأولين ومصانع الأقدمين، والطلول الماثلة لصنهاجة والعبيديين، وزار أجداث العلماء والصالحين.

ثم سار إلى المهدية ووقف على ساحل البحر، ونظر في عاقبة الذين كانوا من قبله

اشد قوة وأثارا في الأرض، واعتبر في أحوالهم. ومر في طريقه بقصر الأجم ورباط المنستير، وانكفأ راجعا إلى تونس، واحتل بها غرة رمضان. وأنزل المسالح على ثغور إفريقية وأقطع لبني مرين البلاد والضواحي، وأمضى إقطاعات الموحدين للغرب. واستعمل على الجهات، وسكن القصر، وقد كمل الفتح، وعظمت في الاستيلاء على الممالك والدول المنة. واتسعت ممالكه ما بين مسراتة والسوس الأقصى من هذه العدوة، وإلى رندة من عدوة الأندلس. (والملك لله يؤتيه من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين).

ورفع إليه الشعراء بتونس يهنونه بالفتح، وكان سابقهم في تلك النوبة أبو القاسم الرحوي من ناشئة أهل الأدب، فرفع إليه قوله:

أجابك شرق إذ دعوت ومغـــرب فمكة هشت للقاء ويثرب

وناداك مصر والعراق وشامـــه بداراً، فصدع الدين عندك يشعب

وحيتك أو كادت تحيي منابـــر عليها دعاة الحق باسمك تخطب

فسارع كل دان وشاســـع إلى طاعة من طاعة الله تحسب

وتاقت لك الأرواح حباً ورغبـــة وأنت علم الآمال تنأى وتقرب

فبالبلدة البيضاء لباك معشـــر وأنت بأفق الناصرية ترقب

ووافتك من ذات النخيل وفودهـــا فلاقاهم أهل لديك ومرحب

ولم تتلكأ عن إباء بجايـــة ولكن تراضي الصعب حينا وتركب

تأبت فلما أن أطلت عساكـــر ترى الشهب مما يستباح وينهب

تبادر منهم مذعن ومسلـــم وأذعن منهم شاغب ومؤلب

وما تونس إلا بمصر مـــروع وفي حرم أمست لديك تسرب

وما أهلها إلا بغاث لصائـــد وبالعز منك استنسروا وتعقبوا

وقد كنت قبل اليوم كهف زعيمهـــم فها أنت كهف للجميع ومهرب

فكل يرى أن الزمان أدالـــه بكم فأجاب العيش والعيش مخصب

وكذلك ابن طائع وإن اعتلـــت به السن إجلالا وأنت له أب
وما ذاك الا أن عدلك ينتمـــي إلى الخلفاء الراشدين وينسب
تساميت في ملك ونسك بخطـــة حذياك محراب لديها وموكب
إذا لذ للأملاك خمر مـــدارة فلذلك القرآن تتلو وتكتب
وإن أدمن القوم الصبوح فإنمـــا على ركعات بالضحى أنت تدأب
وإن حمدوا شرب الغبوق فإنمـــا شرابك بالإمساء ذكر مرتب
وإن خشنت أخلاقهم وتحجبـــوا فما أنت فظ، لا، ولا متحجب
لقد كرمت منك السجايا فأصبحت إذا ما أمد الدهر تحلو وتعذب
كما شدت بيتا في ذؤابة معشـــر يزيد بهم قحطان فخرا ويعرب
هم التاركو قلب القساور خضعـاً وعن شأوهم كفت عبيد وأغلب
هم الناس والأملاك تحت جوارهـم هم العظم والأرض العظيمة تغرب
هم المالكو الملك العظيم ودستهـم على كاهل السبع الشداد مطنب
لقد أصبحت بغداد تحسد فاسهـــم ودجلة ودت أن يكون بهاسب؟
تجلت سماء المجد منهم كواكبـــا لقد حل منها شارق ومغرب
فلله منهم ثلة يعربيـــــــة يروم ثباها الأعجمي فيعرب
لقد قام عبد الحق للحق طالبـــاً فما فاته منه الذي قام يطلب
وأعقب يعقوبا يؤم سبيلـــــه فلم يخطه وهو السبيل الملحب
وخلف عثماناً فلله صـــــارم به بان للإسلام شرع ومذهب
فكم في سبيل الله شن إغـــارة لما شاد أهل الكفر أمست تخرب
ولما أراد الله إتمام منـــــة تقلدها منا مطيع ومذنب
أتى بك للذين الحنيفي آيـــة تعرى بها عن لامع الحق غيهب
فجئت كما يرضى بك الله سالكـاً سبيلا إلى رضوانه بك يذهب
وقمت بأمر الله حق قيامـــه يناضل عنه منك نصل مدرب
وأصبح أهل الله أهلا وشيعـــة لكم ولهم منكم مكان ومنصب
وحل بأهل الفتك ما حل عزمهـم وقام لديهم واعظ ومثوب
وجاهدت في الرحمن حق جهـاده فراهب أهل الكفر بأسك يرهب

وأنقذت من أيدي الإغارة أمـــــة وأولى جهاد كان بل هو أوجب
فأصبحت الدنيا عروسا يزفهـــا لأمرك من جاري التقادير مغرب
فلا مصر إلا قد تمناك أهلـــــه ولا أرض إلا بأذكارك تخصب
وما الأرض إلا منزل أنت ربـــه وما حفها إلا الودود المرجب
تملكت شطر الأرض كسبا وشطرهـا تراثا فطاب الملك إرثا ومكسب
بجيش على الألواح والماء يمتطـــي وجيش على الضمر الصوافن يركب
وجيش من الإحسان والعدل والتقـــى وذلك لعمر الله أغلى وأغلب
فلا مركب إلا يزين راكبـــــا ولا راكب إلا به ازدان مركب
ولا رمح إلا وهو أهيص خاطـــر ولا سيف إلا وهو أبيض مقضب
فكم كاتب خطيه ودواتـــــــه ولم يقر خطا لا، ولا هو يكتب
يمر على الأبطال وهو كأنـــــه هزبر وأبطال الفوارس ربرب
وكم كاتب لا ينكر الطعن رمحـــه خبير بأيام الأعاريب معرب
له من عجيب السحر بالقول أضـــرب وفي هامة القوم المضارب مضرب
فها هو في الأقوال واش محبـــــر وها هو في الأمثال ثاو مجرب
ومن ساحب بردا من العلم والتقـــى عليه ذيول الداودية تسحب
له صبغة في العلم جاءت بأصبـــغ وشهبان فهم لم يشمهن أشهب
فيا عسكرا قد ضم أعلام عالـــــم به طاب في الدنيا لنا متقلب
هم الفئة العلياء والمشعر الـــــذي إذا حل صعبا فهو للحن مشعب
لك الفضل في الدنيا على كل قاطـــن ومرتحل أنى يجيء ويذهب
ويا ملكا عدلا رضى متورعـــــا مناقبه العلياء تعلى وتكتب
شرعت من الإحسان فينا شريعـــة تساوى بها ناء ومن يتقرب
وأسميت أهل النسك إذ كنت منهـــم فمنك أخو التقوى قريب مقرب
وأعليت قدر العلم إذ كنت عالمـــا فقيها وفي طلابه لك مأرب
فمدحك محتوم على كل قائـــــل ومن ذا الذي يحصي الرمال ويحسب
فلله كم تعطي وتمطي وتحتبـــــي فللبحر من كفيك قد صح منسب
فلا برحت كفاك في الارض مزنـــة يطيب بها للخلق مرعى ومشرب

ولا زلت في علياء مجدك راقيـــــاً وشانئك المدحوض ينكا وينكب
وتوفي على أقصى أمانيك آمنـــــاً فلا بر يستعصي ولا يتصعب

الخبر عن واقعة العرب مع السلطان بالقيروان. وما تخللها من الأحداث:

كان هؤلاء الكعوب من بني سليم رؤساء البدو بإفريقية وكان لهم اعتزاز على الدولة لا يعرفون غيره مذ أولها بل وما قبله، إذ كان سليم هؤلاء مذ تغلب العرب من مضر على الدول والممالك أول الإسلام انتبذوا إلى الضواحي والقفار، وأعطوا من صدقاتهم عن عزة وارتاب الخلفاء بهم لذلك، حتى لقد أوصى المنصور ابنه المهدي أن لا يستعين بأحد منهم كما ذكر الطبري. فلما التاثت الدولة العباسية، واستبد الموالي من العجم عليهم، واعتز بنو سليم هؤلاء بالقفر من أرض نجد وأجلبوا على الحاج بالحرمين، ونالتهم منهم معرات، ولما انقسم ملك الإسلام بين العباسية، والشيعة، واختطوا القاهرة، نفقت لهم إذ ذاك أسواق الفتنة والتعزز، وساموا الدولتين بالهضيمة وقطع السابلة. ثم أغزاهم العبيديون بالمغرب، وأجازوا إلى برقة على إثر الهلاليين، فخربوا عمرانها وأجروا في خلالها. حتى إذا خرج ابن غانية على الموحدين، وانتزى بالثغور الشرقية: طرابلس وقابس واجتمع معه على ذلك قراقش الغزي مولى بني أيوب ملوك مصر والشام. وانضاف إليهم أفاريق العرب من بني سليم هؤلاء وغيرهم، فأجلبوا معهم على الضواحي والأمصار، وصاروا في جملتهم ومن ناعق فتنتهم. ولما هلك قراقش وابن غانية، واستبد آل أبي حفص بإفريقية، واعتز الدواودة على الأمير أبي زكرياء يحيى بن عبد الواحد بن أبي حفص، استظهر عليهم ببني سليم هؤلاء، وزاحمهم بظواعنهم وأقطعهم بإفريقية، ونقلهم من مجالاتهم بطرابلس وأنزلهم بالقيروان فكان لهم من الدولة مكان وعليها اعتزاز. ولما افترق سلطان بني أبي حفص، واستبد الكعوب برياسة البدو، وضربوا بين أعياصها وسعوا في شقاقها، أصابت منهم وأصابوا منها. وكان بين مولانا الأمير أبي يحيى وبين حمزة بن عمر أخي الأمير منازعة وفتن، وحرب سجال أعانه عليها

ما كان من زحف بني عبد الواد إلى إفريقية، وطمعهم في تملك ثغورها، فكان يستجر جيوشهم لذلك، وينصب الأعياص من آل أبي حفص يزاحمهم بهم، ثم غلبه مولانا السلطان أبو بكر آخرا وقاده إلى الطاعة، ما كان من قطع كلمة الزبون عن مولانا السلطان

أبي يحيى، وهلاك عدوه من آل يغمراسن، بسيف وليه وظهيره السلطان أبي الحسن، فأذعن وسكن غرب اعتزازه. وحمل بني سليم على إعطاء صدقاتهم، فأعطوها بالكراهة. ثم هلك باغتيال الدولة له فيما يزعمون، وقام بالأمر بنوه فلم يعرفوا عواقب الأمور وبلوا باعتساف الدول. ولم يعهدوا ولا سمعوا لسلفهم غير الاعتزاز فحدثتهم أنفسهم بالفتنة والاعتزاز على قائد الدولة. وحاربوه فغلبوه وأجلبوا على السلطان في ملكه، ونازلوه بعقر داره سنة اثنتين وأربعين. ولما سامهم الأمير عمر ابن مولانا الأمير أبي يحيى الهضيمة بعد مهلك أبيه، نزعوا إلى أخيه ولي العهد، فجاء إلى تونس وملكها سبعا. ثم اقتحمها عليه أخوه الأمير أبو حفص فقتله. وتقبض يوم اقتحامه البلد على أبي الهول بن حمزة أخيهم، فقتله صبرا بباب داره بالقصبة فأسفهم بها. وتداعوا إلى السلطان أبي الحسن ورغبوه في ملك إفريقية، واستغذوه إليها.

ولما تغلب السلطان على الوطن، وكانت حاله في اعتزاز على من في طاعته غير

حال الموحدين، وملكته للبدو غير ملكتهم، وحين رأى اعتزازهم على الدولة، وكثرة ما أقطعتهم من الضواحي، ثم من الأمصار، نكره وأدالهم من الأمصار التي أقطعهم الموحدون باعطيات فرضها لهم في الديوان. واستكثر جبايتهم، فنقصهم الكثير منها وشكى إليه الرعية من البدو ما ينالونهم من الظلامات والجور بفرض الأتاوة التي يسمونها الخفارة، فقبض أيديهم عنها وأوعز إلى الرعايا بمنعهم منها، فارتابوا لذلك. وفسدت نياتهم وثقلت وطأة الدولة عليهم، فترصدوا لها. وتسامع ذؤبانهم وبواديهم بذلك، فأغاروا على قياطين بني مرين ومسالحهم بثغور إفريقية وفروجها واستاقوا أموالهم وكثر شكاتهم وأظلم الجو بينهم وبين السلطان والدولة ووفد عليه بتونس بعد مرجعه من المهدية وفد من مشيختهم كان فيهم خالد بن حمزة مستحثه إلى إفريقية، وأخوه أحمد، وخليفة بن عبد الله بن مسكين، وابن عمه خليفة بن بو زيد من أولاد القوس، فأنزلهم السلطان وكرمهم.

ثم رفع إليه الأمير عبد الواحد ابن السلطان أبي يحيى زكرياء بن اللحياني كان في جملته. وكان من خبره أنه رجع من المشرق بعد مهلك أبيه

بمصر كما قدمناه سنة اثنتين وثلاثين، فدعا لنفسه بجهات طرابلس وتابعه أعراب دباب، وبايع له عبد الملك بن مكي صاحب قابس. ونهض معه إلى تونس في غيبة السلطان لتخريب تيمزيزدكت كما ذكرناه،

فملكها أياما. وأحس بمرجع السلطان، فأجفل عنها. ولحق عبد الواحد بن اللحياني بتلمسان إلى أن دلف إليها السلطان أبو الحسن بعساكره، ففارقهم وخرج إليه، فأحله محل التكرمة والمبرة واستقر في جملته، إلى أن ملك تونس. ورفع إليه عند مقدم هذا الوفد أنهم دسوا إليه مع بعض حشمهم، وطلبوه في الخروج معهم لينصبوه للأمر بإفريقية وتبرأ إلى السلطان من ذلك، فأحضروا بالقصر ووبخهم الحاجب علال بن محمد بن المصمود. وأمر بهم، فسحبوا إلى السجن.

وفتح السلطان ديوان العطاء وعسكر بسيجوم بساحة البلد بعد قضائه منسك الفطر

من سنته. وبعث في المسالح والعساكر، فتوافوا ببابه. واتصل الخبر بأولاد أبي الليل القوس باعتقال وفدهم وعسكرة السلطان لهم، فضاقت عليهم الأرض بما رحبت وتعاقدوا على موت وبعثوا إلى أقتالهم أولاد مهلهل بن قاسم بن أحمد. وكانوا بعد مهلك سلطانهم أبي حفص قد لحقوا بالقفر، وانتبذوا عن إفريقية فرارا من مطالبة السلطان، بما كانوا شيعة لعدوه، فأغذ السير إليهم أبو الليل بن حمزة متطارحا عليهم بنفسه في الاجتماع للخروج على السلطان، فأجابوه وارتحلوا معه. وتوافت أحياء بني كعب وحكيم جميعا بتوزر من بلاد الجريد، فهدروا الدماء بينهم وتدامروا وتبايعوا على الموت والتمسوا من أعياص الملك من ينصبونه للأمر، فدلهم بعض سماسرة الفتن على رجل من أعقاب أبي دبوس فريسة بني مرين من حلفاء بني عبد المؤمن بمراكش، عندما استولوا عليها. وكان من خبره أن أباه عثمان بن إدريس بن أبي دبوس لحق بعد مهلك أبيه بالأندلس، وصحب هنالك مرغم بن صابر شيخ بني دباب. وهو أسير ببرشلونة. فلما انطلق من أسره صحبه إلى وطن دباب، بعد أن عقد قمص ببرشلونة بينهما حلفا وأمدهما بالأسطول على مال التزماه له. ونزل بضواحي طرابلس وجبال البربر بها، ودعا لنفسه هنالك. وقام بدعوته كافة العرب من دباب وقاتل طرابلس، فامتنعت عليه. ثم تابعه أحمد بن أبي الليل شيخ الكعوب بإفريقية، وأجلب به على تونس، فلم يتم أمره لرسوخ دعوة الحفصيين

بإفريقية، وانقطاع أمر بني عبد المؤمن منها وآثارهم منذ الأحوال العديدة والآماد المتقادمة، فنسي أمرهم.

وهلك عثمان بن إدريس هذا بجربة، ثم ابنه عبد السلام بعده وترك من الولد ثلاثة أصغرهم أحمد، وكان صناع اليدين. ولحقوا بتونس بعدما طوحت بهم طوائح

الاغتراب، وظنوا أن قد تنوسي شأن أبيهم، فتقبض عليهم مولانا السلطان أبو يحيى، وأودعهم السجن إلى أن كربهم إلى الإسكندرية سنة أربع وأربعين. ورجع أحمد منهم إلى إفريقية، واحتل بتوزر محترفا بحرفة الخياطة يتعيش منها فاستدعاه بنو كعب هؤلاء حين اتفقت أهواؤهم ومن اتبعهم من أحلافهم أولاد القوس، وسائر شعوب علاق. وخرج إليهم من توزر فنصبوه للأمر وجمعوا له شيئاً من الفساطيط والآلة والكسى الفاخرة والمقربات. وأقاموا له رسم السلطان، وعسكروا عليه بحللهم وقياطينهم، وارتحلوا لمناجزة السلطان. ولما قضى منسك الأضحى من سنة ثمان وأربعين، ارتحل من ساحة تونس يريدهم، فوافاهم في العرج ما بين بسيط تونس وتبسط القيروان المسمى بالثنية، فأجفلوا أمامه وصدقوه القتال منهزمين، وهو في اتباعهم، إلى أن احتل بالقيروان، ورأوا أن لا ملجأ منه، فتدامروا واتفقوا على الاستمالة ودس إليهم من عسكر السلطان بنو عبد الواد ومغراوة وبنو توجين فغلبوا بني مرين، وعدوهم بالمناجزة صبيحة يومهم ليتحيزوا إليهم برياتهم، فصبحوا معسكر السلطان. وركب إليهم في الالة والتعبئة واحتل المصاف، وتحيز إليهم الكثر. ونجا السلطان إلى القيروان فدخلها في الفل من عساكره ثامن المحرم فاتح تسع وعشرين، وتدافعت ساقات العرب في أثره. وتسابقوا إلى المعسكر، فانتهبوه ودخلوا فسطاط السلطان، فاستولوا على ذخيرته والكثير من حرمه. وأحاطوا بالقيروان، وأحدقت حللهم بها سياجا، وتعاوت ذيابهم بأطراف البقاع وأجلب ناعق الفتنة من كل مكان. وبلغ الخبر إلى تونس، فاستحصن بالقصبة أولياء السلطان وحرمه، ونزع ابن تافراكين من جملة السلطان بالقيروان إليهم، فعقدوا له على حجابة سلطانهم أحمد بن أبي دبوس ودفعوه إلى محاربة من كان بقصبة تونس، فأغذ إليها السير. واجتمع إليه أشياع الموحدين وزعانف الغوغاء والجند، وأحاطوا بالقصبة، وغاداها بالقتال، ونصب المنجنيق لحصارها. ووصل سلطانه أحمد على أثره، وامتنعت علبهم، ولم يغنوا فيها غنا، وافترق أمر الكعوب وخالف بعضهم بعضا إلى السلطان وتساقطوا إليه، فتنفس مخنق الحصار عن القيروان. واختلفت إليه رسل أولاد مهلهل، وأحس بهم أولاد أبي الليل. فدخل أبو الليل بن حمزة بنفسه،

وعاهد السلطان على الإفراج، ولم يف بعهده. وداخل السلطان وأولاد مهلهل في الخروج معهم إلى سوسة، فعاهدوه على ذلك. وواعد أسطوله بمرساها وخرج معهم ليلا على تعبية، فلحق بسوسة

وبلغ الخبر إلى ابن تافراكين بمكانه من حصار القصبة، فركب السمين ليلا إلى الإسكندرية. وارتاب سلطانهم ابن أبي دبوس لما وقف على خبره، فانفض جمعهم وأفرجوا عن القصبة. وركب السلطان أسطوله من سوسة، ونزل بتونس آخر جمادى واعتمل في إصلاح أسوارها وإدارة الخندق عليها. وأقام لها من الامتناع والتحصين رسما ثبت لها من بعده، ودفع به نحو عدوه. واستقل من نكبة القيروان وعثرتها، وخلص من هوتها. والله يفعل ما يشاء.

ولحق أولاد أبي الليل، وسلطانهم أحمد بن أبي دبوس بتونس، فأحاطوا بالسلطان واستبلغوا في حصاره. وخلصت ولاية أولاد مهلهل للسلطان، فعول عليهم ثم راجع بنو حمزة رأيهم في طاعة السلطان ودخل كبيرهم عمر إليه في شعبان، وتقبضوا على سلطانهم أحمد بن أبي دبوس وقادوه إلى السلطان استبلاغا في الطاعة، وإمحاضا للولاية فتقبل فيئتهم وأودع ابن أبي دبوس السجن، وأصهر إلى عمر بابنه أبي الفضل، فعقد له على بنته. واختلفت أحوالهم في الطاعة والانحراف، إلى أن كان ما نذكر. والله غالى على أمره.

الخبر عن انتقاض الثغور الغربية ورجوعها إلي دعوة الموحدين:

كان المولى الفضل ابن مولانا السلطان أبي يحيى، لما قدم على السلطان أبى الحسن بتلمسان في زفاف شقيقته سنة سبع وأربعين، بعدما اتصل به في طريقه مهلك أبيه، أوسع له السلطان كنفه، ومهد له جانب كرامته وبره، وغمز له بوعد في المظاهر على ملك أبيه يعزي به عن فقده. وارتحل السلطان إلى إفريقية، والمولى أبو الفضل يرجي أن يجعل سلطانها إليه، حتى إذا استولى السلطان على الثغرين بجاية وقسنطيظ وارتحاى إلى تونس، عقد له على مكان أمارته أيام أبيه ببونة، وصرفه إليها، فانقطع أ وفسد ضميره وطوى إلى النث حتى إذا كانت نكبة السلطان بالقيروان، سما إلى التوثب على ملك سلفه. وكان أهل قسنطينة وبجاية قد برموا من الدولة، واستثقلوا وطأة الإياله لما اعتادوا من الملكة الرقيقة، فاشرأبوا إلى الثورة عندما بلغهم خبر النكبة. وقد كان توافى بقسنطينة ركاب من المغرب فيه طوائف من الوفود والعساكر، وكان فيهم ابن صدر من أبناء السلطان، عقد له على عسكر من أهل المغرب، وأوعز إليه باللحاق بتونس

وفيهم عمال المغرب قدموا عند رأس الحول بجبايتهم وحسبانهم. وفيهم أيضا وفد من زعماء النصارى، بعثهم الطاغية ابن أذفونش مع تاشفين ابن السلطان لما أطلقه من الأسر، بعد عقد السلم والمهادنة، وكان أسيرا عندهم من لدن واقعة طريف كما ذكرناه، وكان أصابه مس من الجنون. فلما خلصت الولاية بين السلطان والطاغية، وعظم عنده الإتحاف والمهاداة، وبلغه خبر السلطان وتملكه إفريقية، أطلق ابنه تاشفين. وبعث معه هؤلاء الزعماء للتهنية، وفيهم أيضا وفد من أهل مالي ملوك السودان بالمغرب. أوفدهم ملكهم منسا سليمان للتهنية بسلطان إفريقية. وكان معهم أيضا يوسف بن مزني عامل الزاب وأميره، قدم بجباية عمله. واتصل به خبر الركاب بقسنطينة فلحق بهم، مؤثرا صحابتهم إلى سدة السلطان. وتوافى هؤلاء الوفود جميعا بقسنطينة، واعصوصبوا على ولد السلطان. فلما وصل خبر النكبة اشرأب الغوغاء من أهل البلد إلى الثورة، وتجلت شفاههم إلى ما بأيديهم من أموال الجباية وأحوال الثروة، فنقموا عليهم سوء الملكة ودلس مشيختهم إلى المولى الفضل ابن مولانا السلطان أبي يحيى بمكانه من بونة، وقد كشف القناع في الانتزاء على عمله والدعاء لنفسه، فخطبوه للأمر واستحثوه للقدوم، فأغذ السير. وتسامع بخبره أولياء السلطان، فخشي ابن مزني على نفسه، وخرج إلى معسكره بحلة يعقوب بن علي أمير الدواودة، ولجأ ابن السلطان وأولياؤه إلى القصبة. ومكر بهم أهل البلد في الدفاع دونهم، حتى إذا أطلت رايات مولانا الفضل وثبوا بهم وأحجروهم بالقصبة. وأحاطوا بهم حتى استنزلوهم على أمان عقدوه لهم. ولحقوا بحلة يعقوب، فعسكروا بها بعد أن نقض أهل البلد عهدهم في ذات يدهم، فاستصفوه، فأشار عليهم ابن مزني باللحاق ببسكرة ليكون ركابهم إلى السلطان، فارتحلوا جميعا في جوار يعقوب لما له من ملك الضواحي حتى لقوا ببسكرة، ونزلوا منها على ابن مزني خير نزل، وكفاهم " شيء يهمهم على طبقاتهم ومقاماتهم، وعناية السلطان بمن كان وافدا منهم، حتى ماربهم يعقوب بن علي إلى السلطان، وأوفدهم عليه في رجب من سنته. واتصل الخبر بأهل بجاية بالفعلة التي فعل أهل قسنطينة، فساجلوهم في الثورة. وكبسوا منازل أولياء السلطان وعسكره وعماله، فاستباحوها

واستلبوهم وأخرجوهم من بين ظهرانيهم عراة، فلحقوا بالمغرب. وطيروا بالخبر إلى المولى أبي الفضل، واستحثوه للقدوم، فقدم عليهم. وعقد على قسنطينة وبونة لمن استكفى به من خاصته ورجالات دولته، واحتل

ببجاية لشهر ربيع من سنته. وأعاد ملك سلفه. واستوثق أمره بهذه الثغور، إلى أن كان من خبره مع السلطان بعد خروجه من بجاية، ما نذكره إن شاء الله تعالى.

الخبر عن انتزاء أولاد السلطان بالمغرب الأوسط والأقصي، ثم استقلال أبي عنان بملك المغرب كله:

لما اتصل خبر النكبة على القيروان بالأمير أبي عنان ابن السلطان، وكان صاحب تلمسان والمغرب الأوسط. وتساقط إليه الفل من عسكر أبيه عراة زرافات ووحدانا، وأرجف الناس بمهلك السلطان بالقيروان، فتطاول الأمير أبو عنان للاستئثار بملك أبيه دون الأبناء، لما كان له من الإيثار عند أبيه، لصيانته وعفافه، واستظهار القرآن، فكان محلا بعين أبيه لأمثالها. وكان عثمان بن يحيى بن جرار من مشيخة بني عبد الواد وأولاد تيدوكسن بن طاع الله منهم، وكان له محل من الدولة كما ذكرناه في خبره. وكان السلطان أذن له في الرجوع إلى المغرب من معسكره بالمهدية، ونزل بزاوية العباد من تلمسان، وكان مسمتا وقورا، جهينة خبر ممتعا في حديثه. وكان يرجم فيه الوقوف على الحدثان. وكان الأمير أبو عنان متشوقا إلى أخبار أبيه، ففزع إلى عثمان بن جرار في تعرفها. واستدعاه وأنس به وكان في قلبه مرض من السلطان، فأودع أذن الأمير أبي عنان ما أراد من الأقاويل: من تورط السلطان في المهلكة، وبشره بمصير الأمر إليه، فصادف منه اذنا واعية. واشتمل عليه ابن جرار من بعد. فلما ورد الخبر بنكبة السلطان أغراه ابن جرار بالتوثب على الملك وسول له الاستئثار به على إخوانه تيقنا بمهلك السلطان. ثم أوهمه الصدق بإرجاف الناس بموت السلطان، فاعتزم وشحذ عزمه في ذلك ما اتصل به من حافد السلطان منصور ابن الأمير أبي مالك صاحب فاس وأعمال المغرب من الانتزاء على عمله، وأنه فتح ديوان العطاء، واستلحق واستركب لغيبة بني مرين عن بلادهم، وخلو جوه من عساكرهم. وأظهر العسكر والحشد لاستنقاذ السلطان من هوة القيروان، يسر منها حسوا في ارتغاء. وتفطن لشأنه الحسن بن سليمان بن يرزيكن، عامل القصبة بفاس، وصاحب الشرطة بالضواحي، فاستأذنه في اللحق بالسلطان، فأذن له راحة من مكانه. وأصحبه عمال المصامدة ونواحي

مراكش ليستقدمهم على السلطان بجباياتهم، فلحق بالأمير أبي عنان على حين أمضى عزيمته على التوثب والدعاء لنفسه، فقبض

أموالهم وأخرج ما كان بمودع السلطان بالمنصورة من المال والذخيرة. وجاهر بالدعاء لنفسه، وجلس للبيعة بمجلس السلطان من قصره في ربيع من سنة تسع، فبايعه الملأ. وقرأ كتاب بيعتهم على الأشهاد ثم بايعه العامة، وانفض المجلس، وقد انعقد سلطانه ورست قواعد ملكته. وركب في التعبية والآلة، حتى نزل بقبة الملعب. وأهم الناس وانتشروا. وعقد على وزارته لحسن بن سليمان بن يرزيكن ثم لفارس بن ميمون بن ودرار وجعله رديفا له وتبعا. ورفع مكان ابن جرار عليهم. واختص لولايته ومناجاة خلوته كاتبه أبا عبد الله بن محمد ابن القاضى عبد الله بن أبي عمر، وسنذكر خبره. ثم فتح الديوان واستركب من تساقط إليه من فل أبيه، وخلع عليهم ودفع إليهم اعطياتهم وأزاح عللهم. وبينما هو يريد الرحلة إلى المغرب، إذ بلغه أن ونزمار ابن ولي السلطان وخالصته عريف بن يحيى، وكان أمير زغبة لعهده، ومقدما على سائر البدو، وبلغه أنه قد جمع له بريد حربه، وغلبه على ما صار إليه من الانتزاء والثورة على أبيه. وأنه قصد تلمسان بجموعه من العرب، وزناتة المغرب الأوسط، فعقد للحسن بن سليمان وزيره على حربه. وأعطاه الالة وسرحه للقائه، وسرح معه من حضره من بني عامر أقتال سويد، وارتحل الوزير بعسكره حتى احتل بتاسالة. وناجزه ونزمار الحرب، ففلت جموعه ومنحوا أكتافهم، واتبع الوزير وعسكره اثارهم، واكتسح أموالهم وحللهم وعاد إلى سلطانه بالفتح والغنائم.

وارتحل الأمير أبو عنان إلى المغرب، وعقد على تلمسان لعثمان بن جرار، وأنزله بالقصر القديم منها، حتى كان من أمره مع عثمان بن عبد الرحمن ما ذكرنا في أخبارهم. ولما انتهى إلى وادي الزيتون وشي إليه بالوزير الحسن بن سليمان أنه مضمر الفتك به بنازى تزلفا إلى السلطان ووفاء بطاعته، وأنه داخل في ذلك الحافد منصور صاحب أعمال المغرب، بما كان يظهر من طاعة جده. وارتاب الأمير أبو عنان به، واستظهر واشيه على ذلك بكتابه. فلما قرأه تقبض عليه، وقتله بالمساء خنقا، وأغذ السير إلى المغرب. وبلغ الخبر منصور بن أبي مالك صاحب فاس، فزحف للقائه. والتقى الجمعان بساحة تازى وبوادي أبي الأجراف، فاختل مصاف منصور، وانهزمت جموعه ولحق بفاس. وانحجز بالبلد الجديد، وارتحل الأمير أبو

عنان في أثره وتسايل الناس على طبقاتهم إليه، وأتوه الطاعة. وأناخ بعساكره على البلد الجديد في ربيع الاخر من سنة تسع وأربعين، وأخذ

بمخنقها وجمع الأيدي والفعلة على الآلات لحصارها. ولحين نزوله على البلد الجديد أوعز إلى الوالي بمكناسة أن يطلق أولاد أبي العلاء المعتقلين بالقصبة، فأطلقهم ولحقوا به. وأقاموا معه على حصار البلد الجديد وطال تمرسه بها إلى أن ضاقت أحوالهم واختلفت أهواؤهم ونزع إليه أهل الشوكة منهم. ونزع إليهم إدريس بن عثمان بن أبي العلاء فيمن إليه من الحاشية بإذنه له في ذلك سرا ليمكنه بهم، فدس إليه وواعده الثورة بالبلد، فثار بها. واقتحمها الأمير أبو عنان عليهم. ونزل منصور بن أبي مالك على حكمه، فاعتقله إلى أن قتله بمحبسه واستولى على دار الملك وسائر أعمال المغرب. وتسابقت إليه وفود الأمصار للتهنية والبيعة. وتمسك أهل سبتة بطاعة السلطان، والانقياد لعاملهم عبد الله بن علي بن سعيد من طبقة الوزراء حيناً. ثم توثبوا به، وعقدوا على أنفسهم للأمير أبي عنان، وقادوا عاملهم إليه. وتولى كبر الثورة فيهم زعيمهم الشريف أبو العباس أحمد بن محمد بن رافع من بيت أبي الشريف من آل الحسن كانوا انتقلوا إليها من صقلية واستوسق للأمير أبي عنان ملك المغرب، واجتمع إليه قومه من بني مرين إلا من أقام مع السلطان بتونس وفاء بحقه. وحمق جناح أبيه عن الكرة على الكعوب الناكثين لعهده، الناكبين عن طاعته، فأقام بتونس يرجي الأيام، ويأمل الكرة. والأطراف تنتقض والخوارج تتجدد، إلى أن ارتحل إلى المغرب بعد اليأس، كما نذكره إن شاء الله تعالى.

الخبر عن انتقاض النواحي، وانتزاء بني عبد الواد بتلمسان، ومغراوة بشلف، وتوجين بالمدية:

لما كانت نكبة السلطان بالقيروان. وانتثر سلك زناتة، وانتقضت قواعد سلطانهم، اجتمع كل قوم منهم لإبرام أمرهم، والنظر في شأن جماعتهم، وكانوا جميعا نزعوا إلى الكعوب الخارجين على السلطان، وبنزوعهم كانت الدايرة عليه. ولحقوا بتونس مع الحاجب أبي محمد بن تافراكين، ليلحقوا منها بأعمالهم. وكان في جملة السلطان جماعة من أعاصيهم: منهم عثمان وإخوته الزعيم ويوسف وإبراهيم، أبناء عبد الرحمن بن يحيى بن يغمراسن بن زيان سلطان بني عبد الواد. صاروا في أيالة السلطان منذ فتح تلمسان،

وأنزلهم بالجزيرة للرباط. ثم رجعوا بعد استئثار الطاغية بها إلى مكانهم من دولتهم، وساروا إلى القيروان تحت لوائه. ومنهم علي بن راشد بن

محمد بن ثابت بن منديل، وقد ذكرنا أخبار أبيه. ربي في إيالة السلطان وجو الدولة يتيمأ، وكفلته نعمتها منذ نشأته، حتى كأنه لا يعرف سواها. فاجتمع بنو عبد الواد بتونس، وعقدوا على أنفسهم لعثمان بن عبد الرحمن، بما كان كبير إخوته. وأتوه ببيعتهم بشرقي المصفى العتيق المطل على سيجوم من ساحة البلد لعهده بهم يومئذ. وقد وضعوا له بالأرض درقة من اللمط أجلسوه عليها، ثم ازدحموا مكبين على يده يقبلونها للبيعة، ثم اجتمع من بعدهم مغراوة إلى علي بن راشد وبايعوه وحفوا به. وتعاهد بنو عبد الواد ومغراوة على الألفة وانتظام الكلمة وهدر الدماء. وارتحلوا إلى أعمالهم بالمغرب الأوسط، فنزل علي بن راشد وقومه بموضع عملهم من ضواحي شلف، وتغلبوا على أمصاره. وافتتحوا تنس، وأخرجوا منها أولياء السلطان وعسكره، وقتلوا القاضي بمازونة سرحان، كان مقيماً لدعوة السلطان بها، ثم سولت له نفسه الانتزاء والتوثب، فدعا لنفسه. وقتله علي بن راشد وقومه.

وأجاز عثمان بن عبد الرحمن وقومه من بني عبد الواد إلى محل ملكهم بتلمسان،

وألفوا عثمان بن جرار قد انتزى بها بعد منصرف الأمير أبي عنان ودعا لنفسه فتجهم له الناس لتوثبه على المنصب الذي ليس لأبيه، واستمسك بالبلد أياما يؤمل نزوع قومه إليه. ثم زحف إليه بنو عبد الواد وسلطانهم، فصدقوه الزحف، وثارت به الغوغاء، وكسروا أبواب البلد. وخرجوا إلى السلطان، فأدخلوه القصر، واحتل به في جمادى من سنة نسع. وتسابق الناس إلى مجلسه مثنى وفرادى، وبايعوه البيعة العامة، وتفقد ابن جرار. ثم أكرى به البحث فبثر عليه ببعض زوايا القصر. واحتمل إلى المطبق فأودع به إلى أن سرب إليه الماء، فمات غريقا في هوته. وساهم السلطان أبو سعيد عثمان أخاه أبا ثابت الزعيم في سلطانه، وشركه في أمره، وأردفه في ملكه، وجعل إليه أمر الحرب والضواحي والبدو كلها. واستوزر قريبه يحيى بن داود بن مكن، من ولد محمد بن تيدوكسن بن طاع الله واستوسق ملكهم. وأوفدوا مشيختهم على الأمير أبي عنان صاحب المغرب، وسلطان بني مرين، فعقدوا معه السلم والمهادنة، واشترطوا له على أنفسهم دفاع

السلطان أبيه عن الخلوص إليه. وزحفوا إلى وهران من ثغور أعمالهم. ونازلوا بها أولياء السلطان وعساكره، وعاملها يومئذ عبو بن جانا من صنائع السلطان، إلى أن غلبوه عليها واستنزلوه صلحا لأشهر من حصارها.

واستمسك أهل الجزائر بطاعة السلطان واعتصموا بها. وعقد عليها لقائده محمد بن يحيى العشري من صنائع أبيه، بعثه إليهم من تونس بعد نكبة القيروان. ونجم بالمدية عدي بن يوسف بن زيان بن محمد بن عبد القوي داعيا لنفسه، وطالبا سلطان سلفه. وامتنع عليه معقل ملكهم بجبل وانشريش، لمكان ولد عمر بن عثمان وقومهم بني تيغرين في رياسته وانحاش إليه أولاد عزيز، من بني توجين، أهل ضاحية المدية فقاموا بأمره، واعصوصبوا عليه. وكانت بينه وبين أبناء عمر بن عثمان حرب سجال إلى أن هلك، وخلص أمر بني توجين لأبناء عمر بن عثمان، وهم على مذهبهم من طاعة السلطان والتمسك بدعوته، وهو مميم خلال ذلك بتونس، إلى أن أزمع الرحلة، واحتل بالجزاير، كما نذكره إن شاء الله تعالى.

الخبر عن رجوع أمراء الثغور الغربية من الموحدين إلى ثغورهم ببجاية وقسنطينة:

لما توثب الأمير أبو عنان على ملك أبيه، وبويع بتلمسان، وكانت للأمير أبي عبد الله محمد ابن الأمير أبي زكرياء صاحب بجاية لديه خلة ومصافاة، من لدن بعثه إليه السلطان أبوه من بجاية. وأنزله بتلمسان، فرعى له السابقة وآثره في الأمارة، وعقد له على محل أمارته من بجاية، وأمده بما رضيه من المال والسلاح. ودفعه إليها ليكون حجزا دون السلطان بتونس. وضمن له هذا الأمير صده عن الخلوص إليه وسد المذاهب دونه. وأوعز أبو عنان إلى أساطيله بوهران فركبها الأمير إلى تدلس ودخلها. ونزع إليه صنهاجة أهل ضاحية بجاية، عن عمه المولى أبي العباس الفضل، واعصوصبوا عليه، وقاموا بأمره، لقديم نعمته وسالف أمارة أبيه. ولما ارتحل الأمير أبو عنان إلى المغرب رحل في جملته المولى أبو زيد عبد الرحمن ابن مولانا الأمير أبي عبد الله صاحب قسنطينة، ومعه إخوته، فاختصهم يومئذ بتقريبه وخلطهم بنفسه. فلما غلب الأمير أبو عنان منصور ابن أخيه أبي مالك على البلد الجديد، واستولى على المغرب، رأى أد يبعث ملوك الموحدين إلى بلادهم، ويدفع في صدر أبيه بمكانهم، فسرح المولى أبا زيد وجميع إخوته، وكان منهم مولانا السلطان أبو العباس الذي جبر الله به الصدع، ونظم الشمل، ففصلوا إلى مواطن ملكهم ومحل أمارتهم. وكان مولاهم نبيل حاجب أبيهم قد تقدم إلى بجاية، ولحق بالمولى أبي عبد الله بمكانه من

حصارها. ثم تقدم إلى قسنطيط وبها مولى من موالي السلطان المتغلب عليها، وهو المولى أبو العباس الفضل. فلحيى

إطلاله على جهاتها وشهور أهلها بمكانه، لفحت منهم عزائز المودة، وذكروا جميل الإيالة، وأجمعوا التوثب بوالديهم. واحتل نبيل بظاهر قسنطينة، فشرهت العامة إلى أمارته والقيام بدعوة مواليه. وتوثب أشياعهم على أولياء عمهم فأخرجوهم، واستولى القائد نبيل على قسنطينة وأعمالها، وأقام دعوة المولى أبي زيد وإخوته كما كانت أول مرة بها: وجاء من المغرب إلى مركز أمارتهم، ودعوتهم بها قائمة، ورايتهم على أنحائها خافقة، فاحتلوا بها حلول الاساد بعرينها والكواكب بآفاقها. ونهض المولى أبو عبد الله محمد فيمن اجتمع إليه من البطانة والأولياء إلى محاصرة بلده بجاية، فأحجز عمه بالبلد وأخذ بمخنقها أياما، ثم أفرج عنها، ثم رجع إلى مكانه من حصارها. ودس إلى بعض أشياعه بالبلد، وسرب المال بالغوغاء، فواعدوه فتح أبواب الربض في إحدى ليالي رمضان سنة تسع وأربعين. واقتحم البلد وملأ الفضاء بهدير طبوله، فهب الناس من مراقدهم فزعين، وقد ولج الأمير وقومه البلد. ولجأ الأمير أبو العباس الفضل إلى شعاب الجبل وكواريه المطل على القصبة راجلا حافيا، فاختفى إلى أن عثر عليه ضحى النهار وسيق إلى ابن أخيه، فمن عليه وأركبه السفين إلى محل أمارته من بونة. وخلص ملك بجاية للمولى الأمير أبي عبد الله هذا، واقتعد سرير آبائه بها. وكتبوا للأمير أبي عنان بالفتح وتجديد المخالصة والموالاة، والعمل على مدافعة أبيه عن جهاته. والله تعالى أعلم.

الخبر عن نهوض الناصر ابن السلطان ووليه عريف بن يحيي من تونس إلى المغرب الأوسط:

لما بلغ السلطان خبر ما وقع بالمغرب من انتقاض أطرافه، وتغلب الأعياص من

نومه وسواهم على أعماله، ووصل إليه يعقوب بن علي أمير الدواودة بولده وعماله ووفده،. نظر في تلافي أمره، فسرح ولده الناصر إلى المغرب الأوسط لارتجاع ملكهم، ومحو آثار الخوارح من أعمالهم. فنهض مع يعقوب بن علي وأصحبه وليه عريف بن بحيى أمير زغبة ليستظهر به على ملك المغرب، وقدمهما طليعة بين يديه. وسار الناصر إلى بسكرة، واضطرب معسكره بها. ثم فصل من بلاد رياح إلى بلاد زغبة، واجتمع إليه أولياؤهم من

العرب ومن زناتة من بني توجين أهل وانشريش وغيرهم. وزحف إليهم الزعيم أبو ثابت من تلمسان في قومه من بني عبد الواد وغيرهم للمدافعة. والتقى

الجمعان بوادي ورك، وانفضت جموع الناصر وانذعروا، ورجع على عقبه إلى بسكرة. وخلص عريف بن يحيى إلى قومه سويد، ثم قطع القفر إلى المغرب الأقصى. ولحق بالأمير أبي عنان، فنزل منه بألطف محل ورجع الناصر إلى بسكرة، وارتحل مع أوليائهم . أولاد مهلهل لمدافعة أولاد أبي الليل وسلطانهم المولى الفضل عن تونس، كما ذكرناه. وأحسوا بهم، فنهضوا إليهم وفروا أمامهم، إلى أن خلص الناصر إلى بسكرة ثانية واتخذها مثوى، إلى أن لحق بالجزائر عند رحتله من تونس إليها، كما نذكره إن شاء الله تعالى.

الخبر عن رحلة السلطان أبي الحسن إلى المغرب، وتغلب المولى الفضل علي تونس، وما دعا إلى ذلك من الأحوال:

لما خلص المولى أبو العباس الفضل ابن مولانا السلطان أبي يحيى من نكبته ببجاية، وامتن عليه ابن أخيه فلحق بمحل أمارته من بونة، ووافته بها مشيخة أولاد أبي الليل، أوفدهم عليه بنو حمزة بن عمر يستحثونه لملك إفريقية ويرغبونه فيه، فأجاب داعيتهم ونهض إليهم بعد قضاء نسك الفطر من سنة تسع وأربعين. ونزل بحللهم، وأرجفوا بخيلهم وركابهم على ضواحي إفريقية، وجبوها. وصمدوا إلى تونس فنازلوها وأخذوا بمخنقها أياما، ثم أخذ بحجزتهم عنها شيعة السلطان وأولياؤه من أولاد مهلهل وابنه الناصر عند قفوله من المغرب الأوسط مفلولا، فرحلوا وشردهم. ثم رجعوا إلى مكانهم من حصارها، ثم انفضوا عنها. وتحيز خالد بن حمزة إلى شيعة السلطان أبي الحسن من أولاد مهلهل وقومه، فاعتزوا به. وذهب عمر بن حمزة إلى المشرق لقضاء فرضه، وأجفل أبو الليل أخوه والمولى الفضل إلى القفر، حتى كان من دخول أهل الجريد في طاعته ما سنذكر. وكان السلطان لما خلص من القيروان إلى تونس، وفد عليه أحمد بن مكي مهنيا ومفاوضا في شأن الثغر، وما مني به من انتقاض الأطراف وفساد الرعية. وتدارك السلطان أمره عند فواته بالتولية على أهل القطر من جنسهم استئلافا للكافة، واستبقاء لطاعتهم. فعقد على عمل قابس وجربة والحمة وما إليها لعبد الواحد ابن السلطان أبي زكرياء بن أحمد اللحياني، وأنفذه مع أحمد بن مكي إلى عمله، فهلك بجربة لليال من مقدمه بالطاعون الجارف عامئذ.

وعقد لأبي القاسم بن عتو شيخ الموحدين على توزر ونفطة وسائر بلاد الجريد،

بعد أن كان استخلصه عند مفر أبي محمد بن تافراكين قريعه، وما ظهر من سوء دخلته، فنزل بتوزر، وجمع أهل الجريد على الولاية والمخالصة. ولما نازل المولى أبو العباس الفضل تونس مرتين، وشرد أولاد مهلهل، وامتنعت عليه، عمد إلى الجريد سنة خمس يحاول فيه ملكا. وخاطب أبا القاسم بن عتو يذكره عهده وعهد سلفه وحقوقهم، فتذكر وحن، ونظر إلى ما ناله به السلطان من المثلة في أطرافه. واستثار كامن حقده، فانحرف وحمل الناس على طاعة المولى الفضل ابن مولانا السلطان أبي يحيى فسارعوا إلى الإجابة. وبايعه أهل توزر وقفصة ونفطة والحمة. ثم دعا ابن مكي إلى طاعته، فأجاب إليها وبايعه أهل قابس وجربة أيضا. وانتهى الخبر إلى السلطان باستيلاء المولى الفضل على أمصار إفريقية، وأنه ناهض إلى تونس، فأهمه الشأن وخشي على أمره. وكانت بطانته يوسوسون إليه بالرحلة إلى المغرب لاسترجاع نعمتهم باسترجاع ملكه، فأجابهم إليها. وشحن أساطيله بالأقوات، وأزاح علل المسافرين ولما قضى منسك الفطر من سنة خمسين، ركب البحر أيام استفحال فصل الشتاء.

وعقد لابنه أبي الفضل على تونس ثقة بما بينه وبين أولاد حمزة من الصهر، وتفاديا بمكانه عن معرة الغوغاء وثورتهم، وأقلع من مرسى تونس ولخمس دخل مرسى بجاية، وقد احتاجوا إلى الماء، فمنعهم صاحب بجاية من الورود. وأوعز إلى سائر سواحله بمنعهم، فزحفوا إلى الساحل، وقاتلوا من صدهم عن الماء، إلى أن غلبوهم عليه، واستقوا وأقلعوا. وعصفت بهم الريح ليلتئذ، وجاءهم الموج من كل مكان، وألقاهم اليم بالساحل، بعد أن تكسرت الأجفان، وغرق الكثير من بطانة السلطان وعامة الناس وقذف الموج بالسلطان فألقاه إلى الجزيرة قرب الساحل من بلاد زواوة مع بعض حشمه عراة، فمكثوا ليلتهم وصبحهم جفن من الأساطيل كان قد سلم من ذلك العاصف، فقذفوا إليه حين رأوه، وقد تصايح به البربر من الجبال. وتوثبوا إليه فاختطفه أولياؤه من أهل الجفن، تبل أن يصل إليه البربر، وقذفوا به إلى الجزائر، فنزل بها، ولام صدعه. وخلع على من وصل من فل

الأساطيل، ومن خلص إليه من أوليائه. ولحق به ابنه الناصر من بسكرة. واتصل بالمولى الفضل خبر رحيله من تونس وهو ببلاد الجريد، فأغذ السير إلى تونس. ونزل على ابنه، ومن كان بها من مخلف أوليائه، فغلبوهم عليها. واتصل أهل البلد بهم

وأحاطوا يوم منى بالقصبة. واستنزلوا ابن السلطان أبا الفضلى الأمير بالقصبة على الأمان، فخرج إلى بيت أبي الليل ابن حمزة، وأنفذ معه من بلغه إلى مأمنه، فلحق بالجزائر بأبيه. وبادر إلى السلطان عدي بن يوسف المنتزي بالمدينة من بني عبد القوي، فصار في جملته، وخرج له عن الأمر، وزعم أنه إنما كان قائما بدعوته، فتقبل منه وأقره على عمله.

ووفد عليه أولياؤه من المغرب: سويد والحارث وحصين، ومن إليهم ممن اجتمع

إلى وليه ونزمار بن عريف المتمسك بطاعته. ووفد عليه أيضا علي بن راشد أمير مغراوة، وأغراه ببني عبد الواد، واشترط عليه إقراره بوطنه وعمله إذا تم أمره، فأبى من قبول الاشتراط ظنا بعهده عن النكث، فنزع عنه وصار إلى مظاهرة بني عبد الواد عليه. وبعث أبو سعيد عثمان صاحب تلمسان إلى الأمير أبي عنان في المدد، فبعث إليه بعسكر من بني مرين، عقد عليهم ليحيى بن رحو بن تاشفين بن معطي من تيربيغين. وزحف الزعيم أبو ثابت إلى حرب السلطان أبي الحسن فيمن اجتمع إليه من عسكر بني مرين ومغراوة. وخرج السلطان من الجزائر وعسكر بمتيجة واحتشد ونزمار سائر العرب بحللهم ووافاه بهم، وارتحلوا إلى شلف. ولما التقى الجمعان بشدبونة، صدقه مغراوة الحملة. وصابرهم ابنه الناصر، وطعن في الجولة فهلك، فاحتل مصاف السلطان واستبيح معسكره، وانتهبت فساطيطه، وخلص مع وليه ونزمار بن عريف وقومه، بعد أن استبيحت حللهم، فخرجوا إلى جبل وانشريش، ثم لحقوا بجبل راشد ورجع القوم عن أتباعهم، وانكفؤوا إلى الجزائر، فتلغبوا عليها، وأخرجوا من كان بها من أولياء السلطان، ومحو آثار دعوته من المغرب الأوسط جملة. والأمر بيد الله يؤتيه من يشاء.

الخبر عن استيلاء السلطان علي سجلماسة، ثم فراره عنها أمام ابنه إلى مراكش، ثم استيلاؤه عليها، وما تخلل ذلك:

لما انفضت جموع السلطان بشدبونة، وفلت عساكره، وهلك الناصر ابنه، خلص

إلى الصحراء مع وليه ونزمار، ولحق بحلل قومه سويد وأوطانهم قبلة جبل وانشريش، وأجمع أمره على قصد المغرب موطن قومه ومنبت عزه ودار ملكه. وارتحل معه وليه ونزمار بالناجعة من قومه، وخرجوا إلى جبل راشد. ثم أبعدوا المذهب وقطعوا المفاوز،

وسلكوا إلى سجلماسة في القفر. فلما أطلوا عليها، وعاين أهلها السلطان، تهافتوا عليه تهافت الفراش. وخلص إليه العذارى من وراء ستورهن صاغية إليه، وإيثارا لإيالته. وفر العامل بسجلماسة إلى منجاته. وكان الأمير أبو عنان لما بلغه الخبر بقصده سجلماسة ارتحل إليها في قومه وكافة عساكره، بعد أن أزاح عللهم، وأفاض عطاءه فيهم. وكان لبني مرين نفرة عن السلطان وحذر من غائلته، لجناياتهم بالتخاذل في المواقف، والفرار عنه في الشدائد، ولما كان يبعد بهم في الأسفار، ويتجشم بهم المهالك، فكانوا لذلك مجتمعين على منابذته، ومخلصين في مناصحة ابنه منازعه. فما لبث السلطان أن جاءه الخبر بوصولهم إليه في العساكر الضخمة، مغذين السير إلى دفاعه، وعلم من حاله أنه لا يطيق لقاءهم. وأجفل عنه ونزمار وليه في قومه سويد. وكان من خبره أن عريف بن يحيى كان نزع إلى الأمير أبي عنان، وأحله بمحله المعهود من تشريفهم وولايتهم حتى إذا بلغه الخبر بمناصحة ونزمار للسلطان ومظاهرته وقصده المغرب معه بناجعته، زوى عنه وجه رضاه بعض الشيء، وأقسم له لئن لم يفارق السلطان لأوقعن بك وبابنك عنتر، وكان معه من جملة الأمير أبي عنان. وأمره بأن يكتب له بذلك، فآثر ونزمار رضى أبيه. وعلم أن غناءه عن السلطان في وطن المغرب قليل، فأجفل عنه ولحق بالزاب وانتبذ عن قومه، وألقى عصاه ببسكرة، فكان ثواؤه بها إلى أن لحق بالأمير أبي عنان على ما نذكره.

ولما أجفل السلطان عن سجلماسة، ودخل الأمير أبو عنان إليها، وثقف أطرافها

وسد فروجها، وعقد عليها ليحيى بن عمر بن عبد المؤمن كبير بني ونكاسن. وبلغه قصد السلطان إلى مراكش، فاعتزم على الرحلة إليها وأبى عليه قومه، فرجع إلى فاس إلى أن كان من خبرهم مع السلطان ما نذكره.

الخبر عن استيلاء السلطان علي مراكش، ثم انهزامه أمام الأمير أبي عنان، ومهلكه بجبل منتاتة عفا الله عنه:

لما أجفل السلطان من سجلماسة سنة إحدى وخمسين بين يدي الأمير أبي عنان وعساكر بني مرين، وقصد مراكش وركب إليها الأوعار من جبل المصامدة. ولما شارفها نسارع إليه أهل جهاتها بالطاعة من كل أوب،

ونسلوا من كل حدب. ولحق عامل مراكش بالأمير أبي عنان، ونزع إلى السلطان صاحب ديوان الجباية أبو المجد محمد بن أبي

مدين بما كان في المودع من مال الجباية، فاختصه واستكتبه وجعل إليه علامته. واستركب واستلحق وجبى الأموال وبث العطاء، ودخل في طاعته قبائل العرب من جشم وسائر المصامدة وثاب له ملك بمراكش أفل معه أن يستولي على سلطانه، ويرتجع فارط أمره من يد مبتزه. وكان الأمير أبو عنان لما رجع إلى فاس عسكر بساحتها، وشرع في العطاء وأزاح العلل، وتقبض على كاتب الجباية حمزة بن شعيب بن محمد بن أبي مدين، اتهمه بممالأة بني مرين في الإباية عليه عن اللحاق بمراكش من سجلماسة. وأثار حقده في ذلك ما كان من نزوع عفه أبي المجد إلى السلطان بأموال الجباية. ووسوس إليه في السعاية به كاتبه وخالصته أبو عبد الله محمد بن محمد بن أبي عمرو، لما بينهما من المنافسة، فتقبض عليه وامتحنه، ثم قطع لسانه، وهلك في ذلك الامتحان. وارتحل الأمير أبو عنان وجموع بني مرين إلى مراكش، وبرز السلطان للقائهم ومدافعتهم، وانتهى كل واحد من الفريقين إلى وادي أم ربيع، وتربص كل واحد بصاحبه إجازة الوادي ثم أجازه السلطان أبو الحسن، وأصبحوا جميعا في التعبية. والتقى الجمعان بتامدغرست في آخر صفر من سنة إحدى وخمسين، فاختل مصاف السلطان وانهزم عسكره، ولحق به أبطال بني مرين، فرجعوا عنه حياء وهيبة. وكبا به فرسه يومئذ في مفره، فسقط إلى الأرض والفرسان تحوم حوله. واعترضهم دونه أبو دينار سليمان بن علي بن أحمد أمير الدواودة، ورديف أخيه يعقوب، كان هاجر مع السلطان من الجزائر، ولم يزل في جملته إلى يومئذ. فدافع عنه حتى ركب، وسار من ورائه ردءا له. وتقبض على حاجبه علال بن محمد، فصار في يد الأمير أبي عنان، وأودعه السجن إلى أن امتن عليه بعد مهلك أبيه.

وخلص السلطان إلى جبال هنتاتة، ومعه كبيرهم عبد العزيز بن محمد بن علي،

فنزل عليه وأجاره. واجتمع إليه الملأ من هنتاتة ومن انضاف إليهم من المصامدة، وتدامروا وتعاهدوا على الدفاع عنه، وبايعوه على الموت. وجاء أبو عنان على أثره حتى احتل بمراكش، وأنزل عساكره على جبال هنتاتة، ورتب المسالح لحصاره وحربه، وطال عليه ثواؤه. وطلب السلطان من ابنه

الإبقاء، وبعث في حاجبه محمد بن أبي عمرو فحضر عنده، وأحسن العذر عن الأمير أبي عنان. والتمس له الرضى منه، فرضي عنه وكتب له بولاية عهده. وأوعز إليه بأن يبعث له مالا وكسى، فسرح الحاجب ابن أبي عمرو إلى إخراجها من المودع بدار ملكهم. واعتل السلطان خلال ذلك، فمرضه أولياؤه

وخاصته. وافتصد لإخراج الدم، ثم باشر الماء بعضوه للطهارة، فورم وهلك لليال قريبة عفا الله عنه، لثلاث وعشرين من ربيع الثاني سنة اثنتين وخمسين. وبعث أولياؤه بالخبر إلى ابنه بمعسكره من ساحة مرأكش، ورشعوه على أعواده إليه، فتلقاه حافياً حاشراً، وقبل أعواده وبكى واسترجع، ورضي عن أوليائه وخاصته وأنزلهم بالمحل الذي رضوه من دولته. ووارى أباه بمراكش، إلى أن نقله إلى مقبرة سلفه بشالة في طريقه إلى فاس. وتلقى أبا دينار بن علي بن أحمد بالقبول والكرامة، وأحله من كنفه محل الرحب والسعة، وأسنى جوائزه، وخلع عليه وحمله. وانصرف من فاس إلى قومه يستحثهم للقاء السلطان أبي عنان بتلمسان، لما كان أجمع على الحركة إليها بعد مهلك أبيه ورعى لعبد العزيز ببن محمد أمير هنتاتة إجارته للسلطان واستماتته دونه، فعقد له على قومه وأحله بالمحل الرفيع من دولته ومجلسه، واستبلغ في تكريمه. والله تعالى أعلم.

الخبر عن حركة السلطان أبي عنان إلى تلمسان، وإيقاعه ببني عبد الواد بأنكاد، ومهلك أبي سعيد سلطانهم:

لما هلك السلطان أبو الحسن، وانقضى شأن الحصار، وارتحل السلطان أبو عنان

إلى فاس، ونقل شلو أبيه إلى مقبرتهم بشالة فدفنه مع من هنالك من سلفه، وأغذ السير إلى فاس، وقد استبد بالأمر، وخلت الدولة عن المنازع، فاحتل بفاس وأجمع أمره على غزو بني عبد الواد لارتجاع ما بأيديهم من الملك الذي سموا لاستخلاصه. ولما كان فاتح سنة ثلاث وخمسين، نادى بالعطاء وأزاح العلل وعسكر بساحة البلد الجديد، واعترض العسكر وارتحل يريد تلمسان. واتصل الخبر بأبي سعيد وأخيه، فجمعوا قومهم ومن إليهم من الأشياع والأحزاب من زناتة والعرب وارتحلوا إلى لقائه. ونزل السلطان بمعسكر وادي ملوثة، وتلوم به أياما لاعتراض الحشد والعرب. ثم رحل على التعبية، حنى إذا احتل ببسيط أنكاد وتراءى الجمعان، انفض سرعان المعسكر ولحقوا بالمغرب. وركب السلطان في التعبية، وخاض بحر القتال، وقد أظلم الجو به. حتى إذا خلص إليهم من غمرة وخالطهم بصفوفهم، ولوا الأدبار، ومنحوهم الأكتاف. واتبع بنو مرين آثارهم، فاستولوا على معسكرهم

واستباحوه. واستلحموهم قتلاً وسبيا وصفدوهم أسارى، وغشيهم الليل وهم متسايلون في آثارهم وتقبض على أبي سعيد سلطانهم، فسيق إلى السلطان، وأمر باعتقاله، وأطلق أيدي بني مرين من الغذ على حلل العرب من

المعقل، فاستباحوهم واكتسحوا أموالهم جزاء بما شرهوا إليه من النهب بالمحلة في هيعة ذلك المجال، ثم ارتحل به على تعبية إلى تلمسان، فاحتل بها لربيع من سنته، واستوت في ملكها قدمه. وأحضر أبا سعيد، فقرعه ووبخه، وأراه أعماله حسرة عليه، وأحضر الفقهاء وأرباب الفتيا، فأفتو بحرابته وقتله. وأمضى حكم الله فيه، فذبح بمحبسه لتاسعة من اعتقاله مثلا للآخرين. وخلص أخوه الزعيم أبو ثابت إلى قاصية الشرق، فكان من خبره ما نذكره إن شاء الله تعالى، والله أعلم.

الخبر عن شأن أبي ثابت، وإيقاع بني مرين به بوادي شلف، وتقبض الموحل ين عليه ببجاية:

لما أوقع السلطان ببني عبد الواد بأنكاد، وتقبض على أبي سعيد سلطانهم، خلص

أبو ثابت أخوه في فل منهم. ومر بتلمسان، فاحتمل حرمهم ومخلفهم. وأجفل إلى الشرق، فاحتل بشلف من بلاد مغراوة. وعسكر هناك، واجتمع إليه أوشاب من زنانة. وحدث نفسه باللقاء، ووعدها بالصبر والثبات. وسرح السلطان وزيره فارس بن ميمون بن ودرار في عساكر بني مرين والجند، فأغذ السير إليهم، وارتحل من تلمسان على أثره. ولما تراءى الجمعان صدق الفريقان المجاولة، وخاضوا النهر بالقراع. ثم صدق بنو مرين الحملة وأجازوا النهر إليهم، فانكشفوا واتبعوا آثارهم، فاستلحموهم واستباحوا معسكرهم، واستاقوا أموالهم ودوابهم ونساءهم، وارتحلوا في أتباعهم. وكتب الوزير بالفتح إلى السلطان. ومر أبو ثابت بالجزائر طارقا، وأجاز إلى قاصية الشرق، فاعترضتهم قبائل زواوة، وأرجلوهم عن خيلهم، وانتهبوا أسلابهم، ومروا حفاة عراة. واحتل الوزير بالجزائر، فاستولى عليها. واقتضى بيعة السلطان منهم، فأتوها. واحتل السلطان بالمدية، وأوعز إلى أمير بجاية المولى أبي عبد الله محمد حافد مولانا الأمير أبي يحبى مع وليه ونزمار، وخالصته يعقوب بن علي، بالقبض على أبي ثابت وأشياعه، فأذكوا العيون عليهم وقعدوا لهم بالمرصاد. وعثر بعض الجشم على أبي ثابت وأبي زيان ابن أخيه أبي سعيد، ووزيرهم يحيى بن داود، فرفعوهم إلى الأمير ببجاية فاعتقلهم. وارتحل إلى لقاء السلطان بالمدية، وبعث بهم مع مقدمته،

وجاء على أثرهم ونزل على السلطان بمعسكره من المدية خير نزل، بعد أن تلقاه بالمبرة والاحتفاء، وركب إلى لقائه. ونزل عن فرسه للسلطان، فنزل السلطان برا به وأودع أبا ثابت السجن. وتوافت

إليه وفود الدواودة بمكانه من المدية، فأكرم وفدهم وأسنى أعطياتهم من الخلع والحملان والذهب، وانقلبوا خير منقلب. ووافته بمكانه ذلك بيعة ابن مزني عامل الزاب ووفدهم، فأكرمهم ووصلهم. وفرغ السلطان من شأن المغرب الأوسط، وبث العمال في نواحيه، وثقف أطرافه، وسما إلى ملك إفريقية، كما نذكره إن شاء الله تعالى.

الخبر عن تملك السلطان أبي عنان بجاية، وانتقال صاحبها إلي المغرب:

لما وصل المولى أبو عبد الله محمد ابن الأمير أبي زكرياء يحيى صاحب بجاية

إلى السلطان بمكانه من المدية، في شعبان من سنته، وأقبل السلطان عليه، وبوأه كنف ترحيبه وكرامته، خلص الأمير به نجيا وشكى إليه ما تلقاه من أهل عمله من الامتناع من الجباية والسعي في الفساد، وما يتبع ذلك من زبون الحامية واستبداد البطانة. وكان السلطان متشوقا لمثلها، فأشار عليه بالنزول عنها يعوضه عنها ما شاء من بلاده، فسارع إلى قبول إشارته ودس إليه مع حاجبه محمد بن أبي عمرو أن يستبد بذلك على رؤوس الملأ ففعل ونقم عليه بطانته ذلك، وفر بعضهم من معسكره، فلحق بإفريقية، ومنهم علي بن القائد محمد بن الحكم. وأمره السلطان أن يكتب بخطه إلى عامله على البلد بالنزول عنها، وتمكين عمال السلطان منها ففعل. وعقد السلطان عليها لعمر بن علي الوطاسي، من أولاد الوزير الذين ذكرنا خبر انتزائهم بتازوطا من قبل. ولما قضى السلطان حاجاته من المغرب الأوسط، واستولى على بجاية، انكفأ راجعا إلى تلمسان لشهود الفطر بها، ودخلها في يوم مشهود. وحمل أبا ثابت ووزيره يحيى بن داود على جملين يخطران بهما في ذلك المحفل بين السماطين، فكانا عبرة لمن حضر. وسيقا من الغذ إلى مصارعهما، فقتلا قعصا بالرماح. وأنزل السلطان المولى الأمير أبا عبد الله صاحب بجاية خير نزل، وفرض له في مجلسه تكرمة به، إلى أن كان من توثب صنهاجة وأهل بجايه بعمر بن علي، ما نحن ذاكروه إن شاء الله تعالى.

الخبر عن ثورة أهل بجاية، ونهوض الحاجب إليها في العساكر:

كان صنهاجة هؤلاء من أعقاب تكلاتة ملوك القلعة وبجاية، نزل أولوهم بوادي
بجاية بين القبائل من برابرتها الكتاميين في مواطن بني ورياكل مذ أول دولة الموحدين، وأقطعوهم على العسكر معهم. ولما ضعفت جنود الموحدين وقل عددهم انفردوا

بالعسكرة مع السلطان، وصار لهم بذلك اعتزاز وزبون على الدولة. وكان المولى الأمير أبو عبد الله هذا قد أصاب منهم لأول أمره، وقتل محمد بن تميم من أكابر مشيختهم. وكان حاجبه فارح مولى ابن سيد الناس عريفا عليهم من عهد أبيه الأمير أبي زكرياء، وكان مستبدا على المولى أبي عبد الله. فلما نزل عن أمارته للسلطان أبي عنان سخط ذلك ونقمه عليه، وأسرها في نفسه ولم يبدها له. وسرحه أميره مع عمر بن علي الوطاسي لنقل حرمه ومتاعه وماعون داره، فوصل إليها. وشكى إليه الصنهاجيون مغبة أمرهم في ثقل الوطأة وسوء الملكة، فأشكاهم ودعاهم إلى الثورة ببني مرين، والقيام بدعوة الموحدين للمولى أبي زيد صاحب قسنطينة، فأجابوه وتواعدوا للفتك بعمر بن علي بمجلسه من القصبة. وتولى كبرها منصور بن الحاج من مشيختهم وباكره بداره على عادة الأمراء ولما أكب عليه للثم أطرافه، طعنه بخنجره، وفر إلى بيته جريحا، فولجوا عليه واستلحموه. وثارت الغوغاء من أهل البلد أول ذي الحجة من سنة ثلاث وخمسين.

وركب الحاجب فارح، وهتف الهاتف بدعوة المولى أبي زيد، وطيروا بالخبر إليه واستدعوه، فتثاقل عن إجابتهم. وبعث مولى من المعلوجي للقيام بأمره. وبلغ الخبر إلى السلطان، فاتهم المولى أبا عبد الله بمداخلة حاجبه، فاعتقله بداره. واعتقل وفدا من ملأ بجاية كان ببابه وثابت آراء المشيخة من أهل بجاية، وتمشت رجالاتهم وأولوا الرأي والشورى منهم في الفتك بصنهاجة والعلج، وداخلهم القائد هلال ابن سيد الناس من المعلوجي، وعلي بن محمد بن الميت حاجب الأمير أبي زكرياء يحيى، ومحمد بن الحاجب أبي عبد الله بن سيد الناس، وتواعدوا الفتك بفارح يوم وصول النائب من قبل صاحب قسنطينة، فجهروا بالنكر على الحاحب، ودعوه إلى المسجد ليؤامروه. ونذر أمرهم، فاعتمدوا دار شيخ الفتيا أحمد بن إدريس واقتحموا عليه الدار، وباشره مولاه محمد بن سيد الناس، فطعنه وأشواه، ورمى بشلوه في سقف الدار، وقطع رأسه وبعث به إلى السلطان. وفر منصور بن الحاج وقومه صنهاجة من البلد، وكان بالمرسى أحمد بن سعيد القرموني من حاشية السلطان، جاء في السفين لبعض حاجاته من تونس،

ووافى مرسى بجاية يومئذ، فأنزلوه واعصوصبوا عليه، وتنادوا بدعوة السلطان وطاعته. وأشار عليهم أحمد القرموني أن يبعثوا إلى قائد تدلس من مشيخة بني مرين يحياتن بن عمر بن عبد المؤمن الونكاسي، فاستدعوه ووصل إليهم في لمة من العسكر، وبعثوا بأخبارهم

إلى السلطان وانتظروا. فلما بلغ الخبر إلى السلطان، أمر حاجبه محمد بن أبي عمرو بالنهوض إلى بجاية، فعسكر بساحة تلمسان. وانتقى له السلطان من قومه وجنوده خمسة آلاف فارس، أزاح عللهم واستوفى اعطياتهم. وسرحه، فنهض من تلمسان بعد قضاء منسك الأضحى، وأغذ السير إلى بجاية. ولما نزل ببني حسن، جمع له صنهاجة، ثم خاموا عن اللقاء، ولحقوا بقسنطينة، وأجازوا منها إلى تونس. واختل الحاجب بمعسكرهم من خميس بتكلات. وخرج إليه المشيخة والوزراء. فتقبض على القائد هلال وأشخصه إلى السلطان ودخل البلد في التعبية، واحتل بقصبتها لمحرم فاتح أربع وخمسين. وسكن الناس، وخلع على المشيخة، واختص علي بن الميت ومحمد بن سيد الناس، واستظهر بهم على أمره. وتقبض على جماعة من الغوغاء نقباء علي من تحت أيديهم ممن يتهم بالمداخلة في التوثب يناهزون مايتين، واعتقلهم وأركبهم السفين إلى المغرب، فودع الناس وسكنوا. وتوافت وفود الدواودة من كل جهة، وأجزل صلاتهم، واقتضى على الطاعة رهنهم. ووصل عامل الزاب يوسف وسد فروجه، وارتحل إلى تلمسان أول جمادى لشهريين من مدخله. وأغذ السير بمن معه من العرب والوفود، وكنت يومئذ في جملتهم، وقد خلع علي وحملني وأجزل صلتي. وضرب لي الفساطيط، فوفدت في ركابه. وقدم تلمسان لأول جمادى الاخرة فجلس السلطان للوفد، واعترض ما جنب له من الجياد والهدية، وكان يوما مشهودا. ثم أسنى السلطان جوائز الوفد، واختص يوسف بن مزني ويعقوب بن علي بمزيد من البر والصلة، وخصوصيات من الكرامة، وائتمرهم في شأن إفريقية ومنازلة قسنطينة. ورجع معهم الحاجب ابن أبي عمرو على كره منه لما نذكره من أخباره، وانصرفوا إلى مواطنهم لأول شعبان من سنة أربع وخمسين. وانقلبت معه بعد إسناء الجائزة والخلع والحملان من السلطان، والوعد الجميل بتجديد ما لي ولقومي ببلدنا من الأقطاع والله أعلم.

الخبر عن الحاجب ابن أبي عمرو، وما عقد له السلطان علي ثغر بجاية، وعلي منازلة قسنطينة، ونهوضه لذلك:

سلف هذا الرجل من أهل المهدئة من أجناد العرب من بني تميم بإفريقية، وانتقل
جذه علي إلى تونس باستدعاء السلطان المستنصر، وكان فقيها عارفا بالفتيا والأحكام، فقلده القضاء بالحضرة. واستعمله على كتابة علامته في الرسائل والأوامر الكبرى

والصغرى، فاضطلع بذلك، وهلك على حاله من التجلة والمنصب وقلد ابنه عبد الله من بعده العلامتين أيام أبي حفص عمر ابن الأمير أبي زكرياء، لما كان لأبيه، فاضطلع بذلك وكان أخوه أحمد بن علي مسمتاً وقورا منتحلا للعلم. ونشأ ابنه محمد، وقرأ بتونس، وتفقه على مشيختها. ولما التاثت أمورهم وتلاشت أحوالهم، خرج محمد بن أحمد بن علي متبغياً للرزق والمعاش، فطوحت به الطوائح إلى بلد القل. وكان منتحلا للطلب والكتابة، فاستعمل شاهدا بمرسى القل أيام رياسة الحاجب ابن غمر، وكانت له صحبة مع حسن بن محمد السبتي المنتحل نسب الشرف. وكانا رفيقين في مطارح اغترابهما، فسعى له في مرافقته في الشهادة فأسعف، واتصلا بابن غمر فحمد مذاهبهما. ولما نزع الشريف عبد الوهاب زعيم تدلس إلى طاعة الموحدين، أيام التياث أبي حفو، بخروج محمد بن يوسف عليه، واعتلال الدولة، ودخل في أمر ابن غمر وجملته، فبعث محمد بن أبي عمرو إلى تدلس، واستعمل حسن الشريف في القضاء ومحمد بن عمرو في شهادة الديوان. فلما برئت الدولة من مرضها، واستفحل أمر أبي حمو، وتغلب على تدلس، وجاء رئيس الفتيا ابن الإمام لاقتضاء طاعتها وإنفاد أهلها على السلطان، كانوا في الوفد. واستقروا بتلمسان من يومئذ، واستعملا معا في خطة القضاء متعاقبين أيام بني عبد الواد وأيام السلطان أبي الحسن. وتعصب على ابن أبي عمرو أيام قضائه جماعة من مشيخة البلد، وسعوا به إلى السلطان أبي الحسن. وتظلموا فأشكاهم على علم من براءته، واختصه بتأديب ولده فارس هذا وتعليمه، فأفرغ وسعه في ذلك. وربي ولده محمد هذا الحاجب مع السلطان أبي عنان مرقاً جليلاً، وألقى عليه محبته، حتى إذا أخلص له الملك، رفع رتبة محمد بن أبي عمرو هذا، ورقاه من منزلة إلى أخرى، حتى إذا أوفى به على سائر المراتب، وجعل إليه العلامة والقيادة والحجابة والسفارة وديوان الجند والحساب والقهرمة وسائر ألقاب دولته وخصوصيات داره، فانصرفت إليه الوجوه، ووقعت ببابه أشراف من الأعياص والقبائل والشرفاء والعلماء. وسرب إليه العمال أموال الجباية تزلفا، وطال أمره واستيلاؤه على السلطان ونفس عليه رجال الدولة ووزراؤها ما أتاه الله من الحظ، حتى إذا خلا لهم وجه السلطان منه عند

نهوضه إلى بجاية، حامت أعراض السعاية على مكانه فقرطست وألقى السلطان أذنه لاستماعها. فلما رجع ص بجاية، وكانت له الدالة على السلطان، وجد عليه في قبول الألاقي. ولقيه مغاضبا فتنكر له السلطان، ثم تجنى فطلب الغيبة عن الدولة، وأن يعقد له على بجاية متوهما أن

السلطان ضنين به فبادر السلطان إلى إسعافه وبدا له ما يحتسب من الإعراض عنه. ورجع إلى الرغبة في الإقالة فلم يسعف. وعقد له على حرب قسنطينة، وحكمه في المال والجيش، وارتحل في شعبان من سنة أربع وخمسين واحتل بجاية آخرها وأشتى بها. ونصب الموحدون تاشفين ابن السلطان أبي الحسن المعتقل عندهم من لدن عهد المولى الفضل واعتقاله إياه، فنصبوه للأمر لتفريق كلمة بني مرين، وأجمعوا له الالة والفساطيط، وقام بأمره ميمون بن علي لمنافسة مع أخيه يعقوب. وسمع بخبره يعقوب، فأغذ السير إليه بحلله من بلاد الزاب، وفرق جمعهم، وردهم على أعقابهم، وأحجزهم بالبلد ولما انصرم الشتاء، وقضى منسك الأضحى، عسكر بساحة البلد، واعترض العساكر وأزاح عللهم، وفرق أعطياتهم، وارتحل إلى منازلة قسنطينة. واجتمع إليه الدواودة بحللهم، وجمع المولى أبو زيد صاحب قسنطينة من كان على دعوته من أحياء بونة، وميمون بن علي بن أحمد وشيعته من الدواودة، وعقد عليهم لحاجبه نبيل، وسرحه للقاء ابن أبي عمرو وعساكره، فأوقع بهم الحاجب لجمادى من سنة خمس، واكتسح أموالهم. ونازل قسنطينة حتى تفادوا منه بتمكينه من تاشفين ابن السلطان أبي الحسن المنصوب للأمر، فاقتادوه إليه، وأشخصه إلى أخيه السلطان. وأوفد المولى أبو زيد ابنه على السلطان أبي عنان، فتقبل وفادته وشكر مراجعته، وانكفأ الحاجب ابن أبي عمرو إلى بجاية، وأقام بها إلى أن هلك في المحرم فاتح سنة ست وستين، فذهب حميد السيرة عند أهل البلد، وتفجعوا لمهلكه. وبعث السلطان دوابه لارتحال عياله وولده، ونقل شلوه إلى مقبرة أبيه بتلمسان. وسرح ابنه أبا زيان في عسكر بني مرين لموراته بها. وعقد على بجاية لعبد الله بن علي بن سعيد وزيره، فنهض إليها في شهر ربيع من سنة ست وخمسين واستقر بها. وتقبل ما حمده الناس من مذاهب الحاجب وسيره فيها على ما نذكره. وجهز العساكر إلى حصار قسنطينة، إلى أن كان من فتحها ما نذكره بعد إن شاء الله تعالى.

الخبر عن خروج أبي الفضل ابن السلطان بجبل السكسيوي، ومكر عامل درعة به ومالكه:

كان السلطان أبو عنان بعد مهلك أبيه، لحق به في جملته أخواه أبو الفضل محمد

وأبو سالم إبراهيم، وتدبر في ترشيحهما وحذر عليهما مغبته فأشخصهما إلى الأندلس واستقرا بها في إيالة أبي الحجاج ابن السلطان أبي الوليد ابن الرئيس أبي سعيد ثم ندم على ما أتاه من ذلك، فلما استولى على تلمسان والمغرب الأوسط، ورأى أن قد استفحل أمره واعتز سلطانه، أوعز إلى أبي الحجاج أن يشخصهما إليه ليكون مقامهما لديه أحوط على الكلمة من أن يعتمد على تفريقهما سماسرة الفتن. وخشي أبو الحجاج عليهما غائلته، فأبى من إسلامهما إليه، وأجاب الرسل بأنه لا يخفر ذمته وجوار المسلمين المجاهدين، فأحفظ السلطان كلمته. وأوعز إلى حاجبه محمد بن أبي عمرو بأن يخاطبه في ذلك بالتوبيخ واللائمة، فكتب له كتابا أبدع فيه، وقفني عليه الحاجب ببجاية أيام كوني معه، فقضيت العب من فصوله وأغراضه. ولما قرأه أبو الحجاج دس إلى كبيرهما أبي الفضل باللحاق بالطاغية، وكانت بينهما ولاية ومخالصة منذ مهلك أبيه ألهنشة على جبل الفتح سنة إحدى وخمسين، فنزع إليه أبو الفضل وأجاره، وجهز له أسطولا إلى مراسي المغرب. وأنزله بساحل السوس، فلحق بالسكسيوي عبدالله ودعا لنفسه. وبلغ الخبر إلى السلطان بين يدي مقدم حاجبه ابن أبي عمرو من فتح بجاية سنة أربع وخمسين، فجهز عساكره إلى المغرب. وعقد على حرب السكسيوي لوزيره فارس بن ميمون بن ودرار وسرحه إليه، فنهض من تلمسان لربيع من سنة أربع وخمسين. وأغذ السير إلى السكسيوي ونزل بمخنقه وأحاط به، واختط مدينة لمعسكره وتجهيز كتائبه بسفح جبلة، وسماها القاهرة. واشتد الحصار على السكسيوي، وراسل الوزير في الرجوع إلى الطاعة المعروفة، وأن ينتبذ العهد إلى أبي الفضل، ففارقه وتنقل في جبال المصامدة.

ودخل الوزير فارس إلى أرض السوس، فدوخ أقطاره ومهد أنحاءه، وسارت الألوية والجيوش في جهاته. ورتب المسالح في ثغوره وأمصاره مثل إيفري وفوريان وتارودانت، وثقف أطرافه وسد فروجه. وسار أبو الفضل في جبال المصامدة إلى أن انتهى إلى صناكة، وألقى بنفسه على ابن حميدي منهم مما يلي بلاد درعة، فأجاره وقام بأمره. ونازله عامل درعة يومئذ عبدالله بن مسلم الزردالي من مشيخة دولة بني عبد الواد، كان

اصطنعه السلطان أبو الحسن منذ تغلبه عليهم وفتحه لتلمسان سنة سبع وثلاثين، فاستقر في دولتهم ومن جملة صنائعهم، فأخذ بمخنق ابن حميدي وأرهبه بوصول العساكر

والوزراء إليه، وداخله في التقبض على أبي الفضل وأن يبذل له في ذلك ما أحب من المال، فأجاب ولاطف عبد الله بن مسلم الأمير أبا الفضل ووعده من نفسه الدخول في امره. وطلب لقاه، فركب إليه أبو الفضل. ولما استمكن منه عبدالله بن مسلم تقبض عليه، ودفع لابن حميدي ما اشترط له من المال، وأشخصه معتقلا إلى أخيه السلطان أبي عنان سنة خمس وخمسين، فأودعه السجن، وكتب بالفتح إلى القاصية. ثم قتله لليال من اعتقاله خنقا بمحبسه. وانقضى أمر الخوارج، وتمهدت الدولة، إلى أن كان ما نذكره إن شاء الله تعالى.

الخبر عن انتقاض عيسي بن الحسن بجبل الفتح ومهلكه:

كان عيسى بن الحسن بن علي بن أبي الطلاق هذا من مشيخة بني مرين، وكان صاحب شوراهم لعهده. وقد كنا قصصنا من قبل أخبار أبيه الحسن عند ذكر دولة أبي الربيع. وكان السلطان أبو الحسن قد عقد له على ثغور عمله بالأندلس، وأنزله بجبل الفتح عندما أكمل بناه، وجعل إليه النظر في مسالح الثغور وتفريق العطاء على مسالحها، فطال عهد ولايته ورسخ فيها قدمه. وكان السلطان أبو الحسن يبعث عنه في الشورى متى عنت. وحضره عند سفره إلى إفريقية، وأشار عليه بالإقصار عنها، وأراه أن قبائل بني مرين لا تفي أعدادهم بمسالح الثغور إذا رتبت شرقا وغربا وعدوة البحر وأن إفريقية نحتاج من ذلك إلى أوفر الأعداد وأشد الشوكة، لتغلب العرب عليها وبعد عهدهم بالانقياد، فأعرض السلطان عن نصيحته لما كان شره إلى تملكها، وصرفه إلى مكان عمله بالثغور الأندلسية. ولما كانت نكبة القيروان وانتزى الأبناء بفاس وتلمسان، أجاز البحر لحسم الداء ونزل بغساسة. ثم انتقل إلى وطنه بتازى، وجمع قومه بني عسكر. وألفى السلطان أبا عنان قد هزم عساكر ابن أخيه وأخذ بمخنقه، فأجلب عليه وبيته بمعسكر من ساحة البلد الجديد. وعقد السلطان أبو عنان على حربه لصنيعه سعيد بن موسى العجيسي، وأنزله بثغر بلاد بني عسكر على واد بوحلو. وتواقفا كذلك أياما حتى نغلب السلطان أبو عنان على البلد الجديد. ثم راسل عيسى بن الحسن في الرجوع إلى طاعته. وأبطأ عنه صريخ السلطان أبي الحسن بإفريقية، فراجعه واشترط عليه، فتقبل وسار إليه،

فتلقاه السلطان وامتلأ سرورا بمقدمه. وأنزله قصوره، وجعل الشورى إليه في مجلسه، واستمرت على ذلك حاله.

ولما تمكنت حال ابن أبي عمرو بعد مهلك السلطان أبي الحسن، وانفرد بخلة السلطان ومناجاته، وحجب عن الخاصة والبطانة، أحفظه ذلك ولم يبدها. واستأذن السلطان في الحج، فأذن له وقضى فرضه، ورجع إلى محله من بساط السلطان سنة ست وخمسين. ولقي ابن أبي عمرو ببجاية، وتطارح عليه في أن يصلح حاله عند سلطانه، فوعده في ذلك. ولما وفد على السلطان وجده قد استبد في الشورى، وتنكر للخاصة والجلساء، فاستأذنه في الرجوع إلى مجلسه من الثغر لإقامة رسم الجهاد فأذن له. وأجاز البحر إلى جبل الفتح من سنته، وكان صاحب ديوان العطاء بالجبل يحيى الفرقاجي، وكان مستظهرا على العمال، وكان ابنه أبو يحيى قد برم بمكانه. فلما وصل عيسى إلى الجبل اتبعه السلطان باعطيات المسالح مع مسعود بن كندوز من صنائع دولته، فسرب الفرقاجي إلى الضرب على يده شأنه مع ابنه أيام مغيبه وأنف عيسى من ذلك، فتقبض عليه وأودعه المطبق، ورد ابن كندوز على عقبيه وأركبه السفين من ليلته إلى سبتة، وجاهر بالخلعان. وبلغ الخبر إلى السلطان أبي عنان، فقلق لذلك وقام في ركائبه وقعد، وأوعز بتجهيز الأساطيل، وظن أنه تدبير من الطاغية وابن الأحمر. وبعث أحمد بن الخطيب قائد البحر بطنجة عينا على شأنهم فوصل إلى مرسى الجبل. وكان عيسى بن الحسن لما جاهر بالخلعان، تمشت رجالات الثغر وعرفاء الرجل من غمارة الغزاة الموطنين بالجبل، وتحدثوا في شأنه، وامتنعوا من الخروج على السلطان وتوامروا في إسلامه برمته. وخلا به سليمان بن داود بن أعراب العسكري، كان من خواصه وأهل شوراه. وكان عيسى قد مكن قدمه عند السلطان واستعمله على رندة. فلما جاهر عيسى بالخلعان، وركب له ظهر الغدر، خالفه سليمان هذا إلى طاعة السلطان، وأنفذ كتبه وطاعته. واشتبه عليه الأمر، فندم إذ لم يكن بنى أمره على أساس من الرأي. فلما احتل أسطول أحمد بن الخطيب بمرسى الجبل، خرج إليه وناشده الله والعهد أن يبلغ السلطان طاعته، والبراءة مما صنع أهل الجبل، ونسبها إليهم. فعند ذلك خشي غمارة على أنفسهم، فثاروا به. ولجأ إلى الحصن، فاقتحموه عليه، وشدوه وابنه وثاقا، وألقوه في أسطول ابن الخطيب. وأنزله بسبتة وطير إلى السلطان بالخبر، فخلع عليه

وأمر خاصته فخلعوا عليه. وبعث عمر ابن وزيره عبد الله بن علي وعمر بن العجوز وقائد جند النصارى، فأحضروهما بدار السلطان يوم منى من سنة ست. وجلس لهما السلطان،

ووقفا بين يديه وتنصلا واعتذرا فلم يقبل منهما وأودعهما السجن وشد وثاقهما، حتى قضى منسك الأضحى. ولما كان خاتم سنته أمر بهما، فجنبا إلى مصارعهما: وقتل عيسى قعصا بالرماح، وقطع ابنه أبو يحيى من خلاف، وأبى من مداواة قطعه، فلم يزل يتشحط في دمه إلى أن هلك لثانية قطعه، وأصبحا مثلاً في الآخرين. وعقد على جبل الفتح وسائر ثغور الأندلس لسليمان بن داود إلى أن كان من الأمر ما نذكره إن شاء الله نعالى.

الخبر عن نهوض السلطان إلى قسنطينة وفتحها ثم فتح تونس عقبها:

لما هلك الحاجب محمد بن أبي عمرو، عقد السلطان على الثغور ببجاية وما وراءها من بلاد إفريقية لوزيره عبدالله بن علي بن سعيد، وسرحه إليها وأطلق يده في الجباية والعطاء. وكانت جبال ضواحي قسنطينة قد تملكها السلطان بما كانت الدواودة متغلبة عليها. وكان عامة أهل ذلك الوطن قبائل سدويكش، وعقد السلطان عليهم لموسى بن إبراهيم بن عيسى، وأنزله بتاوريرت آخر عمل بجاية في أقاربه وولده وصنائعه. ولما نزل ابن أبي عمرو بجاية، وأخذ بمخنق قسنطينة، ثم ارتحل عنها على ما عقد من السلم مع المولى الأمير أبي زيد، أنزل موسى بن إبراهيم بميلة، فاستقر بها. ولما ولي الوزير عبد الله بن علي أمر إفريقية، أوعز إليه السلطان بمنازلة قسنطينة، فنازلها سنة سبع وأخذ بمخنقها. ونصب المنجنيق عليها، واشتد الحصار بأهلها، وكادوا أن يلقوا باليد، لولا ما بلغ المعسكر من الإرجاف بمهلك السلطان، فأفرجوا عنها. ولحق المولى أبو زيد ببونة. وأسلم البلد إلى أخيه مولانا أمير المؤمنين أبي العباس أيده الله نعالى، عندما وصل إليه من إفريقية، كان بها مع العرب طالبا ملكهم بتونس، ومجلباً بهم على ابن تافراكين منذ نازلوا تونس سنة ثلاث وخمسين كما مر. فلما رجع الآن إلى قسنطينة مع خالد بن حمزة، داخل خالد المولى أبا زيد في خروجه إلى حصار تونس، وإقامة مولانا أبي العباس بقسنطينة، فأجاب لذلك وخرج معه. ودخل مولانا أبو العباس إلى قسنطينة، فدعا لنفسه. وضبط قسنطينة، وكان مدلاً

ببأسه وإقدامه. وداخله بعض المنحرفين عن بني مرين من أولاد يوسف رؤساء سدويكش

في تبييت موسى بن إبراهيم بمعسكره من ميلة، فبيتوه وانتهبوا معسكره وقتلوا أولاده

وخلصوا إلى تاوريرت، ثم إلى بجاية، ولحق بمولانا السلطان مفلولا. ونكر السلطان على وزيره عبد الله بن علي ما وقع بموسى بن إبراهيم، وأنه قصر في إمداده، فسرح شعيب بن ميمون وتقبض عليه، وأشخصه إلى السلطان معتقلا، وعقد على بجاية مكانه ليحيى بن ميمون بن أمصمود من صنائع دولته. وفي خلال ذلك راسل المولى أبو زيد الحاجب، أبا عبد الله بن تافراكين المتغلب على عمه إبراهيم، في النزول لهم عن بونة، والقدوم عليهم بتونس، فتقبلوه وأحلوه محل ولي العهد، واستعملوا على بونة من صنائعهم. ولما بلغ خبر موسى بن إبراهيم إلى السلطان أيام التشريق من سنة سبع وخمسين، اعتزم على الحركة إلى إفريقية. واضطرب معسكره بساحة البلد الجديد. وبعث في الحشد إلى مراكش. وأوعز إلى بني مرين، فأخذ الاهبة للسفر، وجلس للعطاء والاعتراض من لدن وصول الخبر إليه إلى شهر ربيع من سنة ثمان. ثم ارتحل من فاس، وسرح في مقدمته وزيره فارس بن ميمون في العساكر وسار في الساقة على التعبية، إلى أن احتل بجاية وتلوم لإزاحة العلل. ونازل الوزير قسنطينة، ثم جاء السلطان على أثره. ولما أطلت راياته، وماجت الأرض بعساكره، ذعر أهل البلد وألقوا بأيديهم إلى ا"لإذعان، وانفضوا من حول سلطانهم مهطعين إلى السلطان، وتحيز صاحب البلد في خاصته إلى القصبة. ووصل أخوه المولى الفضل يطلب الأمان، فبذله السلطان لهم وخرجوا وأنزلهم لمعسكره أياما. ثم بعث بالسلطان في الأسطول إلى سبتة، فاعتقله بها إلى أن كان من أمره ما نذكره بعد.

وعقد على قسنطينة لمنصور بن الحاج مخلوف الياباني من مشيخة بني مرين وأهل الشورى منهم، وأنزله بالقصبة منها في شعبان من سنته. ووصل إليه بمعسكره من ساحة قسطنينة بيعة يحيى بن يملول صاحب توزر، وبيعة علي بن الخلف صاحب نفطة. ووفد ابن مكي فجدد طاعته. ووصل إليه أولاد مهلهل أمراء الكعوب وأقتال بني أبي الليل يستحثون لملك تونس، فسرح معهم العساكر، وعقد عليها ليحيى بن رحو بن تاشفين، وبعث أسطوله في البحر مددا لهم، وعقد عليه للرئيس محمد بن يوسف الأبكم، وساروا إلى تونس وأخرج الحاجب أبو محمد بن تافراكين سلطانه أبا

إسحاق إبراهيم ابن مولانا السلطان أبي يحيى مع أولاد أبي الليل، وجهز له العساكر لما أحس بقدوم عساكر السلطان. ووصل الأسطول إلى مرسى تونس، فقاتلهم يوما أبو بعض يوم وركب الليل

إلى المهدية، فتحصن بها. ودخل أولياء السلطان إلى تونس في رمضان من سنة ثمان، وأقاموا بها دعوته. واحتل يحيى بن رحو بالقصبة، وأنفذ الأوامر، وكتبوا إلى السلطان بالفتح. ونظر السلطان بعد ذلك في أحوال الوطن، وقبض أيدي العرب من رياح عن الأتاوة التي يسمونها الخفارة فارتابوا، وطالبهم بالرهن فأجمعوا على الخلاف. وأرهف لهم حده، وتبين يعقوب بن علي أميرهم مكره، فخرج معهم ولحقوا جميعا بالزاب، وارتحل في أثرهم. وسار يوسف بن مزني عامل الزاب ينفض الطريق أمامه حتى نزل بسكرة. ثم ارتحل إلى طولقة، فتقبض على مقدمها عبد الرحمن بن أحمد بإشارة ابن مزني. وخرب حصون يعقوب بن علي، وأجفلوا إلى القفر أمامه، ورجع عنهم. وحمل له ابن مزني جباية الزاب، بعد أن وعد عامة معسكره بالقرى من الحنطة والأدم واللحمان والعلوفة لثلاث ليال نفذت في ذلك وكافأه السلطان عن صنيعه، فخلع عليه وعلى ولده وأسنى جوائزهم ورجع إلى قسنطينة، وأعزم على الرحلة إلى تونس. وضاق ذرع العساكر بشأن النفقات والأبعاد في المذاهب، وارتكاب الخطر في دخول إفريقية، فتمشت رجالاتهم في الانفضاض عن السلطان وداخلوا الوزير فارس بن ميمون، فوافقهم عليه وأذن المشيخة والنقباء لمن تحت أيديهم من القبائل في اللحاق بالمغرب حتى تفردوا. ونمي الخبر إلى السلطان أنهم توامروا في قتله. ونصب إدريس بن عثمان بن أبي العلاء للأمر، فأسرها بنفسه ولم يبدها لهم. ورأى قلة العساكر، وعلم بانفضاضهم، فكر راجعا إلى المغرب بعد أن ارتحل عن قسنطينة مرحلتين إلى المشرق وأغذ السير إلى فاس، واحتل بها غرة ذي الحجة من سنته. وتقبض يوم دخوله على وزيره فارس بن ميمون، اتهمه في مداخلة بني مرين في شأنه، وقتله رابع أيام التشريق قعصا بالرماح. وتقبض على مشيخة بني مرين فاستلحمهم وأودع منهم السجن. وبلغ إلى الجهات خبر رجوعه من قسنطينة إلى المغرب، فارتحل أبو محمد بن تافراكين من المهدية إلى تونس. ولما أطل عليها ثار شيعته بالبلد على من كان بها من عساكر السلطان وخلصوا إلى السفين، فنجوا إلى المغرب. وجاء على أثرهم يحيى بن رحو بمن معه من العساكر كان مع

أولاد مهلهل بناحية الجريد لاقتضاء جبايتهم. واجتمعوا بباب السلطان، وأرجأ حركته إلى اليوم القابل، فكان ما نذكره إن شاء الله تعالى.

الخبر عن وزارة سليمان بن داود، ونهوضه بالعساكر إلى إفريقية:

لما رجع السلطان من إفريقية ولم يستتم فتحها، بقي في نفسه منها شيء. وخشي

على ضواحي قسنطينة من يعقوب بن علي ومن معه من الدواودة المخالفين، فأهمه شأنهم، واستدعى سليمان بن داود من مكان ولايته بثغور الأندلس، وعقد له على وزارته. وسرحه في العساكر إلى إفريقية، فارتحل إليها لربيع من سنة تسع وخمسين. وكان يعقوب بن علي لما كشف عن وجهه في الخلاف، أقام السلطان مكانه أخاه ميمون بن علي منازعه، وقدمه على أولاد محمد من الدواودة، وأحله بمكانه من رياسة البدو والضواحي. ونزع إليه عن أخيه يعقوب الكثر من قومه، وتمسك بطاعة السلطان طوائف من أولاد سباع بن يحيى، وكبيرهم يومئذ عثمان بن يوسف بن سليمان، فانحاشوا جميعا إلى الوزير ونزلوا على معسكره بحللهم. وارتحل السلطان في أثره حتى احتل بتلمسان، فأقام بها لمشارفة أحواله منها واحتل الوزير سليمان بوطن قسنطينة. وأوعز السلطان إلى عامل الزاب يوسف بن مزني بأن يكون يده معه، وأن يؤامره في أحوال الدواودة لرسوخه في معرفتها فارتحل إليه من بسكرة، ونازلوا جبل أوراس واقتضوا جبايته ومغارمه. وشردوا المخالفين من الدواودة عن العيث في الوطن، فتم غرضهم من ذلك. وانتهى الوزير وعساكر السلطان إلى أول أوطان إفريقية من آخر مجالات رياح، وانكفأ راجعا إلى المغرب. ووافى السلطان بتلمسان ووصلت معه وفود العرب الذين أبلوا في الخدمة، فوصلهم السلطان وخلع عليهم، وحملهم وفرض لهم العطاء بالزاب وكتب لهم به، وانقلبوا إلى أهلهم. ووفد على أثرهم أحمد بن يوسف بن مزني، أوفده أبوه بهديته إلى السلطان من الخيل والرقيق والدرق فتقبلها السلطان وأكرم وفادته وأنزله. واستصحبه إلى فاس ليريه أحوال كرامته، ويستبلغ في الاحتفاء به. واحتل بدار ملكه منتصف ذي القعدة من سنة تسع وخمسين. والله أعلم.

الخبر عن مهلك السلطان أبي عنان، ونصب السعيد للأمر، باستبداد الوزير الحسن بن عمر في ذلك:

لما وصل السلطان إلى دار ملكه بفاس، احتل بها بين يدي العيد الأكبر حتى إذا
قضى الصلاة من يوم الأضحى أدركه المرض، وأعجله طائف الوجع عن الجلوس يوم

العيد على العادة، فدخل إلى قصره ولزم فراشه، واشتد به، وأطاف به النساء يمرضنه. وكان ابنه أبو زيان ولي عهده، وكان وزيره موسى بن عيسى العقولي من صنائع دولتهم وأبناء وزرائهم، قد عقد السلطان له على وزارته واستوصاه به، فتعجل الأمر ودخل رؤوس بني مرين في الانحياش إلى أميرهم والفتك بالوزير الحسن بن عمر. وداخله في ذلك عمر بن ميمون لعداوة بينهما وبين الوزير فخشيهم الحسن بن عمر على نفسه. وفاوض عليه أهل المجلس بذات صدره، وكانت نفرتهم عن ولي العهد مستحكمة لما بلوا من سوء دخلته، وشر ملكته، فاتفقوا على تحويل الأمر عنه. ثم نمي لهم أن السلطان مشرف على الهلكة لا محالة، وأنه موقع بهم من قبل مهلكه، فأجمعوا أمرهم على الفتك به والبيعة لأخيه السعيد طفلا خماسيا. وباكروا دار السلطان، وتقبضوا على وزيره موسى بن عيسى، وعمر بن ميمون فقتلوهما، وأجلسوا السعيد للبيعة. وأوعز وزيره مسعود بن رخو بن ماساي بالتقبض على أبي زيان من نواحي القصر، فدخل إليه وتلطف في إخراجه من بين الحرم. وقاده إلى أخيه فبايعه وتله إلى بعض حجر القصر، فأتلف فيها مهجته. واستقل الحسن بن عمر بالأمر يوم الأربعاء الرابع والعشرين لذي الحجة من سنة تسع وخمسين، والسلطان أثناء ذلك على فراشه يجود بنفسه. وارتق الناس دفنه يوم الخميس والجمعة بعده، فلم يدفن فارتابوا. وفشا الكلام، وارتاب الجماعة، فأدخل الوزير، زعموا، إليه بمكانه من بيته من غطه حتى أتلفه. ودفن يوم السبت، وحجب الحسن بن عمر الولد السعيد المنصوب للأمر، وأغلق عليه بابه، وتفرد بالأمر والنهي دونه. ولحق عبد الرحمن ابن السلطان أبي عنان بجبل لكاي يوم بيعة أخيه، وكان أسن منه وإنما آثروه لمكان ابن عفه مسعود بن ماساي من وزارته، فبعثوا إليه من لاطفه واستنزله على الأمان، وجاء به إلى أخيه، فاعتقله الحسن بالقصبة من فاس. وبعث عن أبناء السلطان الأصاغر الأمراء بالثغور: فجاء المعتصم من سجلماسة، وامتنع المعتمد بمراكش، كان بها كفالة عامر بن محمد الهنتاتي، استوصاه به السلطان وجعله هنالك لنظره، فمنعه من الوصول، وخرج به من مراكش إلى معقله من جبل هنتاتة، وجهز الوزير العساكر لمحاربته. ولم يزل هنالك إلى أن استنزله عمه السلطان أبو

سالم، عند استيلائه على ملك المغرب كما نذكره إن شاء الله تعالى والله أعلم.

الخبر عن تجهيز العساكر إلى مراكش، ونهوض الوزير سليمان بن داود لمحاربة عامر بن محمد بن علي:

كان عامر بن محمد بن علي، شيخ هنتاتة، من قبائل المصامدة. وكان السلطان

يعقوب قد استعمل أباه محمد بن علي على جباياتهم، والسلطان أبو سعيد استعمل عمه موسى بن علي. وربي عامر هذا في كفالة الدولة، وسار في جملة السلطان إلى إفريقية، وولاه السلطان أحكام الشرطة بتونس. ولما ركب البحر إلى المغرب أركب حرمه وحظاياه في السفين، وجعلهم إلى نظر عامر بن محمد. وأجازوا البحر إلى الأندلس، فنزلوا المرية. وبلغهم غرق الأسطول بالسلطان أبي الحسن وعساكره، فأقام بهم بمكانه من المرية. وبعث السلطان أبو عنان عنه، فلم يجب داعيه وفاء ببيعة أبيه. حتى إذا هلك السلطان أبو الحسن بدارهم بالجبل، ورعى لهم السلطان أبو عنان إجارتهم لأبيه، حين لفظته البلاد وتحاماه الناس، أجمع أمره على الوفادة عليه، فوفد بمن معه من الحرم. وأكرم السلطان أبو عنان وفادته، وأحسن نزله. ثم عقد له على جباية المصامدة سنة أربع وخمسين، وبعثه لها من تلمسان، فاضطلع بهذه الولاية. وأحسن الغناء فيها، والكفاية عليها، حتى كان السلطان أبو عنان يقول: وددت لو أصبت رجلا يكفيني ناحية الشرق من سلطاني، كما كفاني عامر بن محمد ناحية الغرب واتورع. ونافسه الوزراء في مقامه ذلك عند السلطان ورتبته. وانفرد الحسن بن عامر آخر الأمر بوزارة السلطان، فاشتدت منافستهم وانتهت إنى العداوة والسعاية.

وكان السلطان بين يدي مهلكه ولى أبناءه الأصاغر على أعمال ملكه: فعقد لابنه

محمد المعتمد على مراكش، واستوزر له، وجعله إلى نظر عامر واستوصاه به. فلما هلك السلطان وانتقل الحسن بن عمر بالأمر، ونصب السعيد للملك، استقدم الأبناء من الجهات، فبعث عن المعتمد بمراكش، فأبى عليه عامر من الوفادة عليهم، وصعد به إلى معقله من جبل هنتاتة. وبلغ الحسن بن عمر خبره، فجهز إليه العساكر، وأزاح عللهم. وعقد على حربه للوزير سليمان بن داود مساهمة في القيام بالأمر، وسرحه في المحرم من سنة

ستين، فأغذ السير إلى مراكش، واستولى عليها. وصمد إلى الجبل فأحاط به، وضيق على عامر، وطاول منازلته. وأشرف على اقتحام معقله، إلى أن بلغ خبر افتراق بني مرين، وخروج منصور بن سليمان من أعياص الملك على الدولة، وأنه منازل للبلد

الجديد، فانفض المعسكر من حوله، وتسابقوا إلى منصور بن سليمان، فلحق به الوزير سليمان بن داود وتنفس المخنق عن عامر، إلى أن استولى السلطان أبو سالم على ملك المغرب في شعبان من سنة ستين. واستقدم عامر والمعتمد ابن أخيه من مكانهم بالجبل، فقدم عليه وأسلمه إليه، كما نذكر إن شاء الله تعالى.

الخبر عن ظهور أبي حمو بنواحي تلمسان، وتجهيز العساكر لمدافعته، ثم تغلبه عليها، وما تخلل ذلك من الأحداث:

كان أبناء عبد الرحمن بن يحيى بن يغمراسن هؤلاء أربعة كما ذكرناه في أخبارهم، وكان يوسف كبيرهم، وكان سكوناً منتحلا لطرق الخير لا يريد علوا في الأرض. ولما ملك أخوه عثمان بتلمسان، عقد له على تنس. وكان ابنه موسى متقبلا مذهبه في السكون والدعة ومجانبة أهل الشر. ولما تغلب السلطان أبو عنان عليهم سنه ثلاث وخمسين، وفر أبو ثابت إلى قاصية الشرق، واهتبلتهم قبائل زواوة وأرجلوهم عن خيلهم سعوا على أقدامهم. وانتبذ أبو ثابت وأبو زيان ابن أخيه أبي سعيد وموسى ابن أخيه يوسف ووزيرهم يحيى بن داود ناحية عن قومهم، وسلكوا غير طريقهم. وتقبض على أبي ثابت ويحيى بن داود ومحمد بن عثمان، وخلص موسى إلى تونس، فنزل على الحاجب أبي محمد بن تافراكين وسلطانه خير نزل، وأجاره مع فل من قومه، خلصوا إليهم وأسنوا جرايتهم. وبعث السلطان أبو عنان فيهم إلى ابن تافراكين، فأبى من إسلامهم وجاهر بإجارتهم على السلطان.

ولما استولت عساكر السلطان على تونس، وأجفل عنها سلطانها أبو إسحاق إبراهيم ابن مولانا السلطان أبي يحيى، خرج موسى بن يوسف هذا في جملته. ولما رجع السلطان إلى المغرب، صمد المولى أبو إسحاق إبراهيم ابن مولانا السلطان أبي بحيى، وابن أخيه المولى أب و زيد صاحب قسنطينة مع يعقوب بن علي وقومه من الدواودة، إلى منازلة قسنطينة وارتجاعها. وسار في جملتهم موسى بن يوسف هذا فيمن كان عندهم من زناتة قومه. وكان بنو عامر بن زغبة خارجين على السلطان أبي عنان منذ كلبه بني عبد الواد على تلمسان. وكانت رياستهم إلى صغير بن عامر بن

إبراهيم، فلحق بإفريقية في قومه. ونزلوا على يعقوب بن علي، وجاوروه بحللهم وظعنهم. فلما أفرجوا

عن قسنطينة بعد امتناعها، واعتزم صغير على الرحلة بقومه إلى وطنهم من صحراء المغرب الأوسط دعوا موسى بن يوسف هذا إلى الرحلة معهم لينصبوه للأمر، ويجلبوا به على تلمسان فخلى الموحدون سبيله، وأعانوه بما اقتدروا عليه لوقتهم، وعلى حال سفرهم من آلة وفسطاط. وارتحل مع بني عامر، وارتحل معهم صولة بن يعقوب بن علي، وزيان بن عثمان بن سباع من أمراء الدواودة، ودغار بن عيسى في حلله من بني سعيد إحدى بطون رياح. وأغذ السير إلى المغرب للعيث في نواحيه. وجمع لهم أقتالهم من سويد أولياء السلطان والدولة. والتقوا بقبلة تلمسان، فانهزمت سويد، وهلك عثمان ابن كبيرهم ونزمار وكان مهلك السلطان في خلال ذلك.

وكان السلطان حين استعمل الأبناء على الجهات، عقد لمحمد المهدي من أولاده

على تلمسان. ولما اتصل خبر وفاة السلطان بالعرب، أغذوا السير إلى تلمسان وملكوا ضواحيها. وجهز الحسن بن عمر إليها عسكرا عقد عليه وعلى الحامية الذين بها لسعيد بن موسى العجيسي من صنائع السلطان، وسرحه إليها، وسار في جملته أحمد بن مزني فاصلا إلى عمله بعد أن وصله وخلع عليه وحمله. وسار سعيد بن موسى في العساكر إلى تلمسان، فاحتل بها في صفر من سنة ستين. وزحف إليهم جموع بني عامر وسلطانهم أبو موسى بن يوسف، فغلبوهم على الضاحية وأحجزوهم بالبلد. ثم نازلوهم الحرب أياما، واقتحموها عليهم لثمان خلون من ربيع، واستباحوا من كان بها من العسكر، وامتلأت أيديهم من أسلابهم ونهابهم. وخلص سعيد بن موسى بابن السلطان إلى حلة صغير بن عامر، فأجاره ومن جاء على أثره من قومه وأوفد معهم رجالات من بني عامر ينفضون الطريق أمامه إلى أن أبلغوه مأمنه من دار ملكهم. واستولى أبو حمو على ملك تلمسان، واستأثر بالهدية التي ألفى بمودعها، كان السلطان انتقاها وبعث بها إلى صاحب برشلونة بطره بن ألقنط، وبعث إليه بها بفرس أدهم من مقرباته بمركب ولجام ذهبيين ثقيلين. فاتخذ أبو حمو ذلك الفرس لركوبه، وصرف الهدية في مصارفه ووجوه مذاهبه. والله غالب على أمره.

الخبر عن نهوض الوزير مسعود بن ماساي إلى تلمسان، وتغلبه عليها، ثم انتقاضه، ونصبه منصور بن سليمان للأمر:

لما بلغ الوزير الحسن بن عمر خبر تلمسان، واستيلاء أبي حمو عليها، جمع

مشيخة بني مرين، ووامرهم في النهوض إليها، فأبوا عليه من النهوض بنفسه، وأشاروا بتجهيز العسكر ووعدوه بمسيرهم كافة ففتح ديوان العطاء وفرق الأموال وأسنى الصلات وأزاح العلل، وعسكر بساحة البلد الجديد. ثم عقد عليهم لمسعود بن رحو بن ماساي، وحمل من المال وأعطاه الآلة، وسار في الألوية والعساكر. وكان في جملته منصور بن سليمان بن أبي مالك بن يعقوب بن عبد الحق وكان الناس يرخون بأن سلطان المغرب صائر إليه بعد مهلك أبي عنان. وشاع ذلك في ألسنة الناس وذاع، وتحدث به السمر والندمان، وخشي منصور على نفسه لذلك، فجاء إلى الوزير وشكا إليه ذلك، فانتهره بأن لا يختلج بفكره مثل هذا الوسواس، انتهارا خلا من وجه السياسة، فازدجر واقتصر. ولقد شهدت هذا الموطن، ورجمت ذلة انكساره وخضوعه في موقفه. ورحل الوزير مسعود في التعبية. وأفرج أبو حمو عن تلمسان، ودخلها مسعود في ربيع الثاني واستولى عليها. وخرج أبو حمو إلى الصحراء وقد اجتمعت إليه جموع العرب من زغبة والمعقل. ثم خالفوا بني مرين إلى المغرب واحتلوا بأنكاد بحللهم وظواعنهم وجهز مسعود بن رخو إليهم عسكراً من جنوده انتقى فيه مشيخة من بني مرين وأمرائهم، وعقد عليهم لعامر ابن عمه عبو بن ماساي. وسرحهم فزحفوا إليهم بساحة وجدة. وصدقهم العرب الحملة، فانكشفوا واستبيح معسكرهم، واستلبت مشيختهم، وأرجلوا عن خيلهم، ودخلوا إلى وجدة عراة. وبلغ الخبر إلى بني مرين بتلمسان، وكان في قلوبهم مرض من استبداد الوزير عليهم وحجزه لسلطانهم، فكانوا يتربصون بالدولة. فلما بلغ الخبر وجاض الناس له جيضة الحمر، خلص بعضهم نجيا بساحة البلد واتفقوا على البيعة ليعيش بن علي بن أبي زيان ابن السلطان أبي يعقوب فبايعوه.

وانتهى الخبر إلى الوزير مسعود بن رحو، وكان متحينا سلطان منصور بن سليمان، فاستدعاه وأكرهه على البيعة، وبايعه معه الرئيس الأكبر من بني الأحمر، وقائد جند النصارى القمندوز وتسايل إليه الناس، وتسامع الملأ من بني مرين بالخبر، فبادروا إليه من كل جانب. وذهب يعيش ابن أبي زيان لوجه، فركب البحر وخلص إلى الأندلس، وانعقد الأمر لمنصور بن سليمان. واجتمع بنو مرين على كلمته، وارتحل بهم من تلمسان بريد المغرب.

واعترضتهم جموع العرب بطرياتهم، فأوقعوا بهم، وامتلأت أيديهم من أسلابهم وظعنهم. وأغذوا السير إلى المغرب، واحتلوا بسبو في منتصف جمادى الآخرة

وبلغ الخبر إلى الحسن بن عمر، فاضطرب معسكره بساحة البلد. وأخرج السلطان في الآلة والتعبية إلى أن أنزله بفسطاطه. ولما غشيهم الليل، انفضوا عنه ونزع الملأ إلى السلطان منصور بن سليمان، فأوقد الشموع وأذكى النيران حول الفسطاط، وجمع الموالي والجند، وأركب السلطان، ودخل إلى قصره، وانحجز بالبلد الجديد. وأصبح منصور بن سليمان، فارتحل في التعبية حتى نزل بكدية العرائس في الثاني والعشرين لجمادى، واضطرب معسكره بها، وغدا عليها بالقتال وشد عليها الحملات، وامتنعت ليومها. ثم جمع الأيدي على اتخاذ الآلات للحصار. واجتمعت إليه وفود الأمصار بالمغرب للبيعة. ولحقت به كتائب بني مرين التي كانت مجمرة بمراكش لحصار عامر مع الوزير سليمان بن داود فاستوزره، وأطلق عبد الله بن علي وزير السلطان أبي عنان من معتقله، فاستوزره أيضا. وأوعز بإطلاق مولانا أبي العباس صاحب قسنطيط من معتقله بسبتة، فخلص منه خلوص الإبريز بعد السبك. وأمر منصور بن سليمان بتسريح السجون، فخرج من كان بها من دعار بجاية وقسنطينة، وكانوا معتقلين من لدن استحواذ السلطان أبي عنان على بلادهم. وانطلقوا إلى مواطنهم وأشام على البلد الجديد يغاديها بالقتال ويراوحها. ونزع عنه إلى الوزير الحسن بن عمر طائفة من بني مرين. ولحق آخرون ببلادهم، وانتقضوا عليه ينتظرون مال أمره. ولبث على هذه الحال إلى غرة شعبان، فكان من قدوم السلطان أبي سالم لملك سلفه بالمغرب، واستيلائه عليه، ما نذكره إن شاء الله تعالى.

الخبر عن نزول المولع أبي سالم بجبال غمارة، واستيلائه علي ملك المغرب، ومقتل منصور بن سليمان:

كان السلطان أبو سالم بعد مهلك أبيه واستقراره بالأندلس، وخروج أبي الفضل بالسوس لطلب الأمر، ثم ظفر السلطان أبي عنان به ومهلكه كما ذكرنا، قد تورع وسكن وسالمه السلطان. ثم هلك سلطان الأندلس أبو الحجاج سنة خمس وخمسين يوم الفطر بمصلى العيد، طعنه أسود موسوس كان ينسب إلى أخيه محمد من بعض إماء قصرهم. ونصبوا للأمر ابنه محمدا، وأحجبه مولاه رمضان واستبد عليه. وكان للسلطان أبي عنان اعتزاز كما ذكرناه، وكان يؤمل ملك الأندلس. وأوعز إليهم عندما طرقه من

طائف المرض سنة سبع وخمسين، أن يبعثوا إليه طبيب دارهم إبراهيم بن زرزر الذمي، وامتنع من ذلك

اليهودي، واعتذروا عذره، فنكر لهم السلطان قبله. ولما وصل إلى فاس من فتح قسنطينة وإفريقية، وتقبض على وزيره والمشيخة من قبله، تجنيا عليهم، إن لم يبادر السلطان بنفسه وحاجبه للتهنية. وأظلم الجو بينهم، واعتزم على النهوض إليهم، وكانوا منحاشين بالجملة إلى الطاغية بطره بن أدفونش صاحب قشتالة، منذ مهلك أبيه ألهنشة على جبل الفتح سنة إحدى وخمسين. ثم استبد رضوان على الدولة بعد مهلك أبي الحجاج، كانت له صاغية إليهم، ظاهرها النظر للمسلمين بمسالمة عدوهم. وكان السلطان أبو عنان يعتد ذلك عليهم، وعلم أنه لا بد أن يمدهم بأساطيله، ويدافعوه عن الإجازة إليهم. وكان بين الطاغية بطرة وبين قمص برشلونة فتنة هلك فيها أهل ملتهم، فصرف السلطان إلى قمص برشلونة، وخاطبه في اتصال اليد على أدفونش واجتماع أسطول. وأسطول القمص بالزقاق، وضربوا بذلك الموعد. وأتحفه السلطان بهدية سنية. متاع المغرب وماعونه، ومركب ذهبي صنيع، ومقرب من جياده. وأنفذها إليه، فبلغت تلمسان، وهلكت قبل وصولها إلى محلها.

ولما هلك السلطان أبو عنان أمل أخوه المولى أبو سالم ملك أبيه، وطمع في

مظاهرة أهل الأندلس له على ذلك، لما كان بينهم وبين أخيه. واستدعاه أشياع من أهل

المغرب، ووصل البعض منهم إليه بمكانه من غرناطة، وطلب الإذن من رضوان في الإجازة، فأبى عليه، فاحفظه ذلك. ونزع إلى ملك قشتالة متصارحا بنفسه عليه أن يجهز الأسطول للإجازة إلى المغرب، فاشترط عليه، وتقبل شرطه. وأجازه في أسطوله إلى مراكش، فامتنع عامر من قبوله لما كان فيه من التضييق والحصار بحصة سليمان بن داود ذكرناه، فانكفأ راجعا على عقبه. فلما حاذى طنجة وبلاد غمارة ألقى بنفسه إليهم، ونزل بالصفيحة من بلادهم. واشتملت عليه قبائلهم، وتسايلو إليه من كل حدب، وبايعوه على الموت.

وملك سبتة وطنجة، وبها يومئذ السلطان أبو العباس ابن أبى حفص صاحب . " لحق بها بعد الخروج من اعتقاله بسبتة كما ذكرناه، فاختصه المولى أبو

سالم بالصحابة والخلة، وألفه في اغترابه ذلك إلى أن استولى على ملكه. وألقى بطنجة الحسن بن يوسف الورتاجني، وكاتب ديوان الجند أبا الحسن علي بن السعود، والشريف أبا القاسم التلمساني. كان منصور بن سليمان ارتاب بهم، واتهمهم بمداخلة الحسن بن

عمر بمكانه من البلد الجديد، فصرفهم من معسكره إلى الأندلس، فوافوا المولى أبا سالم عند استيلائه على طنجة، فساروا في إيالته. واستوزر الحسن بن يوسف، واستكتب لعلامته أبا الحسن علي بن السعود، واختص الشريف بالمجالسة والمراكبة. ثم قام أهل الثغور الأندلسية بدعوته. وأجاز يحياتن بن عمر صاحب جبل الفتح إليه بمن كان معه من المعسكر. وطنت حصاة المولى أبي سالم واتسع معسكره وبلغ خبره إلى الثائر على البلد الجديد منصور بن سليمان، فجهز عسكرا لدفاعه. وعقد عليه لأخويه عيسى وطلحة، وأنزلهم قصر كتامة. وقاتلوه فهزموه، واعتصم بالجبل. وبادر الحسن بن عمر من وراء الجدران، فبعث إليه بطاعته، ووعده بالتمكن من دار ملكه. وداخل بعض أشياع المولى أبي سالم مسعودك بن رحو بن ماساي وزير منصور في النزوع إلى السلطان، وكان قد ارتاب بمنصور وابنه علي، فنزع وانفض الناس من حول منصور، وتخاذل أشياعه من بني مرين، ولحق ببادس من سواحل المغرب. ومشى أهل المعسكر بأجمعهم في ساقاتهم ومواكبهم على التعبية، فلحقوا بالسلطان أبي سالم واستغذوه إلى دار ملكه فأغذ السير، وخلع الحسن بن عمر سلطانه السعيد عن الأمر، وأسلمه إلى عمه وخرج إليه فبايعه.

ودخل السلطان إلى البلد الجديد يوم الجمعة منتصف شعبان من سنة ستين. واستولى على ملك المغرب، وتوافت وفود النواحي بالبيعات. وعقد للحسن بن عمر على مراكش، وجهزه إليها بالعساكر ريبة بمكانه. واستوزر مسعود بن رحو بن ماساي والحسن بن يوسف الورتاجني، واصطفى من خواصه خطيب أبيه الفقيه أبا عبد الله محمد بن أحمد بن مرزوق، وجعل إلى مؤلف هذا الكتاب توقيعه وكتابة سره. وكنت نزعت إليه من معسكر منصور بن سليمان بكدية العرائس لما رأيت من اختلال أحواله، ومصير الأمر إلى السلطان، فأقبل علي وأنزلني بمحل البنوة، واستخلصني لكتابته. واستوسق أمره بالمغرب. وتقبض شيعة السلطان ببادس على منصور بن سليمان وابنه علي، وقادوهم مصفدين إلى سدته، فأحضرهم ووبخهم. وجنبوا إلى مصارعهم، فقتلوا قعصا بالرماح آخر شعبان من سنته. وجمع الأبناء والقرابة المرشحين من ولد أبيه وعمه، فأشخصهم إلى رندة من

ثغورهم بالأندلس، ووكل بهم من يحرسهم. ونزع محمد بن أبي أخيه أبي عبد الرحمن منهم إلى غرناطة. ثم لحق منها بالطاغية واستقر لديه، حتى

كان من تملكه المغرب ما نقصه. وهلك الباقون غرقا في البحر بإيعاز السلطان بذلك، بعد مدة من سلطانه، أركبهم السفين إلى المشرق، تم غرقهم. وخلص الملك من الخوارج والمنازعين واستوسق له الأمر والله غالب على أمره. احتفل السلطان في كرامة مولانا السلطان أبي العباس، وشاد ببره، وأوعز باتخاذ دار عامر بن فتح الله وزير أبيه لنزله، ومهد له المجلس لصق أريكته، ووعده بالمظاهرة على ملكه، إلى أن بعثه من تلمسان عند استيلائه عليها، كما نذكر إن شاء الله تعالى.

الخبر عن خلع ابن الأحمر صاحب غرناطة ومقتل رضوان ومقدمه علي السلطان:

لما هلك السلطان أبو الحجاج سنة خمس وخمسين، ونصب ابنه محمد للأمر، واستبد عليه رضوان مولى أبيه وكان قد رشح ابنه الأصغر إسماعيل بما ألقى عليه وعلى أمه من محبته. فلما عدلوا بالأمر عنه حجبوه ببعض قصورهم، وكان له صهر من ابن عمه محمد بن إسماعيل ابن الرئيس أبي سعيد في شقيقه، فكان يدعوه سرا إلى القيام بأمره، حتى أمكنته فرصة في الدولة، فخرج السلطان إلى بعض متنزهاته برياضه، فصعد سور الحمراء ليلة سبع وعشرين لرمضان من سنة ستين في أوشاب جمعهم من الطغام لثورته. وعمد إلى دار الحاجب رضوان، فاقتحم عليه الدار، وقتله بين حرمه وبناته. وقربوا إلى إسماعيل فرسه وركبه، فأدخلوه القصر وأعلنوا ببيعته. وقرعوا طبولهم بسور الحمراء، وفر السلطان من مكانه بمتنزهه، فلحق بوادي آش. وغدا الخاصة والعامة على إسماعيل، فبايعوه. واستبد عليه هذا الرئيس ابن عمه. ثم قتله لأشهر من بيعته، واستقل بسلطان الأندلس ولما لحق السلطان أبو عبد الله بوادي آش بعد مقتل حاجبه رضوان، واتصل الخبر بالسلطان المولى أبي سالم، امتعض لمهلك رضوان وخلع السلطان رعيا لما سلف له في جوارهم. وأزعج

لحينه أبا القاسم الشريف من أهل مجلسه لاستقدامه، فوصل إلى الأندلس، وعقد مع أهل الدولة على إجازة المخلوع من وادي آش إلى المغرب، وأطلق من اعتقالهم الوزير الكاتب أبا عبد الله بن الخطيب، كانوا اعتقلوه لأول أمره لما كان رديفا للحاجب رضوان، وركنا لدولة المخلوع، فأوصر المولى أبو سالم إليهم بإطلاقه فأطلقوه. ولحق الرسول أبو القاسم بسلطانه المخلوع بوادي آش للإجازة إلى المغرب، وأجاز لذي القعدة من سنته. وقدم على السلطان بفاس، فأجل قدومه، وركب للقائه، ودخل به إلى مجلس ملكه، وقد احتفل بزينته، وغص بالمشيخة والعلية. ووقف وزيره ابن الخطيب، فأنشد السلطان قصيدته الرائية يستصرخه لسلطانه، ويستحثه لمظاهرته على أمره. واستعطف واسترحم، بما أبكى الناس شفقة ورحمة. ونص القصيدة:

******نقص******

صفحة 409

ثم انفض المجلس وانصرف ابن الأحمر إلى نزله، وقد فرشت له القصور، وقربت الجياد بالمراكب الذهبية، وبعث إليه بالكسى الفاخرة، ورتبت الجرايات له ولمواليه من المعلوجي وبطانته من الصنائع. وانحفظ عليه رسم سلطانه في الموكب والرجل، ولم يفقد من ألقاب ملكه إلا الآلة أدباً مع السلطان. واستقر في جملته إلى أن كان من لحاقه بالأندلس، وارتجاع ملكه سنة ثلاث وستين وسبعمائة، ما نذكره إن شاء الله تعالى.

الخبر عن انتقاض الحسن بن عمر، وخروجه بتادلا، وتغلب السلطان عليه، ومهلكه :

لما فصل الوزير الحسن بن عمر إلى مراكش، واستقر بها، تأثل له بها سلطان ورياسة، نفسها عليه الوزراء بمجلس السلطان، وسعوا في تنكر السلطان له، حتى أظلم الجو بينهما. وشعر الوزير بذلك، فارتاب بمكانه، وخشي بادرة السلطان على نفسه. وخرج من مراكش في شهر صفر من سنة إحدى وستين وسبعمائة، فلحق بتادلاً، منحرفاً عن الطاعة، مرتكباً في أمره. وتلقاه بنو جابر من جشم، واعصوصبوا عليه وأجاروه. وجهز السلطان عساكره إلى حربه، وعمد عليها لوزيره الحسن بن يوسف وسرحه إليه، فاحتل بتادلاً ولحق الحسن بن عمر بالجبل، واعتصم به مع حسين بن علي الورديغي كبيرهم. وأحاطت بهم العساكر وأخذوا بمخنقهم. وداخل الوزير بعض أهل الجبل من صناكة في الثورة بهم. وسرب إليهم المال، فثاروا بهم وانفض جمعهم. وتقبض على الحسن بن عمر، وقادوه برفته إلى عسكر السلطان فاعتقله الوزير وانكفأ راجعاً إلى الحضرة، وقدم به على السلطان في يوم مشهود، استركب السلطان فيه العسكر. وجلس ببرج الذهب مقعده من ساحة البلد لاعتراض عساكره. وحمل الحسن بن عمر على جمل، طائف به بين أهل ذلك المحشر. وقرب إلى المجلس، فأومأ إلى تقبيل الأرض فوق جمله، وركب السلطان إلى قصره. وانفض الجميع وقد شهدوا عبرة من عبر الدنيا. ودخل السلطان نصره واقتعد أريكته واستدعى خاصته وجلساءه. وأحضره، فوبخه وقرر عليه مرتكبه، فتلوى بالمعاذير وفزع إلى الإنكار. حضرت يومئذ هذا المجلس فيمن حضره من العلية والخاصة، فكان مقاماً تسيل فيه العيون رحمة وعبرة. ثم أمر به السلطان، فسحب على وجهه ونتفت لحيته وضرب بالعصى. وتل إلى محبسه وقتل لليال من اعتقاله قعصاً بالرماح بساحة البلد. وصلب شلوه بسور البلد، عند باب المحروق وأصبح مثلاً في الاخرين.

الخبر عن وفد السودان، وهديتهم، و أغرابهم فيها بالزرافة:

كان السلطان أبو الحسن لما أهدى إلى ملك السودان منسا سليمان بن منسا موسى

هديته المذكورة في خبره، اعتمل في مكافأته وجمع لمهاداته من طرف أرضه وغرائب بلاده. وهلك السلطان أبو الحسن خلال ذلك. ووصلت الهدية إلى أقصى تخومهم من والاتن. هلك منسا سليمان قبل وصولها. واختلف أهل مالي وافترق ملكهم. وتواثب ملوكهم على الأمر وقتل بعضهم بعضاً. وشغلوا بالفتنة، حتى قام فيهم منسا جاطه واستوسق له أمرهم ونظر في أعطاف ملكه. وأخبر بشأن الهدية وأخبر أنها بوالاتن، فأمر بإنفاذها إلى ملك المغرب. وضم إليها الزرافة الحيوان الغريب الشكل، العظيم الهيكل، المختلف الشبه بالحيوانات. وفصلوا بها من بلادهم، فوصلوا إلى فاس في صفر من سنة إثنتين وستين وسبعمائة. وكان يوم وفادتهم يوما مشهودا، جلس لهم السلطان ببرج الذهب مجلس العرض. ونودي في الناس بالبروز إلى الصحراء، فبرزوا ينسلون من كل حدب، حتى غص بهم الفضاء وركب بعضهم بعضاً في الازدحام على الزرافة، إعجاباً بخلقها. وأنشد الشعراء في عرض المدح والتهنية ووصف الحال. وحضر الوفد بين يدي السلطان وأدوا رسالاتهم بتأكيد الود والمخالصة، والعذر عن إبطاء الهدية بما كان من اختلاف أهل مالي وتواثبهم على الأمر، وتعظيماً سلطانهم وما صاروا إليه. والترجمان يترجم عنهم وهم يصدقونه بالنزع في أوتار قسيهم عادةً معروفة لهم. وحيوا السلطان يحثون التراب على رؤوسهم على سنة ملوك العجم. ثم ركب السلطان، وانفض ذلك المجلس وقد طار به الذكر. واستقر ذلك الوفد في إيالة السلطان وتحت جرايته وهلك السلطان قبل انصرافهم، فوصلهم القائم بالأمر من بعده. وانصرفوا إلى مراكش، وأجازوا منها إلى ذوي حسان عرب السوس من المعقل المتصلين ببلادهم. ولحقوا من هنالك بسلطانهم. والأمر لله وحده سبحانه.

الخبر عن حركة السلطان إلى تلمسان واستيلائه عليها. وإيثار أبي زيان حافد أبي تاشفين بملكها. وما كان مع ذلك من صرف أمراء الموحل ين إلي بلادهم:

لما استقل السلطان بملك المغرب سنة ستين وسبعمائة كما ذكرناه، وكان العامل على درعة

عبد أالله بن مسلم الزردالي من أخلاف بني عبد الواد وشيعة آل زيان، اصطنعه السلطان أبوالحسن عند تغلبه على تلمسان. واستعمله ابنه أبو عنان بعد ذلك على بلاد درعة كما

ذكرناه. وتولى المكر بأبي الفضل ابن السلطان أبي الحسن، حين خروجه على أخيه السلطان أبي عنان بجبل ابن حميدي، فارتاب عند استقلال المولى أبي سالم بالأمر. وخشي بادرته، لما نابهم من حقده عليه، بسبب أخيه أبي الفضل، لما بينهما من لحمة الاغتراب، فداخل بطانة له من عرب المعقل واحتمل ذخائره وأمواله وأهله وقطع القفر إلى تلمسان. ولحق بالسلطان أبي حمو آخر سنة ستين وسبعمائة، فنزل منه خير نزل. وعقد له لحين وصوله على وزارته وبإهابه وبمكانه. وفوض إليه في التدبير والحال والعقد. وشمر هو عن ساعده في الخدمة. وجأجأ بعرب المعقل من مواطنيهم رغبة في ولايته وإيثاراً لمكانه من الدولة. ورهبة من السلطان بالمغرب، لما كانوا ارتكبوه من مواقفة بني مرين مرة بعد أخرى، فاستقروا بتلمسان وانحاشوا جميعاً إلى بني عبد الواد. وبعث السلطان إلى أبي حمو في شأن عاملهم عبد الله بن مسلم، فلم يرجع له جواباً عنه. وحظر عليه ولاية المعقل أهل وطنه، فلج في شأنهم، فأجمع السلطان أمره على النهوض إليه. واضطرب معسكره بساحة البلد وفتح ديوان العطاء. ونادى في الناس بالنفير إلى تلمسان وأزاح العلل.

وبعث الحاشرين من وزرائه إلى مراكش، فتوافت حشود الجهات ببابه، وفصل من

فاس في جمادى من سنة إحدى وستين وسبعمائة. وجمع أبو حمو في إيالته وعلى التشيع لدولته من زناتة والعرب من بني عامر والمعقل كافة، ما عدا العمارنة، كان

أميرهم الزبير بن طلحة متحيزاً إلى السلطان. وأجفلوا عن تلمسان وخرجوا إلى الصحراء. ودخل السلطان إلى تلمسان ثالث رجب. وخالفه أبو حمو وأشياعه إلى المغرب، فنزلوا كرسيف بلد ونزمار بن عريف وخربوه. واكتسحوا ما وجدوا فيه حقداً على ونزمار وقومه، بولاية بني مرين. وتخطوا إلى وطاط، فعاثوا في نواحيه. وانقلبوا إلى أنكاد. وبلغ السلطان خبرهم، فتلافى أمر المغرب. وعقد على تلمسان لحافد من حفدة السلطان أبي تاشفين، كان ربي في حجرهم وتحت كفالة نعمتهم، وهو أبو زيان محمد بن عثمان وشهرته بالفتى. وأنزله بالقصر القديم من تلمسان وعسكر عليه زناتة الشرق كلهم. واستوزر له ابن عمته عمر بن محمد بن إبراهيم بن مكن ومن أبناء وزرائهم سعيد بن موسى بن علي، وأعطاه عشرة أحمال من المال دنانير ودراهم. ودفع إليه الآلة. وذكر حينئذ لمولانا السلطان أبي العباس سوابقه وإيلافه في المنزل الخشن، فنزل له عن محل إمارته قسنطينة. وصرف أيضاً المولى أبا عبد الله صاحب بجاية لاسترجاع بلده بجاية، فعقد لهما بذلك وحملهما. وخلع عليهما وأعطاهما حملين من المال.

وكانت بجاية لذلك العهد قد تغلب عليها عمهم المولى أبو إسحق إبراهيم صاحب تونس، فكتب إلى عاملهم على قسنطينة منصور بن الحاج خلوف، أن ينزل عن بلده لمولانا السلطان أبي العباس ويمكنه منها. وودع هؤلاء الأمراء وانكفأ راجعاً إلى حضرته، لسد ثغور المغرب وحسم داء العدو، فدخل فاس في شعبان من سنته. ولم يلبث أن رجع أبو زيان على أثره بعد أن أجفل عن تلمسان ولحق بوانشريش. وتغلب عليه أبو حمو وفض جموعه، فلحق بالسلطان. واستقل أبو حمو بملك تلمسان. وبعث في السلم إلى السلطان، فعقد له من ذلك ما رضيه كما نذكره.

الخبر عن مهلك السلطان أبي سالم. واستيلاء عمر بن عبد الله علي ملك المغرب. ونصبه للملوك واحدا بعد واحد آخر إلى أن هلك:

كان السلطان قد غلب على هواه الخطيب أبو عبد الله بن مرزوق وكان من خبره

ان سلفه من أهل رباط الشيخ أبي مدين، وكان جده قيماً على خدمة قبره ومسجده، واتصل القيام على هذا الرباط في عقبه. وكان جذه الثالث محمد معروفاً بالولاية. ولما مات دفنه يغمراسن بالقصر القديم، ليجاوره بجدثه تبركاً به. وكان ابنه أحمد أبو محمد هذا قد ارتحل إلى المشرق. وجاور الحرمين، إلى أن هلك وربي محمد ابنه بالمشرق ما بين الحجاز ومصر. وقفل إلى المغرب بعد أن شداً شيئاً في الطلب وتفقه على أولاد الإمام. ولما ابتنى السلطان أبو الحسن مسجد العباد ولاه الخطابة به وسمعه يخطب على المنبر، وقد أحسن في ذكره والدعاء له، فحلي بعينه واستخلصه لنفسه وأحله محل القرب من مجلسه. وجعله خطيباً حيث يصلي في مساجد المغرب، وسفر عنه إلى الملوك. ولما كانت نكبة القيروان خلص إلى المغرب واستقر برباط العباد بجبل سلفه، بعد أحوال أضربنا عن ذكرها اختصاراً.

ولما خلص السلطان إلى الجزائر، داخله أبو سعيد صاحب تلمسان في السفارة عنه إلى السلطان أبي الحسن وإصلاح بينهما فسار لذلك. ونقمه أبو ثابت وبنو عبد الواد ونكروه على سلطانهم. وسرحوا صغير بن عامر في اتباعه، فتقبض عليه وأودعه المطبق. ثم أشخصوه بعد حين إلى الأندلس، فاتصل بأبي الحجاج صاحب غرناطة. وولاه خطابته، ولما اشتهر به من إجادة الخطبة للملوك بزعمهم. وألف السلطان أبا سالم في مثوى غربته من غرناطة، وشاركه عند أبي الحجاج في مهماته. ولما نزل بجبال غمارة داخل بني مرين والوزراء في القيام بدعوته. وكان له في ذلك مقام محمود، فرعى السلطان وسائله وموالاته القديمة والحادثة إلى مقامه عند أبيه. فلما استوسق له ملك المغرب، اختصه بولايته وألقى عليه محبته وعنايته. وكان مؤامره ونجي خلوته والغالب على هواه، فانصرفت إليه الوجوه وخضعت له الرقاب ووطىء عتبته الأشراف والوزراء، وعكف على بابه القواد والأمراء وصار زمام الدولة بيده. وكان يتجافى عن ذلك أكثر أوقاته، حذراً من المغبة. ويزجر من يتعرض

له في الشكاية ويردهم إلى أصحاب المراتب والخطط بباب السلطان، وهم يعلمون أنه قد ضرب على أيديهم، فنقموا ذلك عليه وسخطوا الدولة من أجله. ومرضت قلوب أهل الحل والعمد من تقدمه. ونفس عليه الوزراء ما تعين له عند السلطان من الحظ، فتربصوا بالدولة. وشمل هذا الداء الخاصة والعامة. وكان عمر بن عبد الله بن علي، لما هلك أبوه الوزير عبد الله بن علي في جمادى سنة ستين وسبعمائة، عند استيلاء السلطان على ملكه، تجلت شفاه الدولة إلى تراثه. وكان مثرياً فاستجار منهم بابن مرزوق وساهمه من تراث أبيه، بعد أن حملوا السلطان على النيل منه والإهانة به، فأجاره منهم. ورفع عند السلطان رتبته وحمله على الإصهار إليه بأخته. وقلده السلطان أمانة البلد الجديد دار ملكه متى عنت له الرحلة عنها. وأصهر عمر إلى وزير الدولة مسعود بن ماساي تسكيناً لغربه واستخلاصاً لمودته. وسفر عن السلطان

إلى صاحب تلمسان في شعبان من سنة إثنتين وستين وسبعمائة. ونمي عنه أنه داخل صاحب تلمسان في بعض المكر، فهم بنكبته وقتله. ودافع عنه ابن مرزوق، فخلص من عقابه. وطوى من ذلك على البث وتربص الدولة. وأعيد إلى مكانه من الأمانة على دار الملك أول ذي القعدة، مرجعه من تلمسان لما كان السلطان قد تحول عنها إلى القصبة بفاس، واختط إيواناً فخماً لجلوسه بها لصق قصوره (متعنياً الأبردين). فلما استولى عمر على دار

، الملك، حدثته نفسه بالتوثب. وسول له ذلك ما اطلع عليه من مرض القلوب والنكير.

على الدولة، لمكان ابن مرزوق من السلطان فداخل قائد جند النصارى غرسية بن أنطون وتعدوا لذلك ليلة الثلاثاء السابع عشر من ذي القعدة سنة إثنتين وستين وسبعمائة. وخلصوا

إلى تاشفين الموسوس أبى السلطان أبي الحسن بمكانه من البلد الجديد، فخلعوا عليه وألبسوه شارة الملك. وقربوا له مركبة وأخرجوه إلى أريكة السلطان، فأقعدوه عليها. وأكرهوا شيخ الحامية والناشبة محمد بن الزرقاء على البيعة له. وجهروا بالخلعان وقرعوا الطبول ودخلوا إلى مودع المال،

فأفاضوا العطاء من غير تقدير ولا حسبان. وماج أهل البلد الجديد من الجند بعضهم في بعض

واختطفوا ما وصل إليهم من العطاء. وانتهبوا ما كان لمخازن الخارجة من السلع والعدة. وأضرموا النار في بيوتها ستراً على ما ضاع منها. وأصبح السلطان بمكانه من القصبة، فركب واجتمع إليه من حضر من الأولياء والقبائل. وغدا على البلد الجديد وطاف بها يروم فيها منفذاً، فاستصعبت واضطرب معسكره بكدية العرايس لحصارها. ونادى في الناس بالاجتماع إليه. ونزل عند قائلة الهاجرة بفسطاطه، فتسايل الناس عنه إلى البلد الجديد فوجاً بعد فوج بمرأى منه، إلى أن سار إليها أهل خاصته ومجلسه، فطلب النجاة بنفسه وركب في لمة من الفرسان مع وزرائه: مسعود بن رحو وسليمان بن داود ومقدم الموالي والجند بابابه سليمان بن ونصار. وأذن لابن مرزوق في الدخول إلى داره ومضى على وجهه. وله غشيهم الليل، انفضوا عنه. ورجع الوزير إلى دار الملك، فتقبض عليهما عمر بن عبد الله ومساهمه غرسية بن أنطون واعتقلاهما متفرقين. وأشخص علي بن مهدي بن يرزيجن في طلب السلطان، فعثر عليه نائما في بعض المجاشر بوادي ورغة وقد نزع عنه لباسه اختفاء بشخصه. وتوارى عن العيون بمكانه، فتقبض عليه وحمله على بغل. وطير بالخبر إلى عمر بن عبدالله، فأزعج لتلقيه شعيب بن ميمون بن داود، وفتح الله بن عامر بن فتح الله. وأمرهما بقتله وإنفاذ رأسه، فلقياه بخندق القصب وراء كدية العرائس. وأمرا بعض جند النصارى أن يتولى ذبحه. وحمل رأسه في مخلاة، فوضعه بين يدي الوزير والمشيخة. واستقل عمر بالأمر ونصب الموسوس تاشفين يموه به على الناس. وجرت الأمور إلى غايتها. ولكل أجل كتاب.

الخبر عن الفتكة بابن أنطول قائد العسكر من النصاري ثم خروج يحيي بن رحو وبني مرين عن الطاعة:

لما تقبض عمر بن عبد الله على الوزير، جعل معتقل سليمان بن داود بدار غرسية

قائد

النصارى، ومعتقل ابن ماساي بداره، ضناً عن الامتهان لمكان صهره، ولما كان

يؤمل منه من الاستظهار على أمره بعصابته من الأبناء والأخوة والقرابة. وكان غرسية بن أنطون صديقاً لسليمان بن ونصار. فلما رجع عن السلطان ليلة انفضاضهم، نزل عليه وكان يعاقره الخمر، فأتاه سحراً وتفاوضاً في اغتيال عمر وإقامة معتقله سليمان بن داود في الوزارة، بما هو عليه من السن ورسوخ القدم في الأمر. ونمي إلى عمر الخبر، فارتاب وكان خلواً من العصابة، ففزع إلى القائد الموكب السلطاني من الرجل الأندلسيين يومئذ إبراهيم البطروحي، فباثه أمره وبايعه على الاستماتة دونه. ثم استقل عصابتهم، ففزع إلى يحيى بن رخو شيخ بني مرين وصاحب شوراهم فشكا إليه، فأشكاه ووعده الفتك بابن أنطون وأصحابه. وانبرم عقد ابن أنطون وسليمان بن ونصار على شأنهم وغدوا إلى القصر. وأدخل ابن أنطون طائفة من النصارى للاستظهار بهم. ولما توافت بنو مرين بمجلس السلطان على عادتهم وطعموا، دعا عمر بن عبد الله القائد ابن أنطون، بين يدي يحيى بن رحو، وقد أحضر البطروحي رجل الأندلسيين، فسأله تحويل سليمان بن داود من داره إلى السجن فأبى وضن به عن الإهانه، ينال مثلها من ابن ماساي صاحبه، فأمر عمر بن عبد الله بالتقبض عليه، فكشر في وجوه الرجال واخترط سكينه للمدافعة، فتواثب به بنو مرين وقتلوه لحينه. واستلحموا من وجدوا بالدار من جند النصارى بعد جولة. وفروا إلى معسكرهم ويعرف بالملاح جوار البلد الجديد.

وأرجف الغوغاء بالمدينة أن ابن أنطون غدر بالوزير، فقتل جند النصارى حيث

وجدوا من سكك المدينة. وتزاحفوا إلى الملاح لاستلحام من به من الجند. وركب بنو مرين لحماية جندهم من معرة الغوغاء. وانتهب يومئذ الكثير من أموالهم وآنيتهم وأمتعتهم . وقتل النمط رى كثيراً من المجان كانوا يعاقرون الخمر بالملاح. واستبد عمر بالدار واعتقل سليمان بن ونصار إلى الليل، وبعث من قتله بمحبسه. وحول سليمان بن داود إلى بعض الدور بدارالملك واعتقله بها واستولى على أمره. ورجع في الشورى إلى

يحيى بن رحو واعصوصب بنو مرين عليه، واعتز على الوزراء والدولة. وكان عدوا لخاصة السلطان أبي سالم حريصاً على قتلهم. وكان عمر يريد استبقاءهم لما أمله في ابن ماساي فاختلفت أهواؤهما. وتبين ليحيى بن رخو والمشيخة صاغيته إلى ابن ماساي، فخشنت صدورهم عليه ودبروا في شأنه. وخاطب هو عامر بن محمد باتصال اليد واقتسام ملك المغرب. وبعث إليه بأبي الفضل ابن السلطان أبي سالم، اعتده عنده وليجة لخلاصه من ربقة

الحصار الذي هم به مشيخة بني مرين. وكان أبو الفضل هذا بالقصبة تحت الرقبة والإرصاد، فتفقد من مكانه. وأغلظ المشيخة في العتب لعمر على ذلك، فلم يستعتب. ونبذ إليهم العهد وامتنع بالبلد الجديد، ومنعهم من الدخول إليه، فاعصوصبوا على كبيرهم يحيى بن رحو وعسكروا بباب الفتوح. وجاؤوا بعبد الحليم ابن السلطان أبي علي. وكان من خبرهم معه ما نذكره. وأطلق عمر بن عبد الله مسعود بن ماساي من محبسه وسرحه إلى مراكش، وواعدوه في الأجلاب عليهم أن حاصروه كما نذكر إن شاء الله تعالى.

الخبر عن وصول عبد الحليم ابن السلطان أبي علي من تلمسان وحصار البلد الجديد:

كان السلطان أبو الحسن لما قتل أخاه الأمير أبا علي وقضى الحق الذي له في

دمه، عمل بالحق الذي عليه في ولده وحرمه، فكفلهم وأغذاهم نعمته. وساواهم بولده في كافة شؤونهم وأنكح ابنته تاحضريت العزيزة عليه، علياً منهم المكنى بأبي يفلوسن. ونزع عنه وهو بالقيروان أيام النكبة ولحق بالعرب. وأجلب معهم على السلطان بالقيروان وتونس. ثم انصرف من أفريقية ولحق بتلمسان. ونزل على سلطانها أبي سعيد عثمان بن عبد الرحمن، فبوأه كرامته. ثم شرع في الإجازة إلى الأندلس. وبعث فيه السلطان أبو عنان قبل فصوله، فأشخصوه إليه فاعتقله. ثم أحضره ووبخه على مرتكبه مع السلطان أبي الحسن وجحده حقه، ثم قتله لليلتين من شهور إحدى وخمسين وسبعمائة. ولما هلك السلطان أبو الحسن ولحقت جملته من

الخاصة والأبناء بالسلطان أبي عنان، وأشخص إخوته إلى الأندلس، لشخص معهم ولد الأمير أبي علي هؤلاء: عبد الحليم وعبد المؤمن والمنصور والناصر وسعيد ابن أخيهم أبي زيان، فاستقروا بالأندلس في جوار ابن الأحمر. ثم طلب أبو عنان إشخاصهم بعد، كما طلب إشخاص أخيه، فأجارهم ابن الأحمر جميعاً وامتنع من إسلامهم إليه. وكان من المغاضبة لذلك ما قدمناه.

ولما اعتقل السلطان أبو سالم الأبناء المرشحين برندة كما قدمناه، نزع منهم عبد الرحمن بن علي أبي يفلوسن إلى غرناطة، فلحق بأعمامه.

وكان السلطان أبو سالم ضجراً بمكانهم مستريباً بشأنهم، حتى لقد قتل محمد بن أبي يفلوسن ابن اخته تاحضريت وهو في حجرها وحجره، استرابة بما نمي عنه. ولما أجاز أبو عبد الله المخلوع ابن أبي الحجاج إلى المغرب ونزل عليه وصار إلى إيالته، رأى

أن قد ملك أمره في هؤلاء المرشحين بغرناطة. وراسل الرئيس محمد بن إسمعيل عند توثبه على الأمر واستلحامه أبناء السلطان أبي الحجاج، فراسله في اعتقالهم، على أن يمسك المخلوع عن التهامه ويقبض عنانه عن الهوى عليه، فاعتقلهم. ثم فسد ما بين الرئيس والطاغية. وزحف إليهم والتهم كثيراً من حصون المسلمين. وبعث إلى السلطان أبي سالم في أن يخلي سبيل المخلوع إليه، فامتنع وفاء للرئيس. ثم دافع الطاغية عن ثغوره بإسعاف طلبه، فجهز المخلوع وملأ حقائبه صلات وأعطاه الآلة. وأوعز إلى أسطوله بسبتة، فجهز وبعث علال بن محمد ثقة إليه، فأركبه الأسطول وركب معه إلى الطاغية. وخلص الخبر إلى الرئيس بمكانه من سلطان غرناطة. وكان أبو حمو صاحب تلمسان يراسله في أولاد أبي علي. وأن يجهزهم إليه ليجدهم زبوناً على السلطان أبي سالم، فبادر لحينه وأطلقهم من مكان اعتقالهم وأركب عبد الحليم وعبد المؤمن وعبد الرحمن ابن أخيهما على أبي يفلوسن في الأسطول. وأجازهم إلى فنين بين يدي مهلك السلطان أبي سالم، فنزلوا من صاحب تلمسان بأعز جوار. ونصب عبد الحليم منهم لملك المغرب.

وكان محمد السبيع بن موسى بن إبراهيم نزع عن عمر ولحق بتلمسان فتوافى معهم وأخبرهم بمهلك السلطان وبايع له وأغراه بالدخلة إلى المغرب ثم تتابعت رسل بني مرين بمثلها، فسرحه أبو حمو وأعطاه الآلة، واستوزر له محمد السبيع، وارتحل معه

يغذان السير. ولقيه بطريقه محمد بن زكراز، من أولاد علي، من شيوخ بني ونكاسن، أهل دبدو، ثغر المغرب، منذ دخول بني مرين إليه، فبايعه وحمل قومه على طاعته وأغذ السير وكان يحيى بن رحو والمشيخة لما نبذ عمر بن عبد الله إليهم العهد وعسكروا بباب الفتوح، أوفدوا مشيخة منهم على تلمسان، لاستقدام السلطان عبد الحريم، فوافوه بنازى ورجعوا معه. وتلقته جماعة بني مرين بسبو. ونزلوا على البلد الجديد يوم السبت سابع محرم من سنة ثلاث وستين وسبعمائة وأضربوا معسكرهم بكدية العرائس. وغادوا البلد بالقتال وراوحوها سبعة أيام، وبيعات الأمصار توافيهم والحشود تسايل إليهم. ثم إن عمر بن عبد الله برز من السبت القابل في مقدمة السلطان أبي عمر، بمن معه من الجند المسلمين والنصارى، رامحة وناشبة. ووكل السلطان من جاذبه في الساقة على التعبية المحكمة. وناشبهم الحرب، فدلفوا إليه، فاستطردهم ليتمكن الناشبة من عقرهم من الأسوار، حتى فشت فيهم الجراحات. ثم صمم نحوهم، فانفرج القلب وانفضت الجموع. وزحف السلطان في الساقة، فانذعروا في الجهات. وافترق بنو مرين إلى مواطنهم. ولحق يحيى بن رحو بمراكش مع مبارك بن إبراهيم شيخ الخلط. ولحق عبد الحليم وإخوته بتازى بعد أن شهد لهم أهل المقام بصدق الجلاد وحسن البلاء في ذلك المجال وصابر عمر بن عبد الله أمره ينتظر قدوم محمد بن أبي عبد الرحمن، كما نذكره إن شاء الله تعالى.

الخبر عن قدوم محمد ابن الأمير أبي عبد الرحمن وبيعته بالبلد الجد يد في كفالة عمر بن عبد الله:

لما نبذ عمر إلى بني مرين عهدهم واعصوصبوا عليه، ونكروا ما جاء به من البيعة

لأبي عمر، مع فقده العقل الذي هو شرط الخلافة شرعاً وعادة ونقموه عليه، اتهم نفسه في نظره وفزع إلى التماس المرشحين، فوقع نظره على حافد السلطان أبي الحسن محمد ابن الأمير أبي عبد الرحمن النازع لأول دولة السلطان أبي سالم من رندة إلى الطاغية. وكان قد نزل منه بخير مثوى، فبعث إليه مولاه عتيقاً الخصي، ثم تلاه بعثمان ابن الياسمين، ثم تلاهما بالرئيس الأبكم من بني الأحمر، وفي كل ذلك يستحث قدومه.

وخاطب المخلوع ابن الأحمر وهو في جوار الطاغية كما قدمناه وقريب عهد بجوارهم،

فخاطبه في استحثاثه واستخلاصه من يد الطاغية. وكان المخلوع يرتاد لنفسه منزلاً من ثغور المسلمين، لما كان فسد بينه وبين الطاغية ورام النزوع عن إيالته، فاشترط على الوزير عمر النزول له عن رندة، فتقبل شرطه وبعث إليه الكتاب بالنزول عنها، بعد أن وضع الملأ عليه خطوطهم من بني مرين والخاصة والشرفاء، فسار ابن الأحمر إلى الطاغية. وسأل منه تسريح محمد هذا إلى ملكه وأن قبيله دعوه إلى ذلك، فسرحه بعد أن شرط عليه وكتب الكتاب بقبوله. وفصل من إشبيلية في شهر المحرم فاتح ثلاث وستين وسبعمائة. ونزل بسبتة وبها سعيد بن عثمان من قرابة عمر بن عبد الله. وأرصده لقدومه، فطير بالخبر إليه، فخلع أبا عمر من الملك وأنزله بداره مع حرمه. وبعث إلى السلطان أبي زيان محمد بالبيعة والآلة والفساطيط. ثم جهز عسكراً للقائه، فتلقوه بطنجة. وأغذ السير إلى الحضرة، فنزل منتصف شهر صفر بكدية العرائس. واضطرب معسكره بها، وتلقاه الوزير يومئذ وبايعه وأخرج فسطاطه، فاضطر به بمعسكره وتلوم السلطان هنالك ثلاثاً. ثم دخل في الرابعة إلى قصره واقتعد أريكته وتوح ملكه. وعمر مستبد عليه لا يكل إليه أمراً ولا نهياً. واستطال عند ذلك المنازعون أولاد علي كما نذكره إن شاء الله تعالى.

الخبر عن تجهيز السلطان عبد الحليم وإخوته إلى سجلماسة بعد الواقعة عليهم بمكناسة:

لما سمع عبد الحليم بقدوم محمد بن أبي عبد الرحمن من سبتة إلى فاس وهو بمكانه من تازى، سرح أخاه عبد المؤمن وعبد الرحمن ابن أخيه إلى اعتراضه، فانتهوا إلى مكناسة وخاموا عن لقائه. فلما دخل إلى البلد الجديد، أجلبوا بالغارة على النواحي وكثر العيث. وأجمع الوزير عمر على الخروج إليهم بالعسكر، فبرز في التعبية والآلة وبات بوادي النجا. ثم أصبح على تعبية وأغذ السير إلى مكناسة، فزحف إليه عبد المؤمن وابن أخيه عبد الرحمن في جموعهم، فجاولهم القتال ساعة، ثم صمد إليهم فدفعهم عن مكناسة. وانكشفوا فلحقوا بأخيهم السلطان عبد الحليم بتازى. ونزل الوزير عمر بساحة مكناسة وأوفد بالفتح على السلطان وكنت وافده إليه يومئذ، فعمت

البشرى واتصل السرور. وتهنأ السلطان ملكه وتودع من يومئذ سلطانه.

ولما

وصل عبد المؤمن إلى أخيه عبد الحليم بتازى مفلولاً، انفض معسكره ونزعوا عنه إلى فاس وذهب لوجهه هو وإخوانه مع وزيرهم السبيع بن محمد ومن كان معهم من العرب المعقل، فلحقوا بسجلماسة. وكان أهلها قد دخلوا في بيعتهم ودانوا بطاعتهم واستقروا بها. وجددوا رسم الملك والسلطان، إلى أن كان من خروجهم عنها، ما نذكره إن شاء الله تعالى.

الخبر عن قدوم عامر بن محمد ومسعود بن ماساي من مراكش وما كان من وزارة ابن ماساي واستبداد عامر بن محمد بمراكش:

كان السلطان أبو سالم، لما استقل بملك المغرب، استعمل على جباية المصامدة

وولاية مراكش محمد بن أبي العلاء بن أبي طلحة من أبناء العمال. وكان مطلعاً بها. ونافس الكثير من ذوي عامر فأحفظه ذلك. وربما تكررت سعايته في عامر عند السلطان ولم يقبل. ولما بلغ عامر خبر مهلك السلطان أبي سالم وقيام عمر بالأمر، وكانت بينهما خلة بيت محمد بن أبي العلاء، فتقبض عليه وامتحنه وقتله واستقل بأمر مراكش. وبعث إليه الوزير عمر بأبي الفضل ابن السلطان أبي سالم يعتده، لما توقع من حصار بني مرين إياه، أن يجلب به عامر عليهم ويستنقذه كما ذكرناه. ثم سرح مسعود بن ماساي كما ذكرناه. ولما أحاط بنو مرين بالبلد الجديد، جمع عامر من إليه من الجند والحشود وزحف بأبي الفضل ابن السلطان أبي سالم إلى أنفى، ونزل بوادي أم ربيع. ولما انفض جمعهم من على البلد الجديد، لحق به يحيى بن رحو وكان له صديقا ملاطفاً، فتنكر له توفية لعمر بن عبد الله وصاحبه مسعود. وبعثه إلى الجبل ولم يشهده الجمع، فذهب مغاضباً. ولحق بسجلماسة بالسلطان عبد الحليم. وهلك في بعض حروبه مع العرب. ولما انفض عبد المؤمن وأجفل عبد الحليم من تازى، ولحقوا بسجلماسة، واستوسق الأمر لعمر بن عبد الله، وفرغ من شأن المنازعين ومضايقتهم له، رجع إلى ما كان يؤمله من الاستظهار على أمره بمسعود بن رخو وإخوته وأقاربه، لمكان الصهر الذي بينهما، فاستقدمه للوزارة مرضاة لبني مرين لما كان عليه من استمالتهم لجميع المذاهب والإغضاء عفا نالوه به من

النكاية. وكان عامر بن محمد مجمعاً القدوم على السلطان، فقدم في صحابته ونزل من الدولة بخير

منزل. وعقد السلطان لمسعود بن رخو على وزارته بإشارة الوزير عمر وفاضطلع بها. ودفعه عمر إليها استنامة إليه وثقة بمكانه واستظهاراً بعصابته. وعقد مع عامر بن محمد الحلف على مقاسمة المغرب من تخم وادي أم ربيع، وجعل إمارة مراكش لأبي الفضل ابن السلطان أبي سالم إسعافاً بغرض عامر بن محمد في ذلك. وأصهر عامر إليهم في بنت مولانا السلطان أبي يحيى المتوفى عنها السلطان أبو الحسن، فحملوا أولياءها على العقد له عليها. وانكفأ راجعاً إلى مكان عمله بمراكش، يجر الدنيا وراءه عزا وثروة وتابعاً، لجمادى من سنة ثلاث وستين وسبعمائة. وصرف عمر عزيمته إلى تشريد عبد الحليم وأخيه من سجلماسة، كما نذكره إن شاء الله تعالى.

الخبر عن زحف الوزير عمر بن عبد الله إلي سجلماسة:

لما احتل عبد الحليم وإخوته بسجلماسة، اجتمع إليهم عرب المعقل بكافة حللهم. واقتضوا خراج البلاد، فوزعوه فيهم، وانتضوا على الطاعة رهنهم. وأقطعهم جهات المختص بأسرها واعصوصبوا عليه. واستحثه يحيى بن رحو ومن هناك من مشيخة بني مرين إلى النهوض للمغرب، فأجمع أمره على ذلك. وتدبر الوزير عمر أمره وخشي أن يضطرم جمره، فأجمع الحركة إليه. ونادى في الناس بالعطاء والصلة، فاجتمعوا إليه وبث العطاء فيهم. واعترض العساكر وأزاح العلل. وارتحل من ظاهر فاس في شعبان من سنة ثلاث وستين وسبعمائة وارتحل معه ظهيره مسعود بن ماساي، وبرز السلطان عبد الحليم إلى لقائهم. ولما تراءت الفئتان بتاغزوطت، عند فرج الجبل المفضي من تلول المغرب إلى الصحراء، هموا باللقاء. ثم تواقفوا أياماً وتمشت بينهم رجالات العرب في الصلح والتجافي لعبد الحليم عن سجلماسة تراث أبيه، فانعقد مسعود ما بينهما وافترقا. ورجع كل واحد منهما إلى عمله ومكانه من سلطانه. ودخل عمر والوزير مسعود إلى البلد الجديد في رمضان من سنته، وتلقاهما سلطانهما بأنواع المبرة والكرامة. ونزع الوزير محمد السبيع عن السلطان عبد الحليم

إلى الوزير عمر وسلطانه، فتقبل وحل محل الكرامة والردافة للوزارة واستقر كل بمكانه. وتودعوا أمرهم، إلى أن كان من خلع عبد المؤمن لأخيه عبد الحليم، ما نذكره إن شاء الله تعالى.

الخبر عن بيعة العرب لعبد المؤمن وخروج عبد الحليم إلي المشرق:

لما رجع عبد الحليم، بعد عقد السلم مع الوزير عمر، إلى سجلماسة واستقر بها.

وكان عرب المعقل من ذوي منصور فريقين: الأحلاف وأولاد حسين. وكانت سجلماسة وطناً للأحلاف وفي مجالاتهم فذ أول أمرهم ودخولهم المغرب. وكان من أولاد حسين في ممالأة الوزير عمر ما قدمناه، فكانت صاغية السلطان عبد الحليم إلى الأحلاف بسبب ذلك أكثر، فأسف ذلك أولاد حسين على الأحلاف وتجددت بينهما لذلك فتنة وتزاحفاً. وأخرج السلطان عبد الحليم أخاه عبد المؤمن لرقع ما بينهما من الخرق ولأمته، فلما قدم على أولاد حسين دعوه إلى البيعة والقيام بأمره، فأبى وأكرهوه عليها وبايعوه. وزحفوا إلى سجلماسة في صفر من سنة أربع وستين وستمائة. وبرز عبد الحليم إليهم في أوليائه من الأحلاف. وتواقفوا ملياً وعقلوا رواحلهم. ثم انكشف الأحلاف وانهزموا. وهلك يحبى بن رحو كبير المشيخة من بني مرين يومئذ في حربهم. وتغلبوا على سجلماسة، ودخل إليها عبد المؤمن وتخلى له أخوه عبد الحليم عن الأمر وخرج إلى المشرق لقضاء فرضه، فودعه وزوده بما أراد. وارتحل إلى الحج وقطع المفازة إلى بلد مالي من السودان. وصحب منها ركاب الحاج إلى مصر. ونزل على أميرها المتغلب على سلطانها يومئذ، وهو يلبغا الخاصكي وأنهى خبره إليه. وعرف بمقامه، فاستبلغ في تكريمه بما يناسب بيته وسلطانه. وقضى حجه وانصرف إلى المغرب، فهلك بقرب الإسكندرية سنة ست وستين وسبعمائة. واستمل عبد المؤمن بأمرسجلماسة، حتى كان من نهوض العساكر إليه، ما نذكره إن شاء الله تعالى.

الخبر عن نهوض ابن ماساي بالعساكر إلى سجلماسة واستيلائه عليها ولحاق عبد المؤمن بمراكش:

لما افترقت كلمة أولاد السلطان أبي عنان وخلع عبد المؤمن أخاه تطاولى الوزير
عمر إلى التغلب عليهم. ونزع إليه الأحلاف عدو أولاد حسين وشيعة عبد الحليم المخلوع، فجهز العساكر وبث العطاء وأزاح العلل. وسرح ظهيره مسعود بن ماساي إلى سجلماسة، فنهض إليها في ربيع من سنة أربع وستين وسبعمائة. وتلقاه الأحلاف بحللهم وناجعتهم، وأغذ السير ونزع الكثير من أولاد حسين إلى الوزير مسعود. وبعث عامر بن محمد عن عبد المؤمن، فرحل عن سجلماسة وتركها. ولحق بعامر، فتقبض عليه واعتقله بداره من جبل هنتاتة. ودخل الوزير مسعود إلى سجلماسة واستولى عليها. واقتلع منها جرثومة الشقاق باقتلاع دعوة أولاد أبي علي منها. وكر راجعاً إلى المغرب لشهرين من حركته، فاحتل بفاس إلى أن كان من خبره وانتقاضه على عمر وفساد ما بينهما ما نذكره إن شاء الله تعالى.

الخبر عن انتقاض عامر ثم انتقاض الوزير ابن ماساي علي أثره:

لما استقل عامر بالناحية الغربية من جبال المصامدة ومراكش وما إلى ذلك من الأعمال واستبد بها، ونصب لأمره أبا الفضل ابن السلطان أبي سالم واستوزر له واستكتب، وصارت كأنها دولة مستقلة، فصرف إليه النازعون من بني مرين على الدولة وجوه مفرهم ولجأوا إليه، فأجارهم على الدولة، واجتمع إليه منهم ملأ. وأشاروا عليه باستقدام عبد المؤمن وأنه أبلغ ترشيحاً من أبي الفضل بنسبه وقيامه على أمره وصاغية بني مرين إليه، فاستدعاه وأظهر لعمر أنه يروم بذلك مصلحته والمكر لعبد المؤمن. ونمي ذلك كله إلى عمر، فارتاب به. ونزع إليه آخراً من نزع السبيع بن موسى بن

إبراهيم الوزير. كان لعبد الحليم، فكشف عمر القناع في مطالبته وتجهيز العسكر إليه. واستراب بأهل ولايته. وعثر على كتاب من الوزير مسعود بن ماساي إليه يخالصه ويبذل له
النصيحة، فتقبض على حامله وأودعه السجن، فتنكر مسعود. وأغراه صحابته الملابسون له من بني مرين بالخروج ومنازعة عمر في الأمر. ووعدوه النصر منه، فاضطرب معسكره بالزيتون من خارج فاس، موريا بالنزعة إبان الربيع وزخرف الأرض في شهر رجب من سنة خمس وستين وسبعمائة. وبنى أصحابه الفساطيط في، معسكره، حتى إذا استوفوا جمعهم واعتزم على الخروج، ارتحل مجاهراً بالخلاف وعسكر بوادي النجا من كان يعده الخروج معه من بني مرين. ثم ارتحل إلى مكناسة. وكتب إلى عبد الرحمن بن علي أبي يفلوسن يستقدمه للبيعة، وكان بجهات تادلاً قد خرج بها بعد انصرافهم من سجلماسة، وتخلفه عن أخيه عبد المؤمن. وبعث عامر إليه بعثاً فهزموه ثم لحق ببني ونكاسن، فبعث إليه ابن ماساي وأصحابه، فقدم عليهم وبايعوه. وأخرج عمر سلطانه محمد بن أبي عبد الرحمن وعسكر بكدية العرائس. وبث العطاء وأزان العلل. ثم ارتحل إلى وادي النجا فبيته مسعود وقومه، فثبت هو ومعسكره في مراكزهم حتى إنجاب الظلام وفروا أمامهم، فاتبعوا آثارهم وانفض جمعهم. وبدا لهم ما لم يحتسبوه من أصفاق الناس على السلطان ووزيره عمر واعتصامهم بطاعته، فانذعروا.

ولحق مسعود بن ماساي بن رحو بتادلاً ولحق الأمير عبد الرحمن ببلاد بني ونكاسن.

ورجع عمر والسلطان إلى مكانهم من الحضرة. واستمال مشيخة بني مرين، فرجعوا إليه وعفا لهم عنها واستصلحهم. وتمسك أبو بكر بن حمامة بدعوة عبد الرحمن بن أبي يفلوسن وأقامها في نواحيه. وبايعه عليه موسى بن سيد الناس، من بني علي أهل جبل دبدو من بني ونكاسن، بما كان صهراً له. وخالفه قومه إلى الوزير عمر. وأغراه بالنهوض إلى أبي بكر بن حمامة، فنهض وغلبه على بلاده. واقتحم حصنه إيكلوان. وفر هو وصهره موسى

وفارقوا سلطانهم عبد الرحمن ونبذوا إليه عهده. ورجعوا إلى طاعة صاحب فاس، فلحق هو بتلمسان ونزل على السلطان أبي حمو.

فاستبلغ في تكريمه. ولحق وزيره مسعود بن ماساي بدبدة ونزل على أميره محمد بن زكدان صاحب ذلك الثغر. ثم بدا له في أمره، وداخل صاحب الثغر وبعث عن الأمير عبد الرحمن من تلمسان ليطارد به لفرصة ظنها في المغرب ينتهزها. وأبى عليه أبو حمو من ذلك، فركب مطية الفرار ولحق بابن ماساي وأصحابه، فنصبوه للأمر وأجلبوا على تازى. ونهض الوزير إليهم في العساكر واحتل بتازى. وتعرضوا للقائه، ففض جموعهم وردهم على أعقابهم إلى جبل دبدو. وسعى بينهم ونزمار بن عريف، ولي الدولة، في قبض عنانهم عن المنازعة والتجافي عن طلب الأمر، وأن يتحيزوا إلى الأندلس للجهاد، فأجاز عبد الرحمن بن أبي يفلوسن ووزيره ابن ماساي من غساسة، فاتح سبع وستين وسبعمائة. وخلا الجو من أجلابهم وعنادهم. ورجع الوزير إلى فاس واحتشد إلى مراكش، كما نذكره إن شاء الله تعالى.

الخبر عن نهوض الوزير عمر وسلطانه إلى مراكش:

لما فرغ عمر من شأن مسعود وعبد الرحمن بن أبي يفلوسن، صرف نظره إلى ناحية مراكش وانتزاء عامر بن محمد بها. وأجمع أمره على الحركة إليه، فأفاض العطاء ونادى بالسفر إلى حرب عامر وأزاح العلل، وارتحل إليه لرجب من سنة سبع وستين وسبعمائة. وصعد عامر وسلطانه أبو الفضل إلى الجبل، فاعتصم به وأطلق عبد المؤمن من معقله. ونصب له الآلة وأجلسه على سرير حذاء سرير أبى الفضل، يوهم أنه بايع له، وأنه قد حكم أمره يجأجىء بذلك لبني مرين، لما علم من صاغيتهم إليه. وخشي عمر مغبة ذلك، فألان له في القول ولاطفه في الخطاب وسعى بينهما في الصلح حسون بن علي الصبيحي، فعقد له عمر من ذلك ما ابتغاه، وانقلب إلى فاس. ورجع عامر عبد المؤمن إلى معتقله وأجرى الأحوال على ما كانت من قبل، إلى أن بلغهم قتل الوزير عمر لسلطانه، كما نذكره إن شاء الله تعالى.

الخبر عن مهلك السلطان محمد بن أبي عبد الرحمن وبيعة عبد العزيز ابن السلطان ابني الحسن:

كان شأن هذا الوزير عمر في الاستبداد على سلطانه محمد هذا عجباً، حتى بلغ
مبلغ الحجر للسفهاء من الصبيان. وقد جعل عليه العيون والرقباء حتى من حرمه وأهل قصره. وكان السلطان كثيراً ما يتنفس الصعداء من ذلك مع ندمائه ومن يختصه بذلك من حرمه، إلى أن حدث نفسه باغتيال الوزير. وأمر بذلك طائفة من العبدى كانوا يختصون به، فنمي القول. وأرسل به الوزير بعض الحرم كانوا عيناً له عليه، فخشيه على نفسه. وكان من الاستبداد والدالة، أن الحجاب مرفوع له عن خلوات السلطان وحرمه ومكاشفة رتبه، فخلص إليه في حشمه وهو معاقر لندمائه، فطردوهم عنه وتناولوه غطا حتى فاض، وألقوه في بئر بروض الغزلان. واستدعى الخاصة، فأراهم مكانه وأنه سقط عن دابته وهو
ثمل في تلك البئر، وذلك في المحرم فاتح ثمان وستين وسبعمائة. واستدعى من حينه عبد العزيز ابن السلطان أبي الحسن وكان في بعض الدور بالقصبة من فاس، تحت رقابة وحراسة من الوزير، لما كان السلطان محمد يروم الفتك به غيرة منه على الملك، لمكان ترشيحه، فحضر بالقصر وجلس على سرير الملك. وفتحت الأبواب لبني مرين والخاصة والعامة، فازدحموا على تقبيل يده معطين الصفقة على طاعته. وكمل أمره وبادر الوزير من حينه إلى تجهيز العساكر إلى مراكش. ونادى بالعطاء وفتح الديوان وكمل الاعتراض. وارتحل بسلطانه من فاس في شهر شعبان وأغذ السير إلى مراكش. ونازل عامر بن محمد بمعقله من جبل هنتاتة، ومعه الأمير أبو الفضل ابن السلطان أبي سالم وعبد المؤمن ابن السلطان أبي علي، أطلقه من الاعتقال أيضاً وأجلسه موازي ابن عمه، واتخذ له الآلة يموه به شأنه الأول ثم سعى بينه وبين عامر في الصلح، فانعقد بينهما وانكفأ راجعاً بسلطانه إلى فاس في شهر شوال، فكان حتفه إثر ذلك، كما نذكره إن شاء الله تعالى والله وأعلم.

الخبر عن مقتل الوزير عمر بن عبد الله واستبداد السلطان عبد العزيز بأمره:

كان عمر قد عظم استبداده على السلطان عبد العزيز، فحجره ومنعه من التصرف
في شيء من أمره. ومنع الناس من التعرض له في شيء من أمورهم. وكان أمه حذرة عليه إشفاقاً وحباً. وكان عمر لما ملك أمره واستبد عليهم سما إلى الإصهار إليهم في بنت السلطان أبي عنان. واشترط لها، زعموا تولية أخيها الأمير. ونمي ذلك إلى السلطان، وأن عم مغتاله لا محالة. وقارن ذلك أن عمر أوعز إلى السلطان بالتحول عن قصره إلى القصبة، فركب أسنة الغرر لاضطراره واعتزم على الفتك به. وأكمن بزوايا داره جماعة في الرجل وأعدهم للتوثب به. ثم استدعاه إلى بيته للمؤامرة معه على سنته، فدخل معه. وأغلق الموالي من الخصيان باب القصر من ورائه. ثم أغلظ له السلطان في القول وعتبه. ودلف الرجل إليه من زوايا الدار، فتناولوه بالسيوف هبراً. وصرخ ببطانته بحيث أسمعهم، فحملوا على الباب وكسروا أغلاقه، فألفوه مضرجاً بدمائه، فولوا الأدبار وانفضوا من القصر وانذعروا. وخرج السلطان إلى مجلسه، فاقتعد أريكته واستدعى خاصته. وعقد لعمر بن مسعود بن منديل بن حمامة من بني مرين وشعيب بن ميمون بن ودرار من الجشم ويحيى بن ميمون أمصمود من الموالي. وكملت بيعته منتصف ذي القعدة سنة ثمان وستين وسبعمائة. وتقبض على علي ابن الوزير عمر وأخيه وعمه وحاشيتهم وذويهم واعتقلهم حتى أتى القتل عليهم لليال. واستأصل النكال شأفتهم. وسكن وأمن ورد المنافرين بأمانه وبسط لهم في وجه بشره. ثم تقبض لأيام على سليمان بن داود ومحمد السبيع وكانا من مخالصة عمر بمكان، فاعتقلهما استرابة بهما ولشيء نمي له عنهما. وأودعهما السجن إلى أن هلك واعتقل معهما علال بن محمد والشريف أبا القاسم ريبة بصحابتهما. ثم امتن عليهما بشفاعة ابن الخطيب وزير ابن الأحمر وأقصاه. ثم أطلق عنانه في الاستبداد. وقبض أيدي الخاصة والبطانة عن التصرف في شيء من سلطانه إلا بإذنه وعن أمره. وهلك لأشهر من استبداده الوزير شعيب بن ميمون. ثم هلك يحيى بر ميمون. على ما نذكره إن شاء الله تعالى. والله أعلم.

الخبر عن انتزاء أبي الفضل ابن المولى أبي سالم ثم نهوض السلطان إليه ومهلكه:

لما فتك السلطان عبد العزيز بعمر بن عبد الله المتغلب عليه، سولت لأبي الفضل

ابن السلطان أبي سالم نفسه مثلها في عامر بن محمد، لمكان استبداده عليه، وأغراه بذلك بطانته. وتوجس لها عامر، فتمارض بداره. واستأذنه في، الصعود إلى معتصمه بالجبل ليمرضه هنالك حرمه وأقاربه، وارتحل بجملته. ويئس أبو الفضل من الاستمكان منه. وأغراه حشمه بالراحة من عبد المؤمن. ولليال من منصرف عامر، ثمل أبو الفصل ذات ليلة وبعث عن قائد الجند من النصارى، فأمره بقتل عبد المؤمن بمكان معتقله مر قصبة مراكش فجاء برأسه إليه. وطار الخبر إلى عامر، فارتاع وحمد الله أن خلص ص غائلته. وبعث ببيعته إلى السلطان عبد العزيز وأغراه بأبي الفضل ورغبه في ملك مراكش. ووعده بالمظاهرة، فأجمع السلطان أمره على النهوض إلى مراكش. ونادى في الناس بالعطاء وقضى أسباب حركته. وارتحل من فاس سنة تسع وستين وسبعمائة. واستبد أبو الفضل بعد مهلك عبد المؤمن. واستوزر طلحة السنوري وجعل علامته لمحمد بن محمد بن منديل الكناني وجعل شوراه لمبارك بن إبراهيم عطية الخلطي. ثم سخط طلحة التينوري بسعاية الكناني، فقتله واعتمد بعساكره منازلة عامر. ولما فصل لذلك عن مراكش جاءه الخبر بحركة السلطان عبد العزيز إليه، فانفض معسكره. ولحق بتادلا ليعتصم بها في معتقل بني جابر. وعاج السلطان عن مراكش بعساكره إليها، فنازله وأخذ بمخنقه وقاتله، ففل عسكره. وداخله بعض بني جابر في الإخلال بمصافه يوم الحرب مع مال بذله لهم، ففعلوا وانهزمت عساكر أبي الفضل وجموعه وتقبض على أشياعه. وسيق مبارك بن إبراهيم إلى السلطان، فاعتقله إلى أن قتله مع عامر عند مهلكه كما نذكره. وفر الكناني إلى حيث لم يعلم مسقطه. ثم لحق بعامر بن محمد، ولحق أبو الفضل بقبائل صناكة من ورائهم. وداخلهم أشياع السلطان من بني جابر وبذلوا لهم المال الدثر في إسلامه فأسلموه. وبعث السلطان إليهم وزيره يحيى بن ميمون، فجاء به أسيراً.

وأحضره السلطان، فوبخه وقرعه واعتقله بفسطاط في جواره، ثم غط من الليل. وكان مهلكه في رمضان من سنة تسع وستين وسبعمائة. وبعث السلطان إلى عامر يختبر طاعته بذلك، فأبى عليه. وجاهر بالخلاف، إلى أن كان من شأنه، ما نذكره إن شاء الله تعالى.

الخبر عن نكبة الوزير يحيي بن ميمون بن مصمود ومقتله:

كان يحيى بن ميمون هذا من رجالات دولتهم ورئي في دولة السلطان أبي الحسن

وكان عمه علال عدواً له لعداوة أبيه. ولما انتزى السلطان أبو عنان على ملك أبيه، استخلص يحيى هذا سائر أيامه، وهلك كما ذكرناه. واستعمل يحيى ببجاية، فلم يزل بها إلى أن نقبض عليه الموحدون، لما استخلصوا بجاية من يده. وصار إلى تونس واعتقل بها مدة. ثم صرفوه إلى المغرب أيام عمر، فاختص به. ولما عقد له السلطان عبد العزيز على وزارته وكان قوي الشكيمة شديد الحزم وصعب العداوة مرهف الحد، وكان عمه علال بعد أن أطلقه السلطان من الاعتقال مكنه من إذنه وأقامه متصرفاً بين يديه، فألقى إلى السلطان استبداد يحيى عليه وحذره من شأنه. ورفع إليه أنه يروم تحويل الدعوة لبعض القرابة من آل عبد الحق، وأنه داخل في ذلك قواد الجند من النصارى. وأصاب الوزير وجع قعد به عن مجلس السلطان، فاختلف الناس إلى زيارتة. وعكف ببابه قواد النصارى، فاستراب بأمرهم. وتيقن الأمر بعكوفهم، فأرسل السلطان من حشمه من تقبض عليه وأودعه السجن. ثم جنب إلى مصرعه من الغد وقتل قعصا بالرماح. وقتل المتهمون من القرابة وقواد الجند واستلحموا جميعاً وصاروا مثلاً في الآخرين. والأمر لله.

الخبر عن حركة السلطان إلى عامر بن محمد ومنازلته بجبله، ثم الظفر به:

لما فرغ السلطان من شأن أبي الفضل، عقد على مراكش لعلي بن محمد بن أجانا من

صنائع دولتهم. وأوعز إليه بالتضييق على عامر والأخذ بمخنقه وإلجائه إلى الطاعة. وانقلب إلى فاس واعتزم على الحركة إلى تلمسان. وبينما هو في الاستغفار كذلك إذ جاء الخبر بأن علي بن أجاناً نهض إلى عامر وحاصره أياماً. وأن عامراً زحف إليه، ففض معسكره. وتقبض على ابن أجاناً والكثير من العسكر، فاعتقلهم، فقام السلطان في ركائبه وقعد وأجمع أمره على النهوض إليه، بكافة بني مرين وأهل المغرب، فبعث في الحشود وبث العطاء. وعسكر بظاهر البلد، حتى استوفى الغرض وعقد على وزارته لأبي بكر بن غازي بن يحيى بن الكاس، لما كان فيه من مخايل الرياسة والكفاية، ورفع محله. وارتحل سنة سبعين وسبعمائة، فاحتل بمراكش، ثم خرج إلى منازلته وكان عامر بن محمد، قد نصب بعض الأعياص من آل عبد الحق، من ولد أبي ثابت بن يعقوب بن عبد الله، إسمه تاشفين. ولحق به علي بن عمر بن ويغلان من شيوخ بني ورتاجن، كبير بني مرين وصاحب الشورى فيهم لعهده، فاشتد أزره به. وتوافى به كثير من الجند النازعين عن السلطان، رهبة من بأسه أو سخطة بحاله أو رغبة فيما عند عامر قريبهم. وأمسك الله يده عن العطاء، فلم يسل بقطرة. وطال مثوى السلطان بساحته وعلى حصاره. وبؤأ المقاعد للمقاتلة، وغاداه بالقتال وراواحه. وتغلب على حصونه شيئاً فشيئاً، إلى أن تعلق بأعلى الجبل تامسكروط، وكان لأبي بكر بن غازي غناء مذكور، ويئس أصحاب عامر وأشياعه من عطائه. وفسد ما بينه وبين علي بن عمر هذا، فدس إلى السلطان بطلب الأمان ويتوثق لنفسه، ثم نزع إليه. وداخله فارس بن عبد العزيز ابن أخي عامر في القيام بدعوة السلطان والخلاف على عمه، لما كان يوسق به من إرهاف الحد وتفضيل ابنه أبي بكر عليه، فبلغ خبره إلى السلطان. واقتضى له وثيقة من الأمان والعهد به بها إليه، فثار بعمه. واستدعى القبائل من الجبل إلى طاعة السلطان فأجابوه. واستحث السلطان للزحف إليهم، فزحفت العساكر والجنود واستوت على معتصم الجبل. ولما استيقن عامر أن قد احيط به، أوعز إلى ابنه أن يلحق بالسلطان مموهاً بالنزوع، فألقى بنفسه إليه وبذل له

الأمان ولحقه بجملته. وانتبذ عامر عن الناس وذهب لوجهه، ليخلص إلى السوس، فرده الثلج وقد كانت السماء أرسلت به منذ أيام برداً وثلجاً، حتى تراكم بالجبل بعضه على بعض. وسد المسالك، فاقتحمه عامر وهلك فيه بعض حرمه ونفق مركوبه. وعاين الهلكة العاجلة، فرجع مخفياً أثره إلى غار أوى إليه مع أدلاء بذل لهم المال، ليسلكوا به ظهر الخبل إلى الصحراء بالسوس. وأقاموا ينتظرون إمساك الثلج. وأغرى السلطان بالبحث عنه، فدلهم عليه بعض البربر وعثروا عليه، فسيق إلى السلطان وأحضره بين يديه. ووبخه فاعتذر وبخع بالطاعة. ورغب في الإقالة واعترف بالذنب، فحمل إلى مضرب بني له وراء فسطاط السلطان، واعتقل هنالك. وتقبض يومئذ على محمد بن الكناني، فاعتقل. وانطلقت الأيدي على معاقل عامر وديارة، فانتهب من الأموال والسلاح والذخيرة والزرع والأقوات والخرثى ما لا عين رأت ولا خطر على قلب أحد منهم. واستولى السلطان على الجبل ومعاقله، في رمضان من سنة إحدى وسبعين وسبعمائة، لحول من يوم حصاره. وعقد على هنتاتة لفارس بن عبد العزيز بن محمد بن علي. وارتحل إلى فاس واحتل بها آخر رمضان. ودخلها في يوم مشهود برز فيه الناس. وحمل عامر وسلطانه تاشفين على جملين، وقد أفرغ عليهما الرث وعبثت بهما أيدي الإهانة، فكان ذلك عبرة لمن رآه. ولما قضى منسك الفطر أحضر عامراً، فقرعه بذنوبه. واوتي كتابه بخطه يخاطب به أبا حمو يستنجده على السلطان، فشهد عليه. وأمر السلطان، فامتحن ولم يزل يجلد حتى انتثر لحمه وضرب بالعصا حتى ورمت أعضاؤه، وهلك بين يدي الوزعة. واحضر الكناني، ففعل به مثله. وجنب تاشفين سلطانهم إلى مصرعه، فقتل قعصاً بالرماح. وجنب مبارك بن إبراهيم من محبسه بعد طول الاعتقال، فألحق بهم. ولكل أجل كتاب. وصفاً الجو للسلطان من المنازعين. وفرغ لغزو تلمسان كما نذكره إن شاء الله تعالى.

الخبر عن ارتجاع الجزيرة الخضراء:

قد تقدم لنا ذكر تغلب الطاغية الهنشة على الجزيرة، سنة ثلاث وأربعين وسبعمائة. وأنه نازل

إ بعدها جبل الفتح سنة إحدى وخمسين وسبعمائة. وهلك بالطاعون وهو محاصر له عندما استفحل أمره واشتدت شوكته، فكفى الله به شأنه. وولي أمر الجلالقة بعده ابنه

بطرة وعدا على سائر إخوته. وفر أخوه القمط، ابن حظية أبيه المسماة بلغتهم ألريق (بهمزة) إلى قمص برشلونة، فأجاره وأنزله خير نزل. ولحق به من الزعماء المركش ابن خالته وغيره من أقماصهم. وبعث إليه بطرة ملك قشتالة في إسلام أخيه، فأبى من إخفار جواره. وحدثت بينهما بسبب ذلك الفتنة الطويلة، افتتح بطرة فيها كثيراً من معاقل صاحب برشلونة وأوطأ عساكره نواحي أرضه، وحاصر بلنسية قاعدة شرق الأندلس مراراً، وأرجف عليها بعساكره، وملأ البحر إليها بأساطيله، إلى أن ثقلت على النصرانية وطأته وساءت فيهم ملكته، فانتقضوا عليه ودعوا القمط أخاه، فزحف إلى قرطبة. وثار على بطرة أهل إشبيلية، وتيقن صاغية النصارى إليه، ففر عن. ممالكه ولحق بملك الإفرنج وراء جليقية وفي الجوف عنها وهو صاحب أنكلطرة وإسمه ألفنس غالس. ووفد عليه صريخاً سنة سبع وستين وسبعمائة، فجمع قومه وخرج في صريخه إلى أن استولى على ممالكه. ورجع ملك الإفرنج، فعاد النصارى إلى شأنهم مع بطرة. وغلب القمط على سائر الممالك، فتحيز بطرة إلى ثغوره مما يلي بلاد المسلمين. ونادى صريخه بابن الأحمر، فانتهز فيها الفرصة. ودخل بعساكره المسلمين، فأثخن في أرض النصرانية وخرب معاقلهم ومدنهم: مثل أبدة وجيان وغيرهما من أمهات أمصارهم. ثم رجع إلى غرناطة، ولم تزل الفتنة قائمة بين بطرة وأخيه القمط، إلى أن غلبه القمط وقتله. وفي خلال هذه الفتن بقيت ثغورهم مما يلي أرض المسلمين عورة. وتشوف المسلمون إلى ارتجاع الجزيرة التي قرب عهدهم بانتظامها في ملكة المسلمين. وكان صاحب المغرب في شغل عن ذلك، بما كان فيه من انتقاض أبي الفضل ابن أخيه وعامر بن محمد، فراسل صاحب الأندلس في أن يزحف إليها بعساكره، على أن عليه عطاءهم وإمداده بالمال والأساطيل، وعلى أن يكون مثوبة جهادها خالصة له، فأجابه إلى ذلك، وبعث إليه أحمال المال. وأوعز إلى أساطيله بسبتة، فعمرت وأقلعت إلى مرسى الجزيرة لحصارها. وزحف ابن الأحمر بعساكر المسلمين على أثرها، بعد أن قسم فيهم العطاء وأزاح العلل واستعد الآلة للحصار، فنازلها أياماً قلائل. ثم أيقن النصارى بالهلكة لبعدهم عن الصريخ ويأسهم من مدد ملوكهم، فألقوا باليد وسألوا

النزول على حكم السلم، فأجابهم السلطان عليه. ونزلوا عن البلد وأقيمت فيها شعائر الإسلام

ومراسمه، ومحيت منها كلمة الكفر وطواغيته. وكتب الله أجرها لمن أخلص في معاملته وذلك سنة سبعين وسبعمائة. وولى ابن الأحمر عليها من قبله. ولم تزل لنظره إلى أن تمحض النظر عن هدمها خشية استيلاء النصرانية عليها، فهدمت أعوام ثمانين وسبعمائة وأصبحت خاوية كأن لم تغن بالأمس. والبقاء لله وحده.

الخبر عن حركة السلطان إلى تلمسان واستيلائه عليها وعلي سائر بلادها وفرار أبي حمو عنها.

كان عرب المعقل موطنين بصحراء المغرب من لدن السوس ودرعة تافليلالت وملوية وصا. وكان بنو منصور منهم أولاد حسين والأحلاف، مختصين بطاعة بني مرين وفي وطنهم. كانوا مغلبين للدولة وتحت قهر من سلطانها. ولما ارتجع بنو عبد الواد ملكهم بتلمسان على يد أبي حمو، وكان الاختلاف بالمغرب، عاث هؤلاء المعقل وأكثروا في الوطن الفساد. ولما استقلت الدولة من عثارها، تحيزوا إلى بني عبد الواد وأقطعوهم في أوطانهم. واستقروا هنالك من لدن نزوع عبد الله بن مسلم، العامل كان بدرعة، إلى أبي حمو ووزارته له. وفسد ما بين سلطان المغرب وبين أبي حمو من جراء ذلك. ونهض أبو حمو سنة ست وستين وسبعمائة إلى المغرب وعاث في نواحي دبدو ثغر المغرب فشبت لذلك نار العداوة بينه وبين صاحب الثغر محمد بن زكدان، فكان داعية لعداء صاحب المغرب علي الأيام. ولما استبد السلطان عبد العزيز وهلك عبد الله بن مسلم صاحبهم، وترددت الرسل بين أبي حمو وبين السلطان عبد العزيز، كان فيما اشترط عليه التجافي عن قبول المعقل عرب وطنه، لما فيه من الاستكثار بهم عليه. وأبى عليهم أبو حمو منها لاستظهاره بهم على زغبة من أهل وطنه وغيرهم. وكثر التلاحي في ذلك وأحفظ السلطان وهم بالنهوض إليه سنة سبعين وسبعمائة. وأقصر لما أخذ بحجرته من خلاف عامر. وصاحب الثغر محمد بن زكدان، أثناء ذلك يحرضه على الحركة إلى أبي حمو ويرغبه في ملك تلمسان. ولما قضى السلطان من حركة مراكش

وفرغ من شأن عامر ورجع إلى فاس، وافاه بها أبو بكر بن عريف أمير سويد في قومه من بني مالك بحللهم وناجعتهم، صريخاً على أبي حمو لما نال منهم.

وتقبض على أخيهم محمد ورؤساء بني مالك جزاء بما يعرف لهم ولسلفهم من ولاية صاحب المغرب. ووفد عليه معهم رسل أهل الجزائر ببيعتهم يستحثون السلطان لاستنقاذهم من لهواته. ووامر السلطان في ذلك وليه ونزمار بن عريد ومحمد بن زكدان صاحب دبدو، فزعموا له بالغناء في ذلك. واعتزم على النهوض إلى تلمسان وبعث الحاشرين إلى مراكش للاحتشاد. وتوافى الناس ببابه على طبقاتهم أيام منى من سنة إحدى وسبعين وسبعمائة. وأفاض العطاء وأزاح العلل ولما قضى منسك في الأضحى اعترض العساكر وارتحل إلى تلمسان، واحتل بتازى. وبلغ خبر نهوضه إلى أبي حمو، فجمع صت إليه من زناتة الشرق وبني عامر من عرب زغبة. وتوافت جموعه بساحة تلمسان وأضرب هنالك معسكره واستعرض جنوده واعتزم على الزحف إلى لقاء بني مرين، ثقة بمكان المعقل. وتحيز من كان معه من عرب المعقل الأحلاف وعبيد الله إلى السلطان عبد العزيز، بمداخلة وليهم ونزمار. واجتمعوا إليه وسرح معهم صنائعه، فارتحلوا بين يديه وسلكوا طريق الصحراء. وبلغ خبر تحيزهم وإقبالهم إلى أبي حمو، فأجفل هو وجنوده وأشياعه من بني عامر وسلكوا على البطحاء. ثم ارتحلوا عنها وعاجوا على منداس، وخرجوا إلى بلاد الديالم. ثم لحقوا بوطن رياح ونزلوا على أولاد سباع بن علي بن يحيى.

وارتحل السلطان عبد العزيز من تازى وقدم بين يديه وزيره أبا بكر بن غازي، فدخل تلمسان وملكها. ورحل السلطان على أثره واحتل بتلمسان يوم عاشوراء من سنة إثنتين وسبعين وسبعمائة، فدخلها في يوم مشهود واستولى عليها وعقد لوزيره أبي بكر بن غازي على العسكر من بني مرين والجنود والعرب من المعقل وسويد، وسرحه في أتباعهم، وجعل شوراه إلى وليه ونزمار وفوض إليه في ذلك. وارتحلوا من تلمسان آخر المحرم، وكنت وافداً على أبي حمو، فلما أجفل عن تلمسان ودعته وانصرفت إلى هنين للإجازة إلى الأندلس. ووشى بعض المفسدين عند السلطان بأني احتملت

مالا للأندلس، فبعث جريدة من عسكره للقبض علي. ووافوه بوادي الزيتون قبل

مدخلي إلى تلمسان فأحضرني وسألني. وتبين كذب الواشين، فأطلقني وخلع عليّ وحملني، ولما ارتحل الوزير في أتباع أبي حمو استدعاني وأمرني بالنهوض إلى رياح والقيام فيهم بطاعته وصرفهم عن طاعة أبي حمو وصريخه، فنهضت لذلك ولحقت بالوزير بالبطحاء وارتحلت معه إلى وادي وراك من بلاد العطاف، فودعته وذهبت لوجهي وجمعت رياح على طاعة السلطان، ونكبت بهم عن صريخ أبي حمو، فنكبوا عنه. وخرج أبو زيان من محل بؤرته بحصين، فلحق بأولاد محمد بن علي بن سباع من الزواودة. وارتحل أبو حمو من المسيلة، فنزل بالدوسن وتلوم بها. وأوفدت من الزواودة على الوزير ونزمار، فكانوا أدلاءهم في النهوض إليه. ووافوه بمكانه من الدوسن في معسكره من زناتة وحلل بني عامر، والوزير في التعبية. وأمم زناتة والعرب من المعقل وزغبة ورياح محدقة به، فأجهضوه عن ماله ومعسكره، فانتهب بأسره. واكتسحت أموال العرب الذين معه ونجا بدمه إلى مصاب. وتلاحق به ولده وقومه متفرقين على كل مفازة وتلوم الوزير بالدوسن أياماً. ووافاه هنالك إتحاف بن مزني وانقلب إلى المغرب. ومر على قصور بني عامر بالصحراء، فاستباحها وشردهم عنها إلى قاصية القفر ومفازة العطش. ولحق بتلمسان في ربيع الثاني.

ووفدت أنا بالزواودة على السلطان ورئيسهم أبو الدينار بن علي بن أحمد، فبر السلطان مقدمه ورعى له سوابقه عند أبيه، وخلع عليه وحمله. وخلع على الوفد كافة وانصرفوا إلى مواطنهم. وبعث السلطان عماله في الأمصار، وعقد لصنائعه على النواحي ،جهز الكتائب مع وزيره عمر بن مسعود بن منديل بن حمامة، لحصار حمزة بن علي بن راشد من آل ثابت بن منديل، كان ربي في حجر الدولة ونشأ في جو نعمتها وسخط حاله لديهم، فنزع إلى وطن سلفه من بلاد معراوة. ونزل بجبل بني بو سعيد، فأجاروه وبايعوه الموت دونه. وسرح السلطان وزيره إلى الأخذ بمخنقهم، فنزل عليهم وقاتلهم. امتنعوا في رأس شاهق لهم، فأوطن الوزير بالخميس من وادي شلف وأحجرهم بمعتصمهم. وتوافت لديه الأمداد من العساكر من تلمسان، فجهزها

كتائب وبوأهم المقاعد للحصار، وأقام هنالك. واستولى السلطان على سائر الوطن من الأمصار والأعمال، وعقد عليها. واستوسق له ملك المغرب الأوسط كما كان لسلفه. والملك بيد يؤنبه من يشاء من عباده.

الخبر عن اضطراب المغرب الأوسط ورجوع أبي زيان إلي تيطري وأجلاب العرب بأبى حمو علي تلمسان، إلي أن غلبهم السلطان جميعا علي الأمر واستوسق له الملك:

لما خلص أبو حمو من واقعة الدوسن هو وأحياء بني عامر وأشياعه لحقوا بالصحراء وابعدوا فيها عن قصورهم قبلة جبل راشد. ورجع الوزير ونزمار بن عريف بأحياء العرب من زغبة والمعقل. وكان السلطان لما احتل بتلمسان طلب العرب منه إطلاق أيديهم ما أقطعهم أبو حمو إياه من الوطن على الزبون والاعتزاز عليه، فاستنكف من ذلك سلطانه واستبداد ملكه، فسخطوا أحواله ورجوا أن يكون لأبي حمو ظهور ينالون به .. فلما انهزم وفلت عساكره، وظهر السلطان ظهوراً لا كفاء له، فيئسوا. وأزمع بن منصور بن يعقوب أمير الخوارج من عبيد الله إحدى بطون المعقل الخروج على السلطان. ولما خرج العرب إلى مشاتيهم لحق بأبي حمو وأحياء بني عامر وكاثرهم إلى العيث في الأوطان. وأجلبوا على ممالك السلطان، ونازلوا وجدة في رجب

من سنة إثنتين وسبعين وسبعمائة. وصمد نحوهم العساكر من تلمسان، فأجفلوا وعادوا إلى البطحاء واكتسحوا أوطانهم. ونهض إليهم الوزير في العساكر، ففروا أمامه واتبع آثارهم إلى أن أصحروا. واستنسر خلال ذلك بغاث حمزة بن علي بن راشد، فبيت معسكر الوزير بمكانه من حصاره بشلف، ففض جموعه ولحق مفلولاً بالبطحاء. وبلغ الخبر إلى حصين وكانوا راهبين من السلطان، لما اشتهر عنهم من الخلاف على الدول والقيام بأمر الخوارج فجأجئوا بأبي زئان، الثائر كان عندهم من مكانه بأحياء أولاد يحيى بن علي بن سباع من الزواودة، فلحق بهم وأجلبوا على ضواحي المدية، ونازلوا عسكر السلطان بها. واضطرم المغرب الأوسط نازلاً، واتصل ذلك مدة. ولما كانت سنة ثلاث وسبعين

وسبعمائة، واستمال السلطان رخو بن منصور عن أبي حمو وبذل له مالاً وأقطعه ما أحب من الضواحي، وفعل ذلك بسائرهم وملأ صدورهم ترغيباً. واعتزم على تجهيز العساكر معهم لحسم أدواء الفساد وإخراج الثوار من النواحي. واتهم وزيره عمر بن مسعود بالمداهنة في أمر المغراوي، فسرح من ذويه من تقبض عليه وأشخصه إلى حضرته مقيداً، واعتقله بفاس. وجهز عساكره واعترض جنوده، وعقد لوزيره أبي بكر بن غازي على حراب الثوار والخوارج، فنهض من تلمسان في رجب من سنة ثلاث وسبعين وسبعمائة. واعتمد حمزة بن علي بن راشد في معتصمه بجبل بني بوسعيد، وألح عليهم بالقتال، فعضتهم الحرب بنابها وداخلهم الرعب وأوفدوا مشيختهم على الوزير بالطاعة. ونبذ العهد إلى حمزة، فعقد لهم ما ابتغوه. ولحق حمزة بأبي زيان بمكانه من حصين. ثم أثنى عزمه عن ذلك ورجع إلى ضواحي شلف. وبيته بعض الحامية بتيمروغت، فثبتوا في مراكزهم وانفض جمعه وتقبض عليه وسيق إلى الوزير، فاعتقله. وبعث إلى السلطان في شأنه، فأمر بقتله، فاحتز رأسه ورؤوس أشياعه وبعث بهم إلى السلطان وعلق أشلاءهم بأسوار مليانه. ثم زحف إلى حصين، فأحجرهم بمعقلهم بتيطرا. واجتمعت إليه أحياء زغبة كافة. فأحاط بهم من كل جانب وطاولهم الحصار وغاداهم الحرب وخاطبني السلطان بمكاني من الزاب، وأوعز إلي بنفير رياح كافة إلى معسكر الوزير، فاستنفرتهم بأحيائهم وناجعتهم. ونازلنا الجليل من جانب الصحراء مما يلي ضواحي رياح، فأصابهم الجهد وداخلهم الرعب وانفضوا من المعقل وانذعروا في الجهات في المحرم فاتح أربع وسبعين وسبعمائة ولحق أبو زيان بواركلي، واستولى الوزير على المعقل وانتهب ما فيه. واقتضى

رهن حصين على الطاعة وقرر عليهم الوضائع والمغارم، فأعطوها عن يد. وكان أبو حمو في خلال ذلك قد أجلب على تلمسان ينتهز فرصة في انتباذ العساكر عن السلطان. وكان وليه خالد بن عامر أمير بني عامر من زغبة مريد الطاعة لما اتهم أبو حمو به بولاية رديفه عبد الله بن عسكر بن معرف دونه، فأسخطه ذلك وداخل السلطان عبد العزيز في الانحراف إليه عن أبي

حمو على مال إليه، فنزع عنه. وجهز له السلطان عسكرا لحرب أبي حمو وأشياعه في ذي القعدة سنة ثلاث وسبعين وسبعمائة من

بني عامر وأولاد يغمور من المعقل، وعقد عليهم لمحمد بن عثمان من قرابة أبي بكر بن غازي. وتعرضوا للقائهم، فانفض جمعهم ومنحوا أكتافهم. وأحيط بمعسكر أبي حمو وحلل العرب، فاكتسح ما فبها واستولى بنو مرين على أمواله وحرمه وولده، فاستاقوهم إلى السلطان، وأشخصهم إلى فاس فأنزلهم بقصوره. وتقبض على مولاه عطية بن موسى صاحب شلف، فامتن عليه وألحقه بجملته. ونجا أبو حمو وألقى بنفسه إلى عبد الله بن صغير مستميتاً، فامتن عليه، وبعث معه الأدلاء إلى تيكورارين من بلاد القبلة، فنزلها، وكان ذلك بين يدي فتح تيطرى بليال. واستوت قدم السلطان في ملكه واستولى على المغرب الأوسط، ودفع الثوار والخوارج عنه. واستمال كافة العرب إلى طاعته، فأتوها راغبين وراهبين. ووفد عليه الوزير أبو بكر بن غازي من قاصية الشرق ومعه مشيخة العرب من كل حيّ من أحيائهم فوصلهم واحتفى بقدومهم، وركب للقاء الوزير وطلب المشيخة في الرهن على الطاعة والإستحثاث لترشيد أبي حموّ من تيكورارين، وأوسع حفايتهم وبرّهم وانصرفوا إلى مشاتيهم معتملين في أسباب الحركة إلى تيكورارين إلى أن كان ما نذكره إن شاء الله تعالى .

الخبر عن قدوم ابن الخطيب على السلطان بتلمسان نازعاً إليه من سلطانه ابن الأحمر صاحب الأندلس:

أصل هذا الرجل من لوشة على مرحلة من غرناطة في الشمال من البسيط الذي في ساحتها المسمّى بالمرج على وادي سنجيل، ويقال شنبيل، المنحرف في ذلك البسيط من الجنوب إلى الشمال، كان له بها سلف معروفون في وزراتها. وانتقل أبو عبد الله إلى غرناطة واستخدم لملوك بني، الأحمر، واستعمل على مخازن الطعام. ونشأ ابنه محمد هذا بغرناطة وقرأ وتأدب على مشيختها، واختص بصحبة الحكيم المشهور يحيى بن هذيل، وأخذ عنه العلوم الفلسفية، وبرز في الطب وانتحل الأدب، وأخذ عن أشياخه وامتلأ من حوض السلطان من نظمه ونثره، مع انتقاء الجيّد منه. وبلغ في الشعر والترسل بحيث لا بجارى فيهما. وامتدح السلطان أبا الحجّاج من ملوك بني الأحمر لعصره، وملأ الدولة بمدايحه وانتشرت في الآفاق قدماه، فرقّاه السلطان إلى خدمته وأثبته في

ديوان الكتّاب ببابه مرؤوساً بأبي الحسن بن الجياب شيخ العدوتين في النظم والنثر وسائر العلوم الأدبية. وكاتب السلطان بغرناطة من لدن أيام محمد المخلوع من سلفه، عندما قتل وزيره محمد بن الحكيم المستبدّ عليه كما مرّ في أخبارهم. فاستبدّ ابن الجياب برياسة الكتّاب من يومئذ، إلى أن هلك في الطاعون الجارف سنة تسع وأربعين وسبعماية، فولّى السلطان أبو الحجّاج يومئذ محمد بن الخطيب هذا رياسة الكتاب ببابه، مثّناة بالوزارة. ولقبه بها، فاستقلّ بذلك. وصدرت عنه غرائب من الترسل في مكاتبات جيرانهم من ملوك العدوة. ثم داخله السلطان في تولية العمّال على يده بالمشارطات، فجمع له بها أموالاً وبلغ به المخالصة إلى حيث لم يبلغ بأحد ممن قبله. وسفر عنه إلى السلطان أبي عنان ملك بني مرين بالعدوة مقرباً بأبيه السلطان أبي الحسن فجلّى في أغراض سفارته.

ثم هلك السلطان أبو الحجّاج سنة خمس وخمسين وسبعمائة عدا عليه بعض الزعانف يوم

الفطر بالمسجد في سجوده للصلاة، وطعنه فأشواه وفاض لوقته، وتعاورت سيوف الموالي المعلوجي هذا القاتل فمزقوه أشلاء. وبويع ابنه محمد بالأمر لوقته. وأقام بأمره مولاهم رضوان الراسخ القدم في قيادة عساكرهم وكفالة الأصاغر من ملوكهم واستبدّ بالدولة. وأفرد ابن الخطيب بوزارته كما كان لأبيه، واتخذ لكتابته غيره. وجعل ابن الخطيب رديفاً له في أمره وتشاركا في الاستبداد معاً، فجرت الدولة على أحسن حال وأقوم طريقة. ثم بعثوا الوزير ابن الخطيب سفيراً إلى السلطان أبي عنان مستمدّين له على عدوّهم الطاغية على عادتهم مع سلفه. فلمّا قدم على السلطان ومثل بين يديه، تقدّم الوفد الذين معه من وزراء الأندلس وفقهائها واستأذنه في إنشاد شيء من الشعر يقدّمه بين يدي نجواه، فأذن له وأنشد وهو قائم:

خليفةَ الله ساعد القـــــدَر ... ُعُلاك ما لاح في الدُجى قمرُ

ودافعت عنك كفّ قدرتـــه ... ما ليس يستطيعُ دَفْعَهُ البشرُ

#وَجهُك في النائبات بدرُدُجـــى ... لنا وفي المُحْل كفّك المَطَرُ

والناسُ طرّاً بأرضِ أنْدَلُـــسٍ ... لولاك ما أوطِنوا ولا عَمُروا

وجُملةُ الأمر أنه وطـــــن في غير علياك ماله وَطَرُ
ومن به مذ وصلت حبلهـــم ما جحدوا نعمةً ولا كفروا
وقد أهَمتهُم نفوسُهُـــــم فوجهوني إليك وانتظروا

فاهتزّ السلطان لهذه الأبيات وأذن له في الجلوس. وقال له قبل أن يجلس: ما ترجع إليهم إلاّ بجميع طلباتهم. ثم أثقل كاهلهم بالإحسانه وردّهم بجميع ما طلبوه. وقال لي شيخنا القاضي أبو القاسم الشريف، وكان معه في ذلك الوفد: لم يسمع بسفير قضى سفارته قبل أن يسلّم على السلطان إلاّ هذا. ومكثت دولتهم هذه بالأندلس خمس سنين. ثم ثار بهم محمد الرئيس ابن عم السلطان، يشاركه في جدّه الرئيس أبي سعيد. وتحيّن خروج السلطان إلى متنزهه خارج الحمراء. وتسوّر دار الملك المعروفة بالحمراء وكبس رضواناً في بيته، فقتله. وذهب للملك اسماعيل ابن السلطان أبي الحجّاج، لما كان صهره على شقيقته. وكان معتقلاً بالحمراء، فأخرجه وبايع له وقام بأمره مستبداً عليه. وأحسّ السلطان محمد بقرع الطبول وهو بالبستان، فركب بادياً إلى وادي آش وضبطها. وبعث بالخبر إلى السلطان أبي سالم إثر ما استولى على ملك آبائه بالمغرب. وقد كان مثواه أيام أخيه أبي عنان عندهم بالأندلس. واعتقل الرئيس القائم بالدولة هذا الوزير ابن الخطيب وضيّق عليه في محبسه. وكانت بينه وبين الخطيب ابن مرزوق مودّة استحكمت أيام مقامه بالأندلس كما مرّ. وكان غالباً على هوى السلطان أبي سالم، فزيّن له استدعاء هذا السلطان المخلوع من وادي آش يعده زبونا على أهل الأندلس، ويكفّ به عادية القرابة المرشّحين هنالك متى طمحوا إلى ملك المغرب، فقبل ذلك منه. وخاطب أهل الأندلس في تسهيل طريقه من وادي آش إليه. وبعث من أهل مجلسه الشريف أبا القاسم التلمساني، وحمله مع ذلك الشفاعة في ابن الخطيب. وحل معتقله، فانطلق وصحب الشريف أبا القاسم إلى وادي آش وسار في ركاب السلطان. وقدموا على السلطان أبي سالم فاهتّز لقدوم ابن الأحمر وركب في موكب لتلقّيه وأجلسه إزاء كرسيّه. وأنشد ابن الخطيب قصيدته كما مرّ يستصرخ السلطان لنصره فوعده وقد

كان يوماً مشهوداً، وقد مرّ ذكره. ثم أكرم مثواه وأرغد نُزُله، ووفّر أرزاق القادمين في ركابه وانتظر به، وأرغد عيش ابن الخطيب في الجراية والأقطاع. ثم استأنس واستأذن السلطان في التحوّل إلى جهات مراكش والوقوف على آثار الملك بها، فأذن له وكتب إلى العمّال بإتحافه، فتبادروا في ذلك، وحصر منه على حظّ. وعندما مرّ بسلا في قفوله من سفره. دخل مقبرة الملوك بشالة، ووقف على قبر السلطان أبي الحسن وأنشد قصيدته على رويّ الراء الموصلة يرثيه ويستثير به في استرجاع ضياعه بغرناطة ومطلعها:

إن بان منزلهُ وشطّـــت داره قامت مقام عيانه أخبارُهُ

قسِّم زمانك غيرةً أو عبـــرةً هذا ثراه وهذه آثــارُهُ

فكتب السلطان أبو سالم في ذلك إلى أهل الأندلس بالشفاعة، فشفعوه. واستقرّ هو بسلا منتبذاً عن سلطانه طول مقامته بالعدوة. ثم عاد السلطان محمد المخلوع إلى ملكه بالأندلس سنة ثلاث وستين كما مرّ في أخباره. وبعث عن مخلّفه بفاس من الأهل والولد القائم بالدولة يومئذ عمر بن عبد الله بن علي، فاستقدم ابن الخطيب من سلا وبعثهم لنظره. فسرّ السلطان بقدومه ورده إلى منزلته، كما كان مع رضوان كافله. وكان عثمان بن يحيى عمر شيخ الغزاة وابن أشياخهم، قد لحق بالطاغية في ركاب أبيه عندما أحسّ بالشرّ من الرئيس صاحب غرناطة. وأجاز يحيى من هنالك إلى العدوة، وأقام عثمان بدار الحرب، فصحب السلطان في مثوى اغترابه هنالك، وتغلب في مذاهب خدمته. وانحرفوا عن الطاغية بعدما يئسوا من الفتح على يديه، فتحوّلوا عنه إلى ثغور بلاده. وخاطبوا عمر بن عبد الله في أن يمكّنهم من بعض الثغور الغربية التي أطاعتهم بالأندلس، يرتقبون منها الفتح. وخاطبني السلطان المخلوع في ذلك، وكانت بيني وبين عمر بن عبد الله ذمّة مرعيّة ومخالصة متأكدة، فوفيت للسلطان بذلك من عمر بن عبد الله. وحملته على أن يردّ عليه مدينة رندة إذ هي من تراث سلفه، فقبل إشارتي في ذلك. وتسوّرها السلطان المخلوع ونزل بها، وعثمان بن يحيى في جملته، وهو المقدم في بطانته.

ثم غزوا منها مالقة، فكانت ركاباً للفتح. وملكها السلطان واستولى بعدها على دار

ملكها بغرناطة، وعثمان بن يحيى متقدّم القوم في الدولة عريق في المخالصة، وله على السلطان دالة واستبداد على هواه. فلما فصل ابن الخطيب بأهل السلطان وولده، وأعاده السلطان إلى مكانه في الدولة من علّو يده وقبول إشارته، فأدركته الغيرة من عثمان ونكر على السلطان الاستكفاء به، والتخوّف من هؤلاء الأعياص على ملكه، فحذره السلطان وأخذ في التدبير عليه حتى نكبه وأباه وإخوته في رمضان سنة أربع وستين، وأودعهم المطبق. ثم غرّبهم بعد ذلك، وخلا لابن الخطيب الجوّ وغلب على هوى السلطان ودفع إليه تدبير المملكة، وخلط بينه بندمائه وأهل خلوته. وانفرد ابن الخطيب بالحلّ والعقد وانصرفت إليه الوجوه وعلقت عليه الآمال، وغشي بابه الخاصّة والكافّة، وغصّت به بطانة السلطان وحاشيته، فتوافقوا على السعايه فيه، وقد صمَّ السلطان عن قبولها. ونمي الخبر بذلك إلى ابن الخطيب، فشمّر عن ساعده في التقويض عنهم. واستخدم للسلطان عبد العزيز ابن السلطان أبي الحسن ملك العدوة يومئذ قي القبّض على ابن عمّه عبد الرحمن بن أبي يفلوسن ابن السلطان أبي علي، كانوا قد نصّبوه شيخاً على الغزاة في الأندلس، لما أجاز من العدوة، بعد ما جاس خلالها لطلب الملك، وأضرم بها نار الفتنة في كل ناحية وأحسن دفاعه الوزير عمر بن عبد الله، القائم حينئذ بدولة بني مرين، فاضطّرب إلى الإجازة إلى الأندلس، فأجاز هو ووزيره مسعود بن ماسي ونزلوا على السلطان المخلوع أعوام سبع وستين وبعمائة، فأكرم نزلهم. وتوفي علي بن بدر الدين شيخ الغزاة، فقدم عبد الرحمن مكانه. وكان السلطان عبد العزيز قد استبدّ بملكه بعد قتله الوزير عمر بن عبد الله، فغصّ بما فعله السلطان المخلوع من ذلك. وتوقّع انتقاض أمره منهم. ووقف على مخاطبات ابن عبد الرحمن يسرّ بها في بني مرين، فجزع لذلك. وداخله ابن الخطيب في اعتقال ابن أبي يفلوسن وابن ماساي واراحة نفسه من شغبهم، على أن يكون له المكان من دولته متى نزع إليه، فأجابه إلى ذلك وكتب له العهد بخطه، على يد سفيره إلى الأندلس وكاتبه أبي يحيى بن أبي مدين. بني مرين وأغرى ابن الخطيب سلطانه بالقبض على ابن أبي

يفلوسن وابن ماساي، فتقّبض عليهما واعتقلهما. وفي خلال ذلك استحكمت نفرة ابن الخطيب لما بلغه عن البطانة من القدح فيه والسعاية. وربّما خيّل له أن السلطان مال إلى قبولها وأنهم قد

أحفظوه عليه، فأجمع التحول عن الأندلس إلى المغرب. واستأذن السلطان في تفقد الثغور الغربية. وسار إليها في لمّة من فرسانه، ومعه ابنه عليّ الذي كان خالصة السلطان وذهب لطبنة. فلما حاذى جبل الفتح، فرضة المجاز إلى العدوة، مال إليه وسرّح إذنه بين يديه، فخرج قائد الجبل لتلقّيه. وقد كان السلطان عبد العزيز أوعز إليه بذلك وجهّز إليه الأسطول من حينه، فأجاز إلى سبتة. وتلقّاه بها بأنواع التكرمة وامتثال المراسيم. ثم سار لقصد السلطان، فقدم عليه سنة ثلاث وسبعين وسبعمائة بمقامته من تلمسان، فاهتزّت له الدولة. وأركب السلطان خاصّته لتلقّيه وأحلّه من بمجلسه محل الأمن والغبطة، ومن دولته بمكان البنوة والعزّة. وأخرج لوقته كاتبه أبا يحيى بن مدين سفيراً إلى صاحب الأندلس في طلب أهله وولده، فجاء بهم على أكمل حالات من الأمن والتكرمة. ثم لغط المنافسون له في شأنه وأغروا السلطان بتتبع عثراته وأبدى ما كان كامناً في نفسه من سقطات دالته وإحصاء معائبه. وشاع على ألسنة أعدائه كلمات منسوبة إلى الزندقة أحصوها عليه ونسبوها إليه. ورفعت إلى قاضي الحضرة أبي الحسن ابن أبي الحسن، فاستردها وسجّل عليه بالزندقة. وراجع صاحب الأندلس رأيه فيه. وبعث القاضي ابن الحسن إلى السلطان عبد العزيز في الانتقام منه بتلك السجلات وامضاء حكم الله فيه، فصمّ لذلك وأنف لذمته أن تخفر ولجواره أن يرد وقال لهم: هلا انتقمتم وهو عندكم وأنتم عالمون بما كان عليه؟ وأما أنا فلا يخلص إليه بذلك أحد ما كان في جواري. ثم وفّر الجراية والإقطاع له ولبنيه ولمن جاء من فرسان الأندلس في جملته. فلمّا هلك السلطان عبد العزيز سنة أربع وسبعين ورجع بنو مرين إلى المغرب وتركوا تلمسان، سار هو في ركاب الوزير أبي بكر بن غازي القائم بالدولة، فنزل بفاس واستكثر من شراء الضياع وتأنق في بناء المساكن واغتراس الجنات. وحفظ عليه القائم بالدولة الرسوم التي رسمها له السلطان المتوفي. واتصلت حاله على ذلك، إلى أن كان ما نذكره إن شاء الله تعالى.

الخبر عن مهلك السلطان عبد العزيز وبيعة ابنه السعيد واستبداد أبي بكر بن غازي عليه ورجوع بني مرين إلي المغرب:

كان السلطان منذ أوّل نشأته قد أزمنت به الحمى بما أصابه من مرض النحول، ولأجل ذلك تجافى السلطان أبو سالم عن احتماله مع الأبناء إلى رندة. ولما شبّ أفاق من مرضه وصلح بدنه. ثم عاوده وجعه في مثواه بتلمسان وتزايد نحوله. ولما كمل الفتح واستفحل سلطانه اشتدّ به الوجع وصابر المرض، وكتمه عن الناس خشية الإرجاف، واضطرب معسكره خارج تلمسان للحاق بالمغرب. ولما كانت ليلة الثاني والعشرين من ربيع الاخر سنة أربع وسبعين وسبعمائة قضى متودعاً بين أهله وولده ودسّ الخدم بالخبر إلى الوزير، فخرج على الناس وقد احتمل محمد السعيد ابن السلطات على كنفه فعزّى الناس عن خليفتهم لسبع سنين من خلافته، وألقى ابنه بين أيديهم، فازدحموا عليه باكين متفجّعين، يعطونه الصفقة ويقبّلون يده للبيعة، وأخرجوه إلى المعسكر. ثم أخرج الوزير شلو السلطان على أعواده وأنزله بفساطيطه، وأيقظ بالليل بحراسة المعسكر. وأذن في للناس بالرحيل، فخرجوا أفواجاً إلى المحلة. ثم ارتحلوا لثلاث وأغذّوا السير إلى المغرب واحتلوا بتازى. ثم أغذّوا السير إلى فاس. واحتلّ ابن السلطان بدار ملكه وجلس للبيعة العامّة بقصره. وتوافت وفود الأمصار ببيعاتهم على العادة. واستبدّ عليه الوزير أبو بكر بن غازي، وحجبه بقصره وحجره عن التصرف في شيء من سلطانه، ولم يكن في سنّ التصرف. واستعمل على الجهات وجلس بمجلس الفضل. واشتغل بأمر المغرب إبراماً ونقضاً، إلى أن كان ما نذكره إن شاء الله تعالى .

الخبر عن استيلاء أبي حموّ علي تلمسان والمغرب الأوسط:

لما فصل بنو مرين من تلمسان إثر مهلك السلطان عبد العزيز واحتلوا بتازى اجتمع المشيخة وعقدوا على تلمسان لإبراهيم بن السلطان أبي تاشفين، كان ربي في كفالة

دولتهم منذ مهلك أبيه، فآثروه بذلك لخلوصته. وبعثوه مع رحّو بن منصور أمير عبيد الله من المعقل وسرّحوا معهما من كان بالمغرب من مغراوة إلى وطن ملكهم بشلف. وعقدوا عليهم لعليّ بن هارون بن منديل بن عبد الرحمن وأخيه رحمون وانصرفوا إلى بلادهم. وكان عطية بن موسى مولى أبي حمّو قد صار إلى السلطان عبد العزيز، فألحقه بجملته وبطانته. فلمّا هلك السلطان، خرج من القصر واختفى بالبلد، حتى إذا فصل بنو مرين من معسكرهم ظاهر البلد، خرج من مكان اختفائه وقام بدعوة مولاه أبي حموّ. واجتمع إليه شيعه من أهل البلد مع من تأشّب إليه من الغوغاء. وحملوا الخاصة على البيعة لأبي حمّو، وصلهم إبراهيم بن أبي تاشفين مع رحّو بن منصور وقومه من عبيد الله، فنبذوه وامتنعوا عليه، فرجع عنهم إلى المغرب. وطيّر أولاد يعمور أولياء أبي حمّو من عبيد الله بالخبر إليه وهو بمثواه من تيكورارين. واتصل بابنه أبي تاشفين وهو عند يحيي ابن عامر، فدخل إلى تلمسان ودخلها ومن معه من بني عبد الواد. وتساقط إليه فلّهم من كل جانب. ووصل السلطان على أثرهم بعد اليأس منه، فدخلها في جمادى من سنة أربع وسبعين وسبعمائة واستقل بملكه. وتقبّض على بطانته الذين آسفوه في اغترابه، ونمي له عنهم السعي عليه، فقتلهم ورجع ملك بني عبد الواد وسلطانهم ونهض إلى مغراوة أولياء بني مرين بمكانهم من شلف، فغلبهم عليه بعد مطاولة وحروب سجال، هلك فيها رحمون بن هارون. ومحا دعوة بني مرين من ضواحي المغرب الأوسط وأمصاره، واستقلّ بالأمر حسبما ذكرناه في أخباره. واتصل الخبر بالوزير أبي بكر بن غازي فهمّ بالنهوض إليه، ثم ثنى عزمه ما كان من خروج الأمير عبد الرحمن بناحية بطوية فشغله شأنه عن ذلك.

الخبر عن إجازة الأمير عبد الرحمن بن أبي يفلوسن إلى المغرب واجتماع بطوية إليه وقيامهم بشأنه:

كان محمد المخلوع بن الأحمر قد رجع من رندة إلى ملكه بغرناطة في جمادى من سنة

ثلاث وستين وسبعمائة وقتل له الطاغية عدوّه الرئيس المنتزي على ملكه حين هرب من غرناطة إليه، وفاء بعهد المخلوع، واستوى على كرسّيه واستقلّ بملكه. ولحق به كاتبه وكاتب أبيه محمد بن الخطيب واستخلصه وعقد له على وزارته، وفوّض إليه في القيام بملكه، فاستولى عليه وملك هواه. وكانت عينه ممتدّة إلى المغرب وسكناه إلى أن نزلت به آفة في رياسته، فكان لذلك يقدم السوابق والوسائل عند ملوكه. وكان لابناء السلطان أبي الحسن كلّهم غيرة على ولد عمّهم السلطان أبي عليّ ويخشونهم على أمرهم. ولمّا لحق الأمير عبد الرحمن بالأندلس اصطفاه ابن الخطيب واستخلصه لنجواه، ورفع في الدولة رتبته وأعلى منزلته، وحمل السلطان على أن عقد له على الغزاة المجاهدين من زناتة مكان بني عمّه من الأعياص، فكانت له آثار في الاضطلاع بها. ولما استبدّ السلطان عبد العزيز بأمره واستقل بملكه، وكان ابن الخطيب ساعياً في مرضاته عند سلطانه، فدسّ إليه باعتقال عبد الرحمن بن أبي يفلوسن ووزيره المطارد به مسعود بن ماساي. وأدار ابن الخطيب في ذلك مكره وحمل السلطان عليهما، إلى أن سطا بهما ابن الأحمرواعتقلهما سائر أيام السلطان عبد العزيز وتغير الجو بين ابن الأحمر ووزيره ابن الخطيب وأظلم، فتنكر له، فنزع عنه إلى عبد العزيز سلطان المغرب سنة إثنتين وسبعين وسبعمائة، لما قدم من الوسائل ومهّد من السوابق، فقدمه السلطان وأحلّه من مجلسه محل الاصطفاء والقرب. وخاطب ابن الأحمر في أهله وولده، فبعثهم إليه واستقر في جملة السلطان. ثم تأكدت العداوة بينه وبين ابن الأحمر، فرغب السلطان في ملك الأندلس وحمله عليه وتواعدوا لذلك عند مرجعه من تلمسان إلى المغرب. ونمي ذلك إلى ابن الأحمر، فبعث إلى السلطان بهديّة لم يسمع بمثلها، انتقى فيها من متاع الأندلس وماعونها وبغالها الفارهة ومعلوجي السبي وجواريه، وأوفد بها رسله يطلب إسلام وزيره ابن الخطيب إليه، فأبى السلطان من ذلك ونكره. ولمّا هلك واستبدّ الوزير ابن غازي بالأمر تحيّز إليه ابن الخطيب وداخله، وخاطبه ابن الأحمر فيه بمثل ما خاطب السلطان، فلم يؤب واستنكف عن ذلك وأقبح الردّ. وانصرف رسله إليه، وقد رهب سطوته، فأطلق ابن الأحمر لحينه عبد

الرحمن بن أبي يفلوسن وأركبه الأسطول وقذف به إلى ساحل بطوية. ونهض إلى جبل الفتح ونازله بعساكره.

ونزل عبد الرحمن ببطوية في ذي القعدة من سنة أربع وسبعين وسبعمائة ومعه وزيره مسعود بن ماسي، فاجتمع قبائل بطوية إليه وبايعوه على القيام بدعوته والموت دونه. واتصل الخبر بالوزير أبي بكر بن غازي، فعقد لابن عمه محمد بن عثمان على سبتة وبعثه لسدّ ثغورها لما خشي عليها من ابن الأحمر. ونهض من فاس بالعساكر والآلة. ونازل عبد الرحمن ببطوية، فامتنع عليه وقاتله أياماً. ثم رجع إلى تازى ثم إلى فاس. ودخل الأمير عبد الرحمن تازى واستولى عليها، ودخل الوزير إلى فاس وقعد بمجلس الفصل، وهو مجمع العودة إلى تازى لتشريد عدوّه، إلى أن جاءه الخبر ببيعة السلطان أبي العباس أحمد بن أبي سالم، حسبما نذكره إن شاء الله تعالى.

الخبر عن بيعة السلطان أبي العباس أحمد بن أبي سالم واستقلاله بالملك، وما كان خلال ذلك من الأحداث:

لما نزل محمد بن عثمان بالثغر من سبتة لسدّ فروجها، ومدافعة ما يخشى من عادية ابن الأحمر عليها، وكان قد طاول حصار جبل الفتح وأخذ بمخنقه. وتكّررت المواصلة بينه وبين محمد بن عثمان بالعتاب، فاستعتب له وقبحّ ما جاء به ابن عمّه من الاستغلاظ له، فوجد ابن الأحمر بذلك السبيل إلى غرضه. وداخله في البيعة للسلطان أبي سالم، من الأبناء الذين كانوا بطنجة تحت الرقبة والحوطة، وأن يقيمه للمسلمين سلطاناً يجول بسياجهم ويدافع عنهم ولا يتركهم فوضى وهملاً ويجب بيعة الصبيّ الذي لم تنعقد بيعته شرعاً. واختصّ هذا بالسلطان من بين أولئك الأبناء وفاء بحقوق أبيه ووعده بالمظاهرة على ذلك، واشترط عليه أن ينزلوا له عن الجبل اذا انعقد أمرهم، ويشخصوا إليه بيعة الأبناء والقرابة من طنجة ليكونوا في إيالته وتحت حوطته. وأن يبعثوا إليه بابن الخطيب متى قدروا عليه، ويبعثوا إليه بقية الأبناء والقرابة فقبل محمد بن عثمان شرطه. وكان سفيره في ذلك أحمد الرعيني من طبقات كتّاب الأشغال بسبتة، كان السلطان أبو الحسن تزّوج أمّه

ليلة إجازته من واقعة طريف وافتقاد حظاياه، حتى لحق به الحرم من فاس، فردّها إلى أهلها. ونشأ الرعيني في توهّم هذه الكفالة، فانتفخ نحره لذلك ويحسبها وصلة إلى أبناء السلطان أبي الحسن. وكان سفيراً بين محمد بن عثمان وابن الأحمر، فأمّل الرياسة في هذه الدولة. وركب محمد بن عثمان من سبتة إلى طنجة وقصد مكان اعتقالهم. واستدعى أبا العبّاس أحمد ابن السلطان أبي سالم من مكانه مع الأبناء، فبايع له وحمل الناس على طاعته. واستقدم أهل سبتة بكتاب للبيعة، فقدموا وخاطب أهل الجبل فبايعوا، وأفرج ابن الأحمر عنهم. وبعث إليه محمد بن عثمان بالنزول له عن جبل الفتح، وخاطبوا أهله بالرجوع إلى طاعته، فارتحل من مالقة إليه ودخله واستولى عليه، ومحا دعوة بني مرين مما وراء البحر. وأهدى للسلطان أبي العبّاس، وأمدّه بعسكر من غزاة الأندلس وحمل إليه مالاً للإعانة على أمره. وكان محمد بن عثمان عند فصوله من فاس، وودّعه الوزير ابن عمّه، وفاوضه في شأن السلطان، وأن يقدّم للناس إماماً يرجعون إليه ويترك له أمرهم، وآمره في ذلك، ولم يفترقا على مبرم من أمرهم. فلمّا ارتكب هذا المرتكب وجاء بهذا الأمر، خاطب الوزير يمّوه عليه بأنه فعل بمقتضى المؤامرة وأنه عن إذنه، والله أعلم بما دار بينهما. ولجّ الوزير في تكذيبه والبراءة للناس مما رمي به ولاطفه في نقض ذلك الأمر وردّ أبا العباس إلى مكانه مع الأبناء تحت الحوطة. وأبي محمد بن عثمان من ذلك ودافعه باجتماع الناس وانعقاد الأمر. وبينما الوزير يروم ذلك، جاءه الخبر بأنّ محمد بن عثمان، أشخص الأبناء المعتقلين كلّهم إلى الأندلس، وأنهم حصلوا في كفالة ابن الأحمر، فوجم وأعرض عن، ابن عمّه وسلطانه. ونهض إلى تازى ليفرغ من عدوّه إليهم فنازل الأمير عبد الرحمن واخذً بمخنقه. واهتبل محمد بن عثمان الغرّة في ملك المغرب. فوصله مدد السلطان ابن الأحمر وعسكره تحت رايته، عقدها عليهم ليوسف بن سليمان بن عثمان بن أبي العلاء من مشيخة الغزاة المجاهدين، وعسكر آخر من رجل الأندلس الناشبة يناهزون سبعماية. وبعث ابن الأحمر رسله إلى الأمير عبد الرحمن باتصال اليد بابن عمّه السلطان أبي العبّاس أحمد، ومظاهرته على ملك سلفه بفاس واجتماعهما لمنازلتهما. وعقد بينهما الاتفاق والمواصلة، وأن يختصّ

عبد الرحمن بملك سلفه فتراضيا. وزحف محمد بن عثمان وسلطانه إلى فاس، خالفوا إليه

الوزير وانتهوا إلى قصر عبد الكريم. وبلغ الخبر إلى الوزير بمكانه من حصار تازى، فانفضّ معسكره ورجع إلى فاس ونزل بكدية ا لعرائس.

وانتهى السلطان أبو العباس أحمد إلى زرهون، فصمد إليه الوزير بعساكره وصمم نحوه بمكانه من قنّة الجبل، فاختل مصافه وانهزمت ساقة العسكر من ورائه. ورجع على عقبه مفلولاً، وانتهب المعسكر ودخل إلى البلد الجديد. وجأجأ بالعرب أولاد حسين أن يعسكروا له بالزيتون ظاهر فاس، ويخرج بمجموعه إلى حللهم، فنهض إليهم الأمير عبد الرحمن من تازى بمن كان معه من العرب الأحلاف وشرّدهم إلى الصحراء. وشارف السلطان أبا العبّاس أحمد بمجموعة من العرب وزناتة وبعثوا إلى وليّ سلفهم ونزمار بن عريف بمكانه من قصر مرادة الذي اختطّه بملوية، فجاءهم وأطلعوه على كامن أسرارهم، فأشار عليهم بالاجتماع والاتفاق، فاجتمعوا بوادي النجا. وحضر لعقدهم واتفاقهم وحلفهم على اتصال اليد على عدّوهم ومنازلته بالبلد الجديد، حتى يمكن الله منه. وارتحلوا بجمعهم إلى كدية العرائس في ذي القعدة من سنة خمس وسبعين وسبعمائة وبرز إليهم الوزير بعساكره، فدارت الحرب وحمي الوطيس واشتدّ القتال ملياً. ثم زحف إليه العسكران بساقتهما وآلتهما فاختلّ مصافه وانهزمت جيوشه وأحيط به، وخلص إلى البلد الجديد بعد غصّ الريق. وأضرب السلطان أبو العبّاس معسكره بكدية العرائس، ونزل الأمير عبد الرحمن بإزائه، وضربوا على البلد الجديد سياجاً بالبناء للحصار، وأنزلوا بها أنواع القتال والإرهاف.

ووصله مدد السلطان ابن الأحمر من الرجالة الأندلسية فضيقوا حصارها. واحتكموا

في ضياع ابن الخطيب بفاس، فهدموها وعاثوا فيها. ولمّا كان فاتح سنة ست وسبعين وسبعمائة داخل محمد بن عثمان ابن عمه أبا بكر في النزول عن البلد الجديد والبيعة للسلطان، لما كان الحصار قد اشتدّ به ويئس من الصريخ وأعجزه المال، فأجاب. واشترط عليهم الأمير عبد الرحمن التجافي له في أعمال مراكش، وأن يديلوه بها من سجلماسة فعقدوا له على كره وطووا على المكر. وخرج الوزير أبو بكر إلى السلطان أبي العبّاس أحمد

وبايعه واقتضى عهده بالأمان وتخلية سبيله من الوزارة فبذله. ودخل السلطان أبو

العباس أحمد إلى البلد الجديد سابع المحرم. وارتحل الأمير عبد الرحمن يومئذ إلى مراكش واستولى عليها، وارتحل معه علي بن عمر بن ويغلان شيخ بني مرين والوزير ابن ماساي، ثم نزع عنه ابن ماساي إلى فاس لعهد كان اقتضاه من السلطان أبي العبّاس. وأجاز البحر إلى الأندلس فاستقرّ بها في إيالة ابن الأحمر، واستقلّ السلطان أبو العباس ابن السلطان أبي سالم بملك المغرب ووزيره محمد بن عثمان بن ألكاس، وفوض إليه شؤونه وغلب على هواه. وصار أمر الشورى إلى سليمان بن داود، كان نزع إليهم من البلد الجديد من جملة أبي بكر بن غازي بعد أن كان أطلقه من محبسه واستخلصه. وجعل إليه مرجع أمره فتركه أحوج ما كان إليه. ولحق بالسلطان أبي العباس بمكانه من حصار البلد الجديد. فلمّا استوسق ملكه ألقى الوزير محمد بن عثمان مقاد الدولة له، وصار إليه أمر الشورى ورياسة المشيخة. واستحكمت المودّة بينه وبين ابن الأحمر وتأكّدت المداخلة وجعلوا إليه المرجع في نقضهم وابرامهم لمكان الأبناء المرشحين في إيالته. ولمّا ارتحل الأمير عبد الرحمن إلى مراكش نبذوا إليه العهد، وتعللوا عليه بأنّ العقد الأوّل له، إنّما كان على ملك سلفه، ومراكش إنما ألجأهم إلى العقد عليها إلجاء. واعتزموا على النهوض إليه، ثم أقصروا وانعقدت بينهما السلم سنة ست وسبعين وسبعمائة، وجعلوا التخم بينهما أزمور وعقدوا على ثغرها لحسان بن علي الصبيحي، فلم يزل عليها إلى أن هلك كما نذكره إن شاء الله تعالى.

الخبر عن مقتل ابن الخطيب:

ولما استولى السلطان أبو العباس على البلد الجديد دار ملكه، فاتح سنة ست وسبعين وسبعمائة، واستقلّ بسلطانه، والوزير محمد بن عثمان مستبدّ عليه، وسليمان بن داود من أعراب بني عسكر رديف له، وقد كان الشرط وقع بينه وبين السلطان ابن الأحمر عندما بويع بطنجة على نكبة ابن الخطيب وإسلامه إليه، لما نمي إليه عنه أنه كان يغري السلطان عبد العزيز لملك الأندلس. فلما زحف السلطان أبو العباس من طنجة ولقي الوزير أبا بكر بن غازي بساحة البلد الجديد، فهزمه السلطان ولاذ منه بالحصار، آوى معه ابن الخطيب إلى البلد الجديد خوفاً على نفسه. فلما استولى السلطان

على البلد الجديد، أقام أياماً، ثم أغراه سليمان بن داود بالقبض عليه، فقبضوا عليه وأودعوه السجن، وطيّروا بالخبر إلى

السلطان ابن الأحمر. وكان سليمان بن داود شديد العداوة لابن الخطيب لما كان سليمان بن داود قد بايعه السلطان ابن الأحمر على مشيخة الغزاة بالأندلس حتى أعاده الله إلى ملكه. فلما استقرّ له سلطانه أجاز إليه سليمان سفيراً عن عمر بن عبد الله ومقتضياً عهده من السلطان، فصدّه ابن الخطيب عن ذلك بأنّ تلك الرياسة إنما هي لأعياص الملك من آل عبد الحق، لأنهم يعسوب زناتة، فرجع سليمان يائسا وحقد ذلك لابن الخطيب. ثم جاور الأندلس بمحل إمارته من جبل الفتح، فكانت تقع بينه وبين ابن الخطيب مكاتبات ينفّس كل واحد منهما لصاحبه بما يحفظه لما كمن في صدورهما. وحين بلغ الخبر بالقبض على ابن الخطيب إلى السلطان ابن الأحمر، بعث كاتبه ووزيره بعد ابن الخطيب، وهو أبو عبد الله بن زمرك، فقدم على السلطان أبي العبّاس وأحضر ابن الخطيب بالشورى في مجلسه الخاصّة و أهل الشورى، وعرض عليه بعض كلمات وقعت له في كتابه، فعظم عليه النكرير فيها، فوبّخ ونكل، وامتحن بالعذاب بمشهد ذلك الملأ من الناس، ثم تل إلى محبسه. اشتوروا في قتله بمقتضى تلك المقالات المسجّلة عليه وأفتى بعض الفقهاء فيه. ودسّ سليمان بن داود إليه لبعض الأوغاد من حاشيته بقتله، فطرقوا السجن ليلاً ومعهم زعانفة جاؤوا في لفيف الخدم مع سفراء السلطان ابن الأحمر، وقتلوه خنقاً في محبسه، وأخرجوا شلوه من الغد، فدفن بمقبرة باب المحروق. ثم أصبح من الغد علي شأفة قبّره طريحاً، وقد جمعت له أعواد واضرمت عليه ناراً فاحترق شعره واسودّ بشره، وأعيد إلى حفرته وكان في ذلك انتهاء محنته. وعجب الناس من هذه السفاهة التي جاء بها سليمان واعتدّوها من هناته. وعظم النكير فيها عليه وعلى قومه وأهل دولته. والله الفعال لما يريد. وكان عفى الله عنه أيام امتحانه بالسجن يتوقع مصيبة الموت، فيتجيش هوأتفه بالشعر يبكي نفسه. ومما قال في ذلك:

بعُدنا وإن جاورتنا البيـــــوتُ وجئنا لوعد ونحن صموت

وأنفاسنا سكنت دفعـــــــة كجهر الصلاتِ تلاه القنوت

وكنا عظاماً فصرنا عظامـــاً وكنا نقوت فها نحن قوتْ
وكنا شموس سماء العـــــلا زغر بن فباحت علينا السموت
فكم جزلت ذا الحسام الظبـــا وذو البحث كم خذّلته البخوت
وكم سيق للقبر في خرقـــــةٍ فتىً ملئت من كساه التخوت
فقل للعدا ذهب ابن الخطيـــب وفات ومن ذا الذي لا يفوت
فمن كان يفرح منكم لـــــه فقل يفرح اليوم من لا يموت

الخبر عن إجازة سليمان بن داود إلى الأندلس ومقامه بها إلى أن هلك: بها

كان سليمان بن داود هذا منذ عضّته الخطوب واختلفت عليه النكبات، يروم الفرار بنفسه إلى الأندلس، للمقامة مع الغزاة المجاهدين من قومه. ولما استقرّ السلطان ابن الأحمر بفاس، عند خلعه ووفادته على السلطان أبي سالم سنة إحدى وستين وسبعمائة، وداخله سليمان بن داود في تأميل الكون عنده، فعاهده على ذلك، وأن يقدّمه على الغزاة المجاهدين من قومه. ولما عاد إلى ملكه، وفد عليه سليمان بن داود بغرناطة في سبيل السفارة عن عمر بن عبد الله سنة ست وستين وسبعمائة، وأن يؤكد عقده من السلطان، فحال دون ذلك ابن الخطيب وثنى رأى السلطان عن ذلك بأنّ شياخة الغزاة مخصوصة بأعياص الملك من بني عبد الحق، لمكان عصابتهم من الأندلس، فأخفق أمل سليمان حينئذ وحقدها على ابن خطيب ورجع إلى مرسله. ثم كانت نكبته أيام السلطان عبد العزيز، فلم يخلص منها إلا بعد مهلكه، أطلقه أبو بكر بن غازي المستبد بالأمر من بعده، ليعتضد بمكانه على شأنه. فلما استبدّ الحصار على ابن غازي، خرج عنه سليمان ولحق بالسلطان أبي العباس ابن المولى أبي سالم بمكانه من ظاهر البلد

الجديد، فكان ذلك من أسباب الفتح. ولما دخل السلطان إلى دار ملكه من البلد الجديد فاتح سنة ست وستين وسبعمائة واستوسق أمره، رفع مجلس سليمان وأحلّه محل الشورى، واعتضد به وزيره محمد بن عثمان واستخلصه كما ذكرناه. وكان يرجع إلى رأيه، وهو في خلال ذلك يحاول اللحاق بالأندلس، فكان من أوّل أمره التقرّب إلى السلطان ابن الأحمر، بإغراء الوزير محمد بن عثمان بقتل ابن الخطيب مشنوئه، فتمّ ذلك لأوّل الدولة. وجرت الأمور بعدها على الاعتمال في مرضاته إلى أن حاول السفارة إليه في أغراض سلطانه سنة ثمان وستين وسبعمائة في صحابة ونزمار بن عريف، فتلقّاهما السلطان ابن الأحمر بما يتلقى به أمثالهما وأغرب في تكرمتهما. وأما ونزمار فانقلب راجعاً لأوّل تأدية الرسالة، يقتضى من السلطان حظه لقواد أسطوله بتسهيل الإجازة إليه متى رامها. وخرج يتصيّد، فلحق بمرسى مالقة ودفع أمر السلطان بخطه إلى قائد الأسطول، فأجازه إلى سبتة ولحق بمكانه. وأمّا سليمان، فاعتزم على المقام عند ابن الأحمر وأقام هنالك خالصةً ونجياً ومشاوراً، إلى أن هلك سنة إحدى وثمانين وسبعمائة.

الخبر عن شأن الوزير أبي بكر بن غازي وما كان من تغريبه إلى مايرقة، ثم رجوعه وانتقاضه بعد ذلك ومهلكه:

لما اشتدّ الحصار بالوزير أبي بكر بن غازي وفنيت أمواله وأموال السلطان، وظن أنه احيط به، داخله الوزير محمد بن عثمان من مكانهم بحصاره في النزول عن البلد على الأمان والإبقاء فأجاب. وخرج إلى السلطان أبي العبّاس بن أبي سالم، فعقد له أماناً بخطّه وتحّول إلى داره بفاس. وأسلم سلطانه المنصوب للأمر، فتسلّمه منه الوزير محمد بن عثمان واشتدّ في الاحتياط عليه، إلى أن بعثه إلى السلطان ابن الأحمر، فكان في جملة الأبناء عنده. ودخل السلطان أبو العباس إلى دار ملكه واقتعد سريره ونفذت في الممالك أوامره. وأقام أبو بكر بن غازي على حاله بداره والخاصّة يباكرونه والنفوس منطوية على تأميله، فغصّ به أهل الدولة وتردّدت فيه

السعاية. وتقبّض عليه السلطان وأشخصه إلى غسّاسة، وركب منها السفين إلى ميورقة آخر سنة ست وسبعين وسبعمائة، فأقام بها شهراً، ومخاطباته مترددة إلى الوزير محمد بن عثمان. ثم عطفته عليه رحم، فأذن له في القدوم، إلى المغرب والمقامة بغسّاسة، فقدمها أوائل سنة سبع وسبعين وسبعمائة واستبدّ بأمارتها. وبدا له رأي في تأميل الرتبة وظهر ما كان يخفيه لابن عمّه من المنافسة، فخاطب السلطان ابن الأحمر من وراء البحر ولاطفه بالتحف والهدايا، فكتب إلى ابن عمّه محمد بن عثمان يحضّه على إعادته إلى مكانه دفعاً لغوائله، فأبى من ذلك. وداخله ونزمار بن عريف في بعضها كذلك، فلح في الامتناع. وحمل سلطانه على نبذ العهد إلى أبي بكر بن غازي، فتنكّر له وأجمع المسير إليه بعساكر العرب، فخرج من فاس سنة تسع وسبعين وسبعمائة. وبلغ الخبر إلى أبي بكر بن غازي، فاستجاش بالعرب واحثّهم للوصول، فوصل إليه الأحلاف من المعقل وسرّب فيهم أمواله. وخرج من غسّاسة، فألقى بينهم وعمد إلى بعض العرب الطارئين، فنصّبه للأمر مشبّهاً ببعض أولاد السلطان أبي الحسن، وزحف إليه السلطان حتى نزل بتازى، فأجفلت أحياء العرب أمام العساكر من بني مرين والجند. ونجا ابن غازي معهم بدمائه. ثم داخله ونزمار بن عريف في الإذعان للسلطان والتنكيب عن شق الخلاف، فأجاب ووصل به إلى سدّة الملك، فبعث به السلطان محتاطاً عليه إلى فاس، فاعتقل بها. ونزلت مقدّمات العساكر بوادي ملويّة، وداخل صاحب تلمسان منها رعب، فأوفد على السلطان من قومه وكبار مجلسه ملاطفاً ومدارياً، فتقبّل منه وعقد السلم، وأصدر به كتابه وعهده بخطّه، وانكفأ راجعاً إلى حضرته، بعد أن بثّ العمّال في تلك النواحي على جبايتها، فجمعوا له منها ما رضي. ولما احتلّ بدار ملكه، أنفذ أمره بقتل أبي بكر بن غازي، فقتل بمحبسه طعناً بالخناجر، وذهب مثلاً في الأيام، واستوسق للسلطان أمره. وأحكم العقد مع الأمير عبد الرحمن بن أبي يفلوسن صاحب مراكش، واتصل بينهما وترددت المهاداة بينهما بعض إلى بعض، وإلى صاحب الأندلس واليه منهما، فامتلأت المغرب هدنةً وأمناً، وانبعثت الآمال بساطاً وغبطةً. والحال متصلة على ذلك

لهذا العهد آخر سنة إحدى وثمانين أيام إشرافنا على هذا التأليف. والله مقدر الليل والنهار.

الخبر عن انتقاض الصلح بين الأمير عبد الرحمن صاحب مراكش والسلطان أبي العباس صاحب فاس واستيلاء عبد الرحمن على أزمور ومقتل عاملها حسون بن علي:

كان علي بن عمر كبير بني ورتاجن وشيخ بني ويغلان منهم، قد تحيّز إلى الأمير عبد الرحمن، منذ إجازته إلى الأندلس واستيلائه على تازى، ثم زحفه إلى حصار البلد الجديد مع السلطان أبي العباس كما مرّ. فوصل في جملته إلى مراكش، وكان صاحب شوراه وكبير دولته. وكان يظعن على خالد بن إبراهيم المبرازي شيخ جاجة من قبائل المصامدة، ما بين مراكش وبلاد السوس. وقد كان علي بن عمر انتقض على ابن غازي، الوزير المستبدّ بعد السلطان عبد العزيز، ولحق بالسوس. ومر بخالد بن إبراهيم هذا، فاعترضه في طريقه وأخذ الكثير من أثقاله ورواحله. وخلص هو إلى منجاته بالسوس، وقد حقد ذلك لخالد. ثم بعث عن شيوخ المعقل، عندما أجاز الأمير عبد الرحمن من الأندلس إلى نواحي تازى يروم اللحاق بهم، فوفدوا عليه. وسار معهم إلى أحيائهم وأقام معهم وهو في طاعة الأمير عبد الرحمن ودعوته، إلى أن اتصل به بين يدي حصاره البلد الجديد مع السلطان أبي العباس. فلمّا فتح السلطان البلد الجديد أوّل سنة ست وسبعين وسبعمائة واستولى على ملكهم بها، وفصل عبد الرحمن إلى مراكش، كما كان الوفاق بينهم، وسار علي بن عمر في جملة الأمير عبد الرحمن إلى مراكش. واستأذنه في قتل خالد صاحبه، فلم يأذن له، فأحفظه ذلك وطوى عليه. وبعد أيام صعد إلى جبل وريكة، في غرض من أغراض الدولة. وتقدّم إلى حافده عامر ابن ابنه محمد بقتل خالد، فقتله في بعض الأيام بظاهر مراكش. ولحق بجده علي بن عمر بوريكة، فتلطّف له الأمير عبد الرحمن وراسله بالملاينة والاستعطاف. ثم ركب إليه بنفسه واستخلصه ونزل به إلى مراكش، فأقام معه أياماً. ثم ارتاب ولحق بأزمور وعاملها يومئذ حسّون بن علي الصبيحي فأغراه بالإجلاب على عمل مراكش وزحفوا جميعاً إلى عمل صنهاجة.

وسرّح الأمير عبد الرحمن لمدافعتهم كبير دولته يومئذ، وابن عمّه عبد الكريم بن عيسى بن سليمان بن منصور بن بي مالك، وهو عبد الواحد بن يعقوب بن عبد الحق، فخرج في العساكر ومعه منصور مولى الأمير عبد الرحمن، فلقوا عليّ بن عمر وهزموه وأخذوا سواده ولجأ إلى أزمور. ثم وفد هو وحسّون بن علي على السلطان بفاس. ووقعت أثناء ذلك المراسلة بين السلطانين وانعقد بينهما الصلح. وأقام علي بن عمر بفاس ورجع حسّون بن علي إلى مكان عمله بأزمور ثم انتقض ما بين السلطانين ثانياً. وكان عند الأمير عبد الرحمن أخوان من ولد محمد بن يعقوب بن حسّان الصبيحي وهما علي وأحمد، جرثومتا بغي وفساد. وعدا على كبيرهما علي ابن عمه علي بن يعقوب بن علي بن حسّان فقتله. واستعدى أخوه موسى عليه السلطان، فأعداه. وأذن له أن يثأر منه بأخيه فيقتله، فجزع لذلك أحمد أخو عليّ وهم بقتل موسى، فاستجار موسى بيعقوب بن موسى بن سيّد الناس كبير بني ونكاسن وصهر الأمير عبد الرحمن، وأقام أياماً في جواره، ثم هرب إلى أزمور، فلفحت نار الفتنة. ونهض الأمير عبد الرحمن إلى أزمور، فلم يطق حسان بن علي دفاعه، فملكها عليه وقتله واستباحها. وبلغ الخبر إلى السلطان بفاس، فنهض في عساكره وانتهى إلى سلا. ورجع الأمير عبد الرحمن إلى مراكش، وسار السلطان في أتباعه، حتى نزل بحصن أكمليم قريبا من مراكش. وأقام هنالك نحواً من ثلاثة أشهر، والقتال يتردّد بينهم. ثم سعى بين السلطانين في الصلح، فاصطلحوا على حدود العمالات أولاً، وانكفأ صاحب فاس إلى عمله وبلده. وبعث الحسن بن يحيى بن حسّون الصنهاجي عاملاً على الثغر بأزمور، فأقام بها وكان أصله من صنهاجة أهل وطن أزمور، وله سلف في خدمة بني مرين مذ أوّل دولتهم. وكان أبوه يحيى في دولة السلطان أبي الحسن عاملاً في الجباية بأزمور وغيرها. وهلك في خدمته بتونس أيام مقام السلطان بها وترك ولده يستعمل في مثل ذلك. ونزع الحسن هذا منهم إلى الجندية، فلبس شارتها وتصرّف في الولاية المناسبة لها. واتصل بخدمة السلطان أبي العباس لأول بيعته بطنجة، وكان يومئذ عاملاً بالقصر الكبير، فدخل في دعوته وصار في

جملته. وشهد معه الفتح واستعمله في خطط السيف، حتى ولّاه أزمور هذه الولاية، فقام بها كما نذكره.

وأما الصبيحيون فالخبر عن أوليتهم أن جدهم حسّان من قبيلة صبيح، من أفاريق سويد، جاء مع عبد الله بن كندوز الكمي من بني عبد الواد، حين جاء من تونس

وأوفد على السلطان يعقوب بن عبد الحق ولقيه كما مرّ. وكان حسّان من رعاة إبله. فلما استقرّ عبد الله بن كندوز بناحية مراكش، وأقطعه السلطان يعقوب في أعمالها، وكان الظهر الذي يحمل عليه السلطان متفرقاً في سارية المغرب، فجمعه وجعله لنظر عبد الله بن كندوز، فجمع له الرعاة، وكبيرهم يومئذ حسّان الصبيحيّ، فكان يباشر السلطان في شأن ذلك الظهر ويطالعه في مهمّاته، فحصلت له بذلك مداخلة واجتلبت إليه الحظ، حتى ارتفع وأثرى وكبر. ونشئوا في ظل الدولة وعزّها وتصرفوا في الولايات فيها. وانفردوا بالشاوية، فلم تزل ولايتها متوارثة فيهم منقسمة بينهم لهذا العهد، إلى ما كانوا يتصرفون فيه من غير ذلك من الولايات. وكان لحسّان من الولد عليّ ويعقوب وطلحة غيرهم. ومن حسّان هذا تفرّعت شعوبهم في ولده، وهم لهذا العهد متصرفون في الدولة على ما كان سلفهم من ولاية الشاوية والنظر في رواحل السلطان والظهر الذي يحمل من الإبل، ولهم عدد وكثرة ونباهة في الدولة. والله أعلم.

الانتقاض الثاني بين صاحب فاس وصاحب مراكش ونهوض صاحب فاس إليه وحصاره، ثم عودهما إلي الصلح:

ولما رجع السلطان إلى فاس على ما استقرّ من الصلح، طلب الأمير عبد الرحمن أن يدخل عمالة صنهاجة ودكالة في أعماله. وكتب السلطان إلى الحسن بن يحيى عامل أزمور وتلك العمالة، بأن يتوجّه إليه ويسدّ المذاهب دونه في ذلك. وكان الحسن بن يحيى مضطغناً على الدولة. فلما وصل إليه داخله في الخلاف وأن يملّكه تلك العمالة، فازداد الأمير عبد الرحمن بذلك قوّة على أمره. وتعلّل على صاحب فاس بأن يكون الحدود بين الدولتين وادي أم ربيع. واستمرّ صاحب فاس على الإباية من ذلك، فنهض الأمير عبد الرحمن من مراكش. ودخل الحسن بن يحيى في طاعته، فملكها وبعث مولاه منصورا في العساكر إلى أنف، فاستولى عليها وصادر أعيانها وقاضيها ووالیها وبلغ الخبر إلى السلطان، فنهض من فاس في عساكره. وانتهى إلى

سلا، فهرب منصور من أنف وتركها. ولحق بمولاه عبد الرحمن، فأجفل من أزمور إلى مراكش، والسلطان في أثره، حتى انتهى إلى قنطرة الوادي، على غلوة من البلد، وأقام خمسة أشهر يحاصرها. واتصل الخبر بالسلطان ابن الأحمر صاحب الأندلس، فبعث خالصته الوزير أبا القاسم ابن الحكيم الرندي ليعقد الصلح بينهما، فعقده على أن يسترهن السلطان أولاد الأمير عبد الرحمن وحافد أبي الحسن. وانكفأ السلطان راجعا إلى سلا. ولحق به جماعة من جملة الأمير عبد الرحمن، من بني مرين وغيرهم، نزعوا عنه، وكان منهم أحمد بن محمد بن يعقوب الصبحي. ولقي في طريقه مولى الأمير عبد الرحمن، جاء به مكرها إلى السلطان. وكان من النازعين أيضاً يعقوب بن سيد الناس، كبير بني ونكاسن، وأبو بكر بن رحّو بن الحسن بن علي بن أبي الطلاق، ومحمد بن مسعود الإدريسي، وزيان بن علي بن عمر الوطاسي، وغيرهم من المشاهير. وقدموا على السلطان بسلا فتقبلهم وأحسن كرامتهم، ورحل راجعا إلى فاس. والله أعلم.

انتقاض علي بن زكريا، شيخ الهساكرة، على الأمير عبد الرحمن وفتك بمولاه منصور ومقتل الأمير عبد الرحمان

لما رجع السلطان إلى فاس وبدا من الخلل في دولة الأمير عبد الرحمن وانتقاض الناس عليه ما قدّمناه، نزع يده من التعويل على العساكر وشرع في تحصين البلد. وضرب الأسوار على القصبة وحفر الخنادق، وتبّين بذلك اختلال أمره. وكان علي بن زكريا شيخ هسكورة كبير المصامدة في دعوته، مذ دخل مراكش فتلافى أمره مع صاحب فاس، ومد إليه يداً من طاعته. ثم انتقض على الأمير عبد الرحمن ودخل في دعوة السلطان، وبعث إليه الأمير عبد الرحمن مولاه منصوراً يستألفه، فأرصد إليه في طريقه من حاشيته من قتله. ثم بعث برأسه إلى فاس، فنهض السلطان في عساكره إلى مراكش. واعتصم الأمير عبد الرحمن بالقصبة وقد كان افردها عن المدينة بالأسوار. وخندق عليها، فملك السلطان المدينة ورتّب على القصبة المقاتلة من كل جهة، ونصب الآلة. وأدار عليها من جهة المدينة حائطاً وأقام يحاصرها سبعة

أشهر يغاديها القتال ويراوحها. وكان أحمد بن محمد الصبيحي من الذين بوؤا المقاعد لقتالها، فهمّ بالإنتقاض وحدثته نفسه بغدرة السلطان والتوثب به. وسعى بذلك إل السلطان، فتقبض عليه وحبسه. وبعث السلطان بالنفير إلى أعماله، فتوافت الأمداد من كل ناحية. وبعث صاحب الأندلس إليه مداداً من العسكر. فلما اشتد القتال والحصار بالأمير عبد الرحمن ونفذت الأقوات، وأيقن أصحابه بالهلكة، وأهمتهم أنفسهم، وهرب عنه وزيره نجّو العلم من بقية بيت محمد بن عمر، شيخ الهساكرة والمصامدة لعهد السلطان أبي الحسن وابنه وقد مر ذكره. فلما لحق نحو هذا بالسلطان، وعلم أنه إنما جاء مضطرا، قبض عليه وحبسه. ثم انفض الناس عن الأمير عبد الرحمن، ونزلوا من الأسوار ناجين إلى السلطان. وأصبح في قصبته منفرداً، وقد بات ليلته يراوض ولديه على الإستماتة وهما: أبو عامر وسليم. وركب السلطان من الغد في التعبية. وجاء إلى القصبة، فاقتحمها بمقدّمته. ولقيهم الأمير عبد الرحمن وولداه مباشراً إلى الميدان الذي بين أبواب دورهم، فجالوا معهم جولة قتل فيها وولداه. تولى قتلهم على بن إدريس الثنالقتي وزيّان بن عمر الوطاسي. وطالما كان زيّان يمتري ثدي نعمتهم ويجر ذيله خيلاء في جاههم، فذهب مثلاً في كفران النعمة وسوء الجزاء. والله لا يظلم مثقال ذرة. وكان ذلك خاتم جمادى الاخرة سنة أربع وثمانين وسبعمائة لعشر سنين من إمارته على مراكش ثم رحل السلطان منقلباً إلى فاس، وقد استولى على أعمال المغرب، وظفر بعدوّه ودفع المنازعين عن مكه. والله أعلم.

اجلاب العرب إلي المغرب في مغيب السلطان بغريه، من ولد أبي علي، وأبي تاشفين بن أبي حمّو صاحب تلمسان ومجيء أبي حمو علي أثرهم:

كان أولاد حسين من عرب المعقل مخالفين علي السلطان من قبل مسيره إلى مراكش.

وكان شيخهم يوسف بن علي بن غانم، قد حدثت بينه وبين الوزير القائم على الدولة

محمد بن عثمان منافرة وفتنة. وبعث العساكر إلى سجلماسة، فخرّب ما كان له بها من العقار والأملاك. وأقام منتقضا بالقفر. فلما حاصر السلطان الأمير عبد الرحمن بمراكش وأخذ بمخنقه أرسل أبا العشائر ابن عمّه منصور إلى يوسف بن علي وقومه، ليجلبوا به على المغرب ويأخذوا بحجزة السلطان عن حصاره فسار لذلك. ولما قدم على يوسف، سار به إلى تلمسان، مستجيشاً بالسلطان أبي حمو لذلك القصد، بما كان بينه وبين الأمير عبد الرحمن من العهد على ذلك. فبعث أبو حمو معهم ابنه أبا تاشفين في بعض عساكره، وسار في الباقين على أثرهم. وسار أبو تاشفين وأبو العشائر إلى أحياء العرب، فدخلوا إلى أحواز مكناسة وعاثوا فيها. وكان السلطان عند سفره إلى مراكش، استخلف على دار ملكه بفاس علي بن مهدي العسكري في جماعة من الجند. واستنجد بونزمار ابن عريف شيخ سويد وولي الدولة المقيم بأحياء ملوية، فخالف بين العرب المعقل واستألف منهم العمارنة والمنبات وهم الأحلاف. واجتمعوا مع علي بن مهدي وساروا لمدافعة العدّو بنواحي مكناسة، فصدّوهم عن مرامهم ومنعوهم من دخول البلاد، فأقاموا متوافقين أيّاماً. وقصد أبو حمّو في عسكره مدينة تازى وحاصرها سبعاً. وخرّب قصر الملك هنالك ومسجده المعروف بقصر تازورت. وبينما هم على ذلك بلغ الخبر اليقين بفتح مراكش وقتل الأمير عبد الرحمن، فأجفلوا من كل ناحية. وخرج أولاد حسين وأبو العشائر وأبو تاشفين والعرب الأحلاف في اتباعهم وأجفل أبو حمّو من تازى راجعاً إلى تلمسان ومرّ بقصر ونزمار في نواحي بطوية المعروف بمرادة، هدمه ووصل السلطان إلى فاس وقد تم له الظهور والفتح إلى أن كان ما نذكره إن شاء الله تعالى.

نهوض السلطان إلى تلمسان وفتحها وتخريبها:

كان السلطان لما بلغه ما فعله العرب وأبو حمو بالمغرب، لم يشغله ذلك عن شأنه، ونقم على أبي حمّو ما أتاه من ذلك، وأنه نقض عهده من غير داع إلى النقض. فلمّا احتلّ بدار ملكه بفاس، أراح أياماً، ثم أجمع عزمه على النهوض إلى تلمسان. وخرج في عساكره على عاداتهم وانتهى إلى

تاوريرت. وبلغ الخبر إلى أبي حمّو، فاضطرب في أمره واعتزم على الحصار وجمع أهل البلد عليه واستعدّوا له. ثم خرج في بعض

تلك الليالي بولده وأهله وفي خاصته، وأصبح مخيّماً بالصفصيف وانفض أهل البلد إليه، وبعضهم بعياله وولده، مستمسكين به، متفادين من معرّة هجوم عساكر المغرب. ولم يرعه ذلك عن قصده، وارتحل ذاهباً إلى البطحاء. ثم قصد بلاد مغراوة، فنزل في بني بو سعيد قريباً من شلف، وأنزل أولاده الأصاغر وأهله بحصن تاجحمومت. وجاء السلطان إلى تلمسان، فملكها واستقرّ فيها أياماً. ثم هدم أسوارها وقصور الملك بها، بإغراء وليه ونزمار، جزاءً بما فعله أبو حمّو من تخريب قصر تازروت وحصن مرادة. ثم خرج من تلمسان في اتباع أبي حمّو ونزل على مرحلة منها. وبلغه الخبر هنالك بإجازة السلطان موسى ابن عمّه أبي عنّان من الأندلس إلى المغرب وإنه خالفه إلى دار الملك، فانكفأ راجعاً وأغذّ السير إلى المغرب، كما نذكر. ورجع أبو حمّو إلى تلمسان واستقر في ملكه، كما تقدم في أخباره.

اجازة السلطان موسي ابن السلطان ابن عنان، من الاندلس إلى المغرب. واستيلاؤه علي الملك وظفره بابن عمه السلطان ابن العباس وازعاجه إلى الاندلس

قد تقدم لنا أن السلطان محمد بن الأحمر المخلوع، كان له تحكم في دولة السلطان أبي العباس بن أبي سالم صاحب المغرب، بما كان من إشارته على محمد عثمان ببيعته وهو معتقل بطنجة، ثم بما أمدّه من مدد العساكر والأموال، حتى تم أمره واستولى على البلد الجديد كما تقدم في أول خبره، ثم بما كان له من الزبون عليهم، بالقرابة المرشحين الذين كانوا معتقلين بطنجة مع السلطان أبي العبّاس، من أسباط السلطان أبي الحسن، من ولد أبي عنان وأبي سالم والفضل وأبي عامر وأبي عبد الرحمن وغيرهم. وكانوا متعاهدين في معتقلهم أنّ من أتاح الله له الملك منهم، يخرجهم من الاعتقال ويجيزهم إلى الأندلس. فلما بويع السلطان أبو العباس وفّى لهم بهذا العهد وأجازهم الاندلس، فنزلوا على السلطان ابن الأحمر أكرم نزل، أنزلهم بقصور ملكه بالحمراء وقرب لهم المراكب، وأفاض عليهم العطاء ووسّع لهم الجرايات والأرزاق. وأقاموا

هنالك في ظل ظليل من كنفه، فكان له به وثوب على ملك المغرب. وكان الوزير القائم بها محمد بن عثمان يقدر له قدر ذلك كله، فيجري في أغراضه وقصوده ويحكمه في الدولة ما شاء الله أن يحكم، حتى توجهت الوجوه إلى ابن الأحمر وراء البحر من أشياخ بني مرين والعرب وأصبح المغرب كأنه من بعض أعمال الأندلس. ولما نهض السلطان إلى تلمسان خاطبوه وأوصوه بالمغرب. وترك محمد بن عثمان بدار الملك، كاتبه محمد بن حسن، كان مصطنعاً عنده من بقيّة شيع الموحّدين ببجاية، فاختصّه ورقّاه واستخلفه في سفره هذا على دار الملك. فلمّا انتهوا إلى تلمسان وحصل لهم من الفتح ما حصل كتبوا بالخبر إلى السلطان ابن الأحمر، مع شيطان من ذرّية عبّو بن قاسم المزوار، كان بدارهم. وهو عبد الواحد بن محمد بن عبّو، وكان يسمو بنفسه إلى العظائم التي ليس لها بأهل ويتربّص لذلك بالدولة. وكان ابن الأحمر مع كثرة تحكّمه فبهم يتنحي لهم بعض الأوقات، بما يأتونه من تقصير في شفاعة أو مخالفة في أمر لا بجدون عنها وليجة، فيضطغن لهم ذلك. فلمّا قدم عليه عبد الواحد هذا بخبر الفتح وقصّ عليه القصص، دسّ له أنّ أهل الدولة مضطربون على سلطانهم ومستبدلون به لو وجدوا، وبلغ من ذلك ما حمل وما لم يحمل. وأشار له بجلاء المغرب من الحامية جملة، وأن دار الملك ليس بها إلا كاتب حضري لا يحسن المدافعة، وهو أعرف به، فانتهز ابن الأحمر الفرصة وجهز موسى ابن السلطان أبي عنان من الأسباط المقيمين عنده. واستوزر له مسعود بن رحو بن ماساي من طبقة الوزراء من بني مرين ومن بني قودر من أحلافهم. وله في ذلك سلف وكان قد بعثه من قبل وزيراً للأمير عبد الرحمن بن أبي يفلوسن، حين أجاز إلى المغرب أيام استبداد أبي بكر بن غازي. فلم يزل معه حتى كان حصار البلد الجديد واستيلاء السلطان أبي العبّاس عليها. وذهب الأمير عبد الرحمن إلى مراكش، فاستأذنه مسعود في الانصراف إلى الأندلس، فأذن له ورجع عنه إلى فاس. ثم فارقها وأجاز إلى الأندلس متودعاً ومتوداً للكل ومعولاً على ابن الأحمر، فتلقّاه بالقبول وأوسع له بالنزل والجراية وخلطه بنفسه وأحضره مع ندمائه. ولم يزل كذلك إلى أن

جهزه وزيراً إلى المغرب مع السلطان أبي عنان وبعث معهم عسكراً. ثم ركب معهم السفين إلى سبتة، وكانت بينه وبين

شرفائها ورؤساء الشورى بها مداخلة، فقاموا بدعوة السلطان موسى وأدخلوه وقبضوا على عاملها رحّو بن الزعيم المكدوني وجاؤا به إلى السلطان، فملكها غرّة صفر من سنة ست وثمانين. وسلمها لابن الأحمر، فدخلت في طاعته. وسار هو إلى فاس، فوصلها لأيام قريبة، وأحاط بدار الملك، واجتمع إليه الغوغاء. ونزل الدهش بمحمد بن الحسن، فبادر بطاعته. ودخل السلطان موسى إلى دار الملك وقبض عليه لوقته، وذلك في عشر ربيع الأول من السنة، وجاء الناس بطاعتهم من كل جانب. وبلغ الخبر إلى السلطان أبي العبّاس بمكانه من نواحي تلمسان بأنّ السلطان موسى قد نزل بسبتة، فجهز علي بن منصور وترجمان الجند النصارى ببابه مع طائفة منهم. وبعثهم حامية لدار الملك، فانتهوا إلى تازى وبلغهم خبر فتحها، فأقاموا هنالك. وأغذّ السلطان أبو العباس السير إلى فاس، فلقيه خبر فتحها بتاوريرت، فتقدّم إلى ملوية وتردّد في رأيه بين المسير إلى سجلماسة مع العرب أو قصد المغرب. ثم استمرّ عزمه ونازل بتازى وأقام فيها أربعاً. وتقدم إلى الركن، وأهل دولته خلال ذلك يخوضون في الانتقاض عليه تسللاً إلى ابن عمّه السلطان موسى المتولي على فاس. ويوم أصبح مرتحلا من الركن أرجفوا به. ثم انتقضوا عليه طوائف قاصدين فاس ورجع هو إلى تازى بعد أن انتهب معسكره واضرمت النار في خيامه وخزائنه. ثم صبح بتازى من ليلته، فدخلها وعاملها يومئذ الخيّر من موالي السلطان أبي الحسن. وذهب محمد بن عثمان إلى وليّ الدولة ونزمار ابن عريف وأمراء المغرب من المعقل. ولما دخل السلطان أبو العباس إلى تازى، كتب إلى ابن عمّه السلطان موسى يذكره العهد بينهما. وقد كان السلطان ابن الأحمر عهد إليه أن يبعث به إليه إن ظفر به، فبادر السلطان موسى باستدعائه مع جماعة من وجوه بني عسكر، أهل تلك الناحية: وهم زكرياء بن يحيى بن سليمان ومحمد بن داود بن عراب، ومعهم العباس بن عمر الوسناني فجاؤا به وأنزلوه بالزاوية بغدير الحمص بظاهر فاس، فقيّد هنالك. ثم بعثه إلى الأندلس موكلاً به مع عمر بن رحّو أخي الوزير مسعود بن ماساي. واستصحب معه ابنه أبا فارس. وترك سائرهم بفاس وأجاز البحر من سبتة،

فأنزله السلطان ابن الأحمر بقلعة ملكه الحمراء. وفكّ قيوده ووكّل به ووسّع له في الجراية. فأقام هنالك

محتاطا به، إلى أن كان ما نذكره إن شاء الله تعالى.

نكبة الوزير محمد بن عثمان ومقتله:

أصل هذا الوزير من بني الكاس إحدى بطون بني ورتاجن. وكان بنو عبد الحق عندما تأثلوا ملكهم بالمغرب يستعملون منهم في الوزارة. وربّما وقعت بينهم هنالك وبين الحشم وبني فودود المختصين بالوزارة عندهم مزاحمة، أجازوا بسببها إلى الأندلس. وربما وقع بينهم هنالك وبين بني ادريس وبني عبد الله منافسة، قتلوا فيها بعض بني الكاس ونشأ غازي بن ألكاس منهم في دولة السلطان أبي سعيد وابنه أبي الحسن وتهذب بالخلال. ثم استوزره السلطان أبو الحسن بعد مهلك وزيره يحيى بن طلحة بن محلى بمكانه من حصار تلمسان، وقام بوزارته أعواما، وحضر معه واقعة طريف سنة إحدى وأربعين وسبعمائة من هذه المائة واستشهد فيها. ونشأ ابنه أبو بكر في ظلّ الدولة ممتعاً بحسن الكفالة وسعة الرزق. وكانت أمّه أمّ ولد، وخلفه عليها ابن عمه محمد بن عثمان هذا الوزير، فنشأ أبو بكر في حجره. وكان أعلى رتبة منه بأولية أبيه وسلفه، حتى إذا بلغ أشدّه واستوى، سمت به الخلال، وجالت أبصار الملوك في اختياره وترشيحه، حتى استوزره السلطان عبد العزيز كما قلناه وقام بوزارته أحسن قيام، وأصبح محمد بن عثمان هذا رديفه. وهلك السلطان عبد العزيز، فنصّب الوزير أبو بكر ابنه السعيد للملك صبياً لم يثغر. وكان من انتقاض أمره وحصاره بالبلد الجديد واستيلاء السلطان أبي العباس عليه ما قدمناه. قام محمد بن عثمان بوزارة السلطان أبي العباس مستبدا عليه ودفع إليه أمور ملكه وشغل بلذّاته، فقام محمد بن عثمان من أمور الدولة ما عاناه، حتى كان من استيلاء السلطان موسى على ملكهم ما مرّ. وانفض بنو مرين عن السلطان أبو العباس وفارقه محمد بن عثمان إلى ولي الدولة ونزمار بن عريف وهو مقيم بظاهر تازى. وتذمم له فتجهم له ونزمار وأعرض عنه، فسار معداً إلى أحياء المنيات من

عرب المعقل. كانوا هنالك قبلة تازى لذمّة صحابة كانت بينه وبين شيخهم أحمد بن عبّو، فنزل عليه متذمّماً به، فخادعه وبعث بخبره إلى السلطان، فجهز إليه عسكرا مع المزوار عبد الواحد بن محمد بن عبّو بن قاسم وزروق بن بومريطت والحسن العوفي من الموالي، فتبرأ منه العرب وأسلموه إليهم، فجاؤا به وأشهروه يوم دخوله إلى فاس. واعتقل أياماً وامتحن في سبيل المصادرة ثم استصفى، ثم قتل ذبحاً بمحبسه. والله وارث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين.

خروج الحسن بن الناصر بغمارة ونهوض الوزير إلي ماساي إليه بالعساكر:

لما استقل السلطان موسى بملك المغرب وقام مسعود بن ماساي بوزارته مستبداً عليه، وكان من تغريبهم السلطان أبا العباس إلى الأندلس ونكبتهم وزيره محمد بن عثمان وقتلهم إياه، وافتراق أشياع الوزير محمد بن عثمان قرابته وبطانته، فطلبوا بطن الأرض، ولحق منهم ابن أخيه العبّاس بن المقداد بتونس، فوجد هنالك الحسن بن الناصر ابن السلطان أبي علي قد لحق بها من مقره بالأندلس في سبيل طلب الملك، فثاب له رأي في الرجوع إلى المغرب لطلب الأمر هنالك. فخرج به من تونس وقطع المفاوز، والمشاق إلى أن انتهى إلى جبل غمارة ونزل على أهل الصفيحة منهم، فأكرموا مثواه وتلقيه وأعلنوا بالقيام بدعوته. واستوزر العباس بن المقداد. وبلغ الخبر إلى مسعود بن ماساي بفاس، فجهز العساكر لطلبه مع أخيه مهدي بن ماساي، فحاصرها بجبل الصفيحة أياماً. وامتنع عليهم، فتجهز الوزير مسعود بن ماساي بالعساكر من دار الملك وساروا لحصاره. ثم رجع من طريقه لما بلغه من وفاة السلطان بعده. والله أعلم.

وفاة السلطان موسي والبيعة للمنتصر ابن السلطان أبي العباس:

كان السلطان موسى لما استقل بملك المغرب، استنكف من استبداد ابن ماساي عليه

وداخل بطانته في الفتك به. وأكثر ما كان يفاوض في ذلك كاتبه وخالصته محمد ابن كاتب أبيه وخالصته محمد بن أبي عمر. وكان للسلطان موسى ندمان يطلعهم على الكثير من أموره منهم العباس بن عمرو بن عثمان الوسناقي، وكان الوزير مسعود بن ماساي قد خلف أبا عمر على أمّه وربي في حجره، فكان يدلي إليه بذلك وينهي إليه ما يدور في مجلس السلطان في شأنه، فحصلت للوزير بسبب ذلك نفرة طلب لأجلها البعد عن السلطان. وبادر الخروج لمدافعة الحسن القائم بغمارة، واستخلف على دار الملك أخاه بعيش بن رحو بن ماساي. فلما انتهى إلى القصر الكبير لحقه الخبر بوفاة السلطان موسى، وكانت وفاته في شهر جمادى الاخرة. طرقه المرض فهلك ليوم وليلة لثلاث سنين من خلافته، حتى كان الناس يرمون يعيش أخا الوزير بأنه سمّه. وبادر يعيش فنصب ابن عمه للملك، وهو المنتصر ابن السلطان أبي العبّاس. وانكفأ لوزير مسعود راجعا من القصر، وقتل السبيع محمد بن موسى بن إبراهيم من طبقة الوزراء، وقد مر ذكر قومه، وكان اعتقله أيام السلطان موسى فقتله بعد وفاته. واستمرت أمور الدولة

في استقلاله، والله أعلم.

اجازة الواثق محمد بن أبي الفضل ابن السلطان أبي الحسن

في الاندلس والبيعة له بفاس:

كان الوزير مسعود بن ماساي لما استوحش من السلطان موسى، بعث ابنه يحيى

وعبد الواحد المزوار إلى السلطان ابن الأحمر يسأل منه إعادة السلطان أبي العباس إلى ملكه، فأخرجه ابن الأحمر من الاعتقال وجاء به إلى جبل الفتح يروم إجازته إلى العدوة. فلما توفي السلطان موسى بدا للوزير مسعود في أمره ودس للسلطان ابن الأحمر ردّه، وأن يبعث إليه بالواثق محمد بن أبي الفضل ابن السلطان أبي الحسن من القرابة المقيمين عنده. ورآه أليق بالاستبداد والحجر، فأسعفه ابن الأحمر في ذلك ورد السلطان أحمد إلى مكانه بالحمراء. وجاء بالواثق، فحضر بجبل الفتح عنده وفي خلال

ذلك وصل جماعة من أهل الدولة انتقضوا على الوزير مسعود ولحقوا بسبتة وأجازوا إلى السلطان ابن الأحمر: وهم يعيش بن علي بن فارس الياباني

وسيور بن يحيي بن عمر الونكاسني وأحمد بن محمد الصبيحي، فدفع إليهم الواثق ورجعوا به إلى المغرب على أنهم في خدمة الوزير، حتى إذا انتهو إلى جبل زرهون المطل على مكناسة اظهروا الخلاف على الوزير وصعدوا إلى قبائل زرهون واعتصموا بجبلهم. ولحق بهم من كان على مثل دينهم من الخلاف على ابن ماساي وصاروا معهم يداً. مثل طلحة بن الزبير الورتاجني، وسيور بن يحياتن بن عمر الونكاسني، ومحمد التونسي من بنى أبي الطلاق وفارح بن مهدى من معلوجي السلطان، وأصله من موالي بني زيان ملوك تلمسان.

وكان أحمد بن محمد الصبيحي حين جاء مع الواثق، قد استطال على أصحابه وأظهر الاستبداد، بما كان من طائفة الجند المستخدمين، فغص به أهل الدولة وتبرأوا منه للسلطان الواثق، فأظهر لهم البراءة منه، فوثبوا به وقتلوه عند باب خيمة السلطان. وتولى كبر ذلك يعيش بن علي بن فارس الياباني كبير بني مرين، فذهب مثلا في الغابرين ولم تبك عليه سماء ولا أرض. وكان زورق ابن توقريطت من موالي بني علي بن زيان من شيوخ بني وانكاسن، وكان من أعيان الدولة ومقدمي الجند، قد انتقض على الدولة أيام السلطان موسى ولحق بأحياء أولاد حسين من عرب المعقل، المخالفين منذ أيام السلطان موسى. ونزل على شيخهم موسى بن علي بن غانم، لذمة صحابة بينهما من جوارهم في المواطن. وكان معه في ذلك الخلاف محمد بن يوسف بن علال، كان أبوه يوسف من صنائع السلطان أبي الحسن ونشأة دولته استوحشا من الوزير، فلحقا بالمغرب. فلما جاء هذا السلطان الواثق قدما عليه، فلقيهما بالتكرمة وأحلهما في مقامهما من الدولة. وخرج الوزير ابن ماساي في العساكر ونزل قبالتهم بجبل مغيلة وقاتلهم هناك أياما. وداخل الذين مع الواثق واستمالهم. وبعث عساكر إلى مكناسة فحاصروها، وكان بها يومئذ عبد الحق بن الحسن بن يوسف الورتاجني، فاستنفرله منها وملكها. وترددت المراسلات بينه وبين الواثق وأصحابه على أن ينصبه للأمر. ويبعث بالمنتصر المنصوب عنده إلى أبيه السلطان أبي العباس بالأندلس وانعقد الأمر بينهم على ذلك. وسار الواثق

في أصحابه إلى الوزير ابن ماساي، فنزل عليه. ومضى يعيش بن علي بن فارس عنهم ذاهبا لوجهه. وسار الوزير بالواثق إلى دار الملك،

فبايعه في شوال سنة ثمان وثمانين وسبعمائة، بعد أن اشترط عليه لنفسه وأصحابه ما شاء. وأجاز سلطانه المنتصر إلى أبيه السلطان أبي العباس بالأندلس، وقبض على جماعة ممن كان مع الواثق: مثل المزوار عبد الواحد وقتله، وعلى فارح بن مهدي وحبسه. وعلى الخير مولى الأمير عبد الرحمن وامتحنه. وعلى آخرين سواهم. ثم قبض على جماعة من بطانة السلطان موسى، كانوا يداخلونه في القبض والفتك به، فحبسهم وقتل بعضهم. وعلى جند الأندلس الذين جاءوا مداداً للواثق. وعلى قوادهم من معلوجي ابن الأحمر، فأودعهم السجون. ثم قبض على كاتب السلطان موسى بن أبي الفضل محمد بن أبي عمر، مرجعه من السفارة عن سلطانه إلى الأندلس، فاعتقله وصادره، ثم أخلى سبيله. ثم بعث إلى الحسن بن الناصر الثائر بجبل الصفيحة من غماره مع ادريس بن موسى بن يوسف الياباني، فخادعه باستدعائه للملك والبيعة له، فخدعه واستنزله. وجاء به، فاعتقله الوزير أياماً. ثم أجازه إلى الأندلس واستقر الأمر على ذلك. والله أعلم.

الفتنة بين الوزير ابن ماساي وبين السلطان ابن الاحمر واجازة السلطان أبي العباس إلى سبتة، لطلب ملكها واستيلاؤه عليها:

لما بايع الوزير ابن ماساي للواثق ورأى أنه قد استقل بالدولة ودفع عنها الشواغب،

صرف نظره إلى استرجاع ما فرط من أعمال الدولة، وافتتح أمره بسبتة. وكان السلطان موسى لأول إجازته، أعطاها لابن الأحمر كما مر، فبعث إليه الآن الوزير ابن ماساي في ارتجاعها منه على سبيل الملاطفة، فاستشاط لها ابن الأحمر ولج في الرد، فنشأت الفتنة لذلك. وجهز ابن ماساي العساكر لحصار سبتة مع العباس ابن عمر بن عثمان الوسنافي ويحيى بن علال بن أمصمود والرئيس محمد بن محمد الأبكم من بني الأحمر، ثم من بيت السلطان الشيخ، فاتح أمرهم وممهد دولتهم. وراسل سلطان إشبيلية والجلالقة من بني أدفونش وراء البحر، بأن يبعث إليه ابن عم السلطان ابن الأحمر محمد بن إسمعيل مع الرئيس الأبكم، ليجلبا من ناحيته على الأندلس. وجاءت عساكر الوزير إلى سبتة، فحاصروها ودخلوها عنوة.

واعتصم حامية الأندلس الذين كانوا بها بالقصبة. واتصلت الجولة بين الفريقين وسط البلد. وأوفد

أهل القصبة النيران بالجبل، علامة على أمرهم، لبراها ابن الأحمر. وكان مقيماً بمالقة، فبادر بتجهيز الأسطول مشحوناً بالمقاتلة مدداً لهم. ثم استدعى السلطان أبا العباس من مكانه بالحمراء وأركبه السفين إلى سبتة، فأصبح بالقصبة في غرة صفر سنة تسع وثمانين وسبعمائة. وأشرف عليهم من الغد وناداهم من السور يدعوهم إلى طاعته. فلما رأوه اضطربوا وافترقوا. وخرج إليهم، فنهب سواددهم ودخلوا في طاعته متسايلين. ورجع جمهور العرب ومقدموهم إلى طنجة. واستولى السلطان على مدينة سبتة. وبعث إليه ابن الأحمر بالنزول عنها وردها إليه، فاستقرت في ملكه وكملت بها بيعته. وكان يوليه أمور الضيفان الواردين. والله تعالى أعلم.

مسير السلطان أبي العباس من سبتة، لطلب ملكه بفاس ونهوض ابن ماساي لدفاعه ورجوعه منهزما:

لما استولى السلطان أبو العباس على سبتة وتم له ملكها، اعتزم على المسير لطلب

ملكه بفاس. وأغراه ابن أحمر بذلك ووعده بالمداد، بما كان من مداخلة ابن ماساي لجماعة من بطانته في أن يقتلوه ويملكوا الرئيس الأبكم. يقال إن الذي داخله في ذلك، من بطانة ابن الأحمر، يوسف بن مسعود البلنسي ومحمد ابن الوزير أبي القاسم بن الحكيم الرندي. وشعر بهم السلطان ابن الأحمر وهو يومئذ على جبل الفتح، يطالع أمور السلطان أبي العباس، فقتلهم جميعاً وإخوالهم. ويقال إن ذلك كان بسعاية القائم على دولته مولاه خالد، كان يغص بهم ويعاودهم، فاحتال عليهم بهذه وتمت سعايته بهم، فاستشاط ابن الأحمر غضباً على ابن ماساي. وبعث إلى السلطان أبي العباس يستنفره للرحلة إلى طلب ملكه، فاستخلف على سبتة رخو ابن الزعيم المكدودي عاملها من قبل كما مر. وصار إلى طنجة، وعاملها من قبل الواثق صالح بن حمو الياباني، ومعه بها الرئيس الأبكم من قبل العساكر، فحاصرها أياماً وامتنعت عليه، فجمر عنهم الكتائب وسار عنها إلى أصيلاً، فدخلت في دعوته وملكها. ونهض الوزير ابن فارس في العساكر، بعد أن استخلف أخاه يعيش على دار

الملك وسار. ولحقت مقدمته باصيلا، ففارقها السلطان أبو العباس وصعد إلى جبل الصفيحة فاعتصم به. وجاء الوزير ابن ماسي، فتقدم إلى حصاره بالجبل وجمع عليه رماة الرجل من الأندلس الذين كانوا بطنجة. وأقام يحاصره بالصفيحة شهرين. وكان يوسف بن علي بن غانم، شيخ أولاد حسين من عرب المعقل، مخالفاً على الوزير مسعود وداعية للسلطان أبي العباس وشيعة له، وكان يراسل ابن الأحمر في شأنه. فلما سمع باستيلائه على سبتة وإقباله على فاس، جمع أشياعه من العرب ودخل إلى بلاد المغرب ونزل ما بين فاس ومكناسة. وشن الغارات على البسائط واكتسحها. وأرجف الرعايا وأجفلوا إلى الحصون. وكان ونزمار بن عريف ولي الدولة شيعة للسلطان، وكان يكاتبه وهو بالأندلس ويكاتب ابن الأحمر في شأنه. فلما اشتد الحصار على السلطان بالصفيحة، بعث ابنه أبا فارس إلى ونزمار، بمكانه من نواحي تازى. وبعث معه سيور بن يحياتن بن عمر، فقام ونزمار بدعوته وسار به إلى مدينة نازى، وعاملها سليمان بن بوحياة الغودودي من قرابة الوزير ابن ماساي. فلما نزل به أبو فارس ابن السلطان بادر إلى طاعته وأمكنه من البلد، فاستولى عليها واستوزر سليمان هذا. وسار إلى صفروي ومعه ونزمار للإجتماع بعرب المعقل واصفاقهم على حصار فاس. وكان محمد بن الدمعة عاملاً على ورغة، فبعث إليه السلطان عسكراً مع العباس بن المقداد ابن أخت الوزير محمد بن عثمان، فقتلوه وجاؤا برأسه. ونجم الخلاف على يعيش نائب البلد الجديد من كل جهة وطير يعيش بن ماساي النائب بدار الملك، بالخبر بذلك كله إلى أخيه، بمكانه من حصار السلطان بالصفيحة، فانفضت عنه العساكر وأجفل راجعاً إلى فاس. وسار السلطان في اتباعه. ودخل في طاعته عامل مكناسة الخير مولى الأمير عبد الرحمن. ولقيه يوسف بن علي بن غانم ومن معه من أحياء العرب، وساروا جميعاً إلى فاس. وكان أبو فارس ابن السلطان، قد رحل من تازى إلى صفيروا للقاء أبيه، فاعترضه الوزير ابن ماساي في العساكر، ورجا أن يفله. ولقيه ببني بهلول، فنزع أهل المعسكر إلى أبي فارس. ورجع الوزير منهزماً ودخل البلد الجديد، فاعتصم بها. وبلغ خبره إلى السلطان وهو بمكناسة، فارتحل يغذ السير إلى فاس. وسار ابنه أبو فارس للقائه، فلقيه

على وادي النجا. وصبحوا البلد الجديد، فنزلوا عليها بجموعهم. وقد اعتصم بها الوزير في أوليائه وبطانته، ومعه يغمراسن بن محمد

السالفي ورهائن بني مرين، الذين استرهنهم عند مسيره معهم للقاء السلطان بأصيلا. والله أعلم.

ظهور دعوة السلطان أبي العباس في مراكش واستيلاء أوليائه عليها:

كان الوزير مسعود بن ماساي، قد ولى على مراكش وأعمال المصامدة، أخاه عمر

ابن رحو، وكانت البلاد منتظمة في طاعته. فلما بلغ الخبر بوصول السلطان إلى سبتة واستيلائه عليها، تطاولت رؤوس أوليائه إلى إظهار دعوته بجبل الهساكرة، وشيخهم علي بن زكريا. وبعث الوزير مسعود من مكانه بحصار السلطان بالصفيحة في امداده بالعساكر من مراكش، فخف إليه مخلوف بن سليمان الوارتيبي صاحب الأعمال ما بين مراكش والسوس، وقعد الباقون عن قصده وتفرقوا. وصعد أبو ثابت حافد علي بن عمر إلي جبل الهساكرة، ومعه يوسف بن يعقوب بن علي الصبيحي، فاستمد من علي بن زكريا ورجع إلى مراكش مجلباً على عمر بن رحو، فناوشه القتال ساعة. ثم غلبه على البلد وملكها من يده ونزل بقصبة الملك. وحبس عمر بن رحوبها وكتب إلى السلطان بذلك، وهو بمكناسة متوجها إلى فاس، فكتب إليه بأن يصله بعساكر مراكش لحصار دار الملك، فجمع العساكر واستخلف على قصبة مراكش بعض بني عمه ولحق بالسلطان وأقام معه في حصار البلد الجديد. والله أعلم.

ولاية المنتصر ابن السلطان أبي علي على مراكش واستقلاله بها:

كان السلطان أبو العباس حين ملك المغرب بعث ابنه محمد المنتصر في البحر إلى سلا،

واستوزر له عبد الحق بن الحسن بن يوسف، فوصل إلى سلا وأقام بها. ومر به زروق بن توفريطت، راجعاً من دكالة. وقد بلغه نزول السلطان على البلد الجديد، فتلطف في استدعائه، ثم قبض عليه وبعث به إلى أبيه مقيداً، فأودعه السجن وقتل بعد ذلك في بمحبسه. ثم بعث السلطان إلى ابنه المنتصر بولاية مراكش وأن يسير إليها، فلما وصل امتنع النائب بالقصبة من أن يمكنه من البلد، إلا أن يدخل إليه منفرداً عن أصحابه وبطانته. وكان علي بن عبد العزيز شيخ هنتاتة مداخلاً لنائب القصبة، فدس لعبد الحق وزير المنتصر أن النائب قد هم بقتله. وحينئذ تمكن المنتصر من القصبة، فأجفل بالمنتصر وصعد إلى جبل هنتاتة. وطير بالخبر إلى السلطان، فتغير لأبي ثابت وأمره بأن يكاتب نائبه بتمكين ابنه من القصبة. واستوزر له سعيد بن عبدون وبعثه بالكتاب، وعزل عبد الحق عن وزارة ابنه. واستدعاه إلى فاس، فوصل سعيد بن عبدون إلى مراكش ودفع إلى النائب بالقصبة كتاب مستخلفه، فأجاب إلى الامتثال وأمكنه من القصبة واعتزل منها فدخلها. وبعث عن المنتصر ابن السلطان واستولوا عليها، وقبضوا على نائب عامر الذي كان بها وسائر شيعته وبطانته. وامتحنوهم واستصفوهم، إلى أن كان ما نذكره إن شاء الله تعالى.

حصار البلد الجديد وفتحها ونكبة الوزير ابن ماساي ومقتله.

لما نزل السلطان على البلد الجديد واجتمع إليه سائر قبيله وأوليائه وبطانته، داخل الوزير مسعوداً الحنق على وجوه بني مرين لانتباذهم عنه. وهم بقتل أبنائهم الذين

استرهنوهم على الوفاء له، فلاطفه يغمراسن السالفي في المنع من ذلك، فأقصر عنه. وضيق السلطان مخنقه بالحصار ثلاث أشهر، حتى دعا إلى النزول والطاعة، فبعث السلطان إليه ولي الدولة ونزمار بن عريف وخالصته محمد بن يوسف، بن علال، فعقد معهم الأمان لنفسه ولمن معه، على أن يستمر على الوزارة ويبعث بسلطانه الواثق إلى الأندلس. واستحلفهم على ذلك وخرج معهم إلى السلطان، فدخل السلطان البلد الجديد خامس رمضان سنة تسع وثمانين وسبعمائة لثلاثة أعوام وأربعة أشهر من خلعه. ولحين دخوله قبض على الواثق

وبعث به معتقلاً إلى طنجة حتى قتل بها بعد ذلك. ولما استوى على أمره قبض على الوزير ابن ماسي ليومين من دخوله وعلى إخوانه وحاشيته. وامتحنهم جميعاً، فهلكوا في العذاب. ثم سلط على مسعود من العذاب والانتقام ما لا يعبر عنه. ونقم عليه ما فعله بدور بني مرين النازعين إلى السلطان بأنه كان متى هرب منه أحد منهم يعمد إلى بيوته فينهبها ويخربها، فأمر السلطان بعقابه في أطلالها، فكان يوتى به إلى كل بيت منها، فيضرب عشرين سوطاً إلى أن أفحش فيه العذاب وتجاوز الحد. ثم أمر به فقطع، فهلك عند قطع الثانية من الأربعة، فذهب مثلاً في الآخرين.

وزارة محمد بن علال:

كان أبوه يوسف بن علال من نشأة الدولة وصنيعة السلطان أبي الحسن. وربي في
داره. ولما ضخم أمره سما به إلى ولاية الأعمال، فولاه على درعة، فأثرى وأنجب وباهى أولياء الدولة. ثم ولاه السلطان أبو عنان أمر مطبخه ومائدته وضيوفه واستكفى في ذلك، وولاه أخوه أبو سالم بعده كذلك. ثم بعثه على سجلماسة فعاش بها من أمور العرب مشقة. وعزله عنها، فهلك بفاس. وكان له جماعة من ولد نشأوا في ظل هذه النعمة، وحدثت النجابة بمحمد منهم. فلما ولي السلطان أبو العباس، استعمله في أمور الضياف والمائدة كما كانت لأبيه. ثم رقاه إلى المخالصة وخلطه بنفسه. فلما خلع السلطان واستولى الوزير ابن ماسي على المغرب، وكانت بينه وبين أخيه يعيش بن ماسي إحن قديمة، فسكن لصولتهم. حتى إذا اضطرمت نار الفتنة بالمغرب وأجلب عرب المعقل في الخلاف، استوحش محمد هذا، فلحق بأحيائهم مع زروق بن توقريطت كما مر ذكره. ونزلا على يوسف بن علي بن غانم شيخ أولاد حسين وأقاما معه في خلافه. حتى إذا أجاز السلطان الواثق من الأندلس ووصل مع أصحابه إلى جبل زرهون، وأظهروا الخلاف على الوزير ابن ماسي، بادر محمد هذا وزروق إلى السلطان ودخلا في طاعته، متبرئين من النفاق الذي حملهم عليه

عداوة الوزير ابن ماسي. فما كان إلا أن انعقد الصلح بين الواثق وابن ماسي، وسار به وبأصحابه إلى فاس. وحصلوا في قبضة ابن ماسي، فعفا لهم عما كان منهم واستعملهم في معهود ولايتهم ثم جاء الخبر بإجازة السلطان أبي العباس إلى سبتة، فاضطرب محمد بن يوسف وذكر لخالصة السلطان ومنافرة بني ماساي، فأجمع أمره ولحق بسبتة، فتلقاه السلطان بالكرامة. وبر بمقدمه ودفعه إلى القيام بأمر دولته، فلم يزل متصرفاً بين يديه، إلى أن نزل على البلد الجديد. ولأيام من حصارها، خلع عليه للوزارة ودفعه إليها، فقام بها أحسن قيام. ثم كان الفتح وانتظمت أمور الدولة، ومحمد هذا يصرف الوزارة على أحسن أحوالها، إلى أن كان ما نذكره إن شاء الله تعالى.

ظهور محمد بن السلطان عبد الحليم بسجلماسة:

قد تقدم لنا عند ذكر السلطان عبد الحليم ابن السلطان أبي علي، وكان يدعى

بحلى كيف، بايع له بنو مرين وأجلبوا به على عمر بن عبد الله، سنة ثلاث وستين وسبعمائة، أيام بيعته للسلطان أبي عمر ابن السلطان أبي الحسن. وحاصروا معه البلد الجديد، حتى خرج لدفاعهم وقاتلهم، فانهزموا وافترقوا. ولحق السلطان عبد الحليم بتازى وأخوه عبد المؤمن بمكناسة، ومعه ابن أخيهما عبد الرحمن بن أبي يفلوسن. ثم بايع الوزير عمر بن عبد الله لمحمد بن أبي عبد الرحمن ابن السلطان أبي الحسن. واستبدل به من أبي عمر، لما كان بنو مرين يرمونه به من بالجنون والوسوسة. فاستدعى محمد بن أبي عبد الرحمن من مطرح اغترابه بإشبيلية وبايع له. وخرج في العساكر لمدافعه عبد المؤمن وعبد الرحمن عن مكناسة، فلقيهما وهزمهما، ولحقا بالسلطان عبد الحليم بتازى وساروا جميعاً إلى سجلماسة فاستقروا فيها، والسلطان لعبد الحليم. وقد تقدم خبر ذلك كله في أماكنه. ثم كان الخلاف بين عرب المعقل أولاد حسين والأحلاف. وخرج عبد المؤمن للإصلاح بينهم، فبايع له أولاد حسين ونصبوه كرهاً للملك. وخرج السلطان عبد الحليم إليهم في جموع الأحلاف فقاتلوه وهزموه. وقتلوا كبار قومه: كان منهم يحيى بن

رحو بن تاشفين بن معطي شيخ بني تيربيغن وكبير دولة بني مرين، أجلت المعركة عن قتله. ودخل عبد المؤمن البلد منفرداً بالملك.

وصرف السلطان أخاه عبد الحليم إلى المشرق لقضاء فرضه لرغبته في ذلك، فسار على

طريق القفر مسلك الحاج من التكرور، إلى أن وصل القاهرة، والمستبد بها يومئذ يلبغا الخاصكي، على الأشرف شعبان بن حسين، من أسباط الملك الناصر محمد بن قلاوون، فأكرم وفادته ووسع نزله وجرايته، وأدر لحاشيته الأرزاق. ثم أعانه على طريقه إلى الحج بالأزواد والآنية والظهر من الكراع والخف. ولما انصرف من حجه زوده لسفر المغرب. وهلك بتروجه سنة سبع وستين ووسبعمائة. ورجع حاشيته إلى المغرب بحرمه وولده. وكان ترك محمداً هذا رضيعاً، فشب متقلباً بين الدول من ملك إلى آخر منتبذاً عن قومه لغيرة بني السلطان أبي الحسن من بني عمهم السلطان أبي علي.

وكان أكثر ما يكون مقامه عند أبي حمو سلطان بني عبد الواد بتلمسان، لما يروم به من الأجلاب على المغرب ودفع عادية بني مرين عنهم. فلما وقع بالمغرب من انتقاض عرب المعقل على الوزير مسعود بن ماساي سنة تسع وثمانين وسبعمائة ما وقع واستمروا على الخلاف عليه، انتهز أبو حمو الفرصة وبعث بمحمد بن علي هذا إلى المعقل ليجلبوا به على المغرب، ويمزقوا من ملكه ما قدروا عليه، فلحق بأحيائهم ونزل على الأحلاف الذين هم أمس رحماً بسجلماسة وأقرب موطناً إليها. وكان الوزير مسعود بن ماساي قد ولى عليها من قرابته عليّ بن إبراهيم بن عبو بن ماسي. فلما ظهر عليه السلطان أبو العباس وضيق مخنقه بالبلد الجديد، دس إلى الأحلاف وإلى قريبه علي بن إبراهيم أن ينصبوا محمد ابن السلطان عبد الحليم يملكوه سجلماسة ويجلبوا به على تخوم المغرب، ليأخذوا بحجزة السلطان أبي العباس عنه وينفسوا من خناقه، ففعلوا ذلك. ودخل محمد إلى سجلماسة، فملكها وقام علي بن إبراهيم بوزارته، حتى إذا استولى السلطان أبو العباس على البلد الجديد وفتك بالوزير مسعود بن ماسي وبإخوته وسائر قرابته، اضطرب علي بن إبراهيم وفسد ما بينه وبين سلطانه محمد، فخرج عنه من سجلماسة وعاد إلى أبي حمو سلطان تلمسان كما كان.

ثم زادت هواجس علي بن إبراهيم وارتيابه فخرج عن سجلماسة وتركها ولحق بأحياء العرب. وسارت طائفة منهم معه إلى أن أبلغوه مأمنه. ونزل على السلطان أبي حمو إلى أن هلك، فسار إلى تونس وحضر وفاة

السلطان أبي العباس بها سنة ست وتسعين وسبعمائة. ولحق محمد ابن السلطان عبد الحليم بعد مهلك أبي حمو بتونس. ثم ارتحل بعدد وفاة السلطان أبي العباس إلى المشرق في سبيل جولة ومطاوعة واغتراب والله تعالى أعلم.

نكبة ابن أبي عمر ومهلكه وحركات ابن حسون:

لما استقل السلطان بملكه واقتعد سريره، صرف نظره إلى أولياء تلك الدولة ومن يرتاب منه. وكان محمد بن أبي عمرو، وقد تقدم ذكره وأوليته، من جملة خواصه وأوليائه وندمائه. وكان السلطان يقسم له من عنايته وجميل نظره ويرفعه على نظرائه. فلما ولي السلطان موسى نزعت به إليه نوازع المخالصة لأبيه من السلطان أبي عنان. فقد كان أبوه من أعز بطانته كما مر، فاستخلصه السلطان موسى للشورى ورفعه على منابر أهل الدولة. وجعل إليه كتابه علامته على المراسم السلطانية، كما كان لأبيه. وكان يفاوضه في مهماته ويرجع إليه في أموره، حتى غص له أهل الدولة ونمي عنه للوزير مسعود بن ماسي أنه يداخل السلطان في نكبته. وربما سعى عند سلطانه في جماعة من بطانة السلطان أحمد، فأتى عليهم النكال والقتل لفلتات كانت بينهم وبينه في مجالس المنادمة عند السلطان حقدها لهم. فلما ظفر بالحظ من سلطانه، سعى بهم فقتلهم. وكان القاضي أبو إسحق إبراهيم اليزناسي من بطانة سلطانه وكان يحضر مع ندمائه، فحقد له ابن أبي عمرو بعض الكلمات. وأغرى به سلطانه فضربه وأطافه، وجاء بها شنعاء غريبة في القبح. وسفر عن سلطانه إلى الأندلس، وكان يمر بمنزل السلطان هذا ومكان اعتقاله. وربما تلقاه فلم يلم بتحية ولا يوجب له حقاً، فاحفظ ذلك السلطان. ولما فرغ من أمر ابن ماساي، قبض على ابن أبي عمرو هذا وأودعه السجن. ثم امتحنه بعد أيام، إلى أن هلك ضرباً بالسياط، عفا الله عنه. وحمل إلى داره. وبينما أهله يجهزونه إلى قبره، إذا بالسلطان قد أمر بأن يسحب في نواحي البلد إبلاغاً في التنكيل، فحمل من نعشه، وقد ربط حبل من رجله وسحب في سائر انحاء المدينة. ثم ألقي على بعض الكثبان من أطرافها وأصبح مثلا في الآخرين. ثم قبض السلطان على حركات بن حسون النياطي وكان مخباً في الفتنة موضعاً. وكان العرب المخالفون من المعقل، ولما أجاز السلطان إلى سبتة، وحركات هذا بتادلا، أرادوه على طاعة السلطان فامتنع أولا. ثم أكرهوه وجاؤا به

إلى السلطان، فطوى له على ذلك حتى استقام أمره. وملك البلد الجديد، فقبض عليه وامتحنه إلى أن هلك. والله وارث الأرض ومن عليها.

خلاف علي بن زكريا بجبل الهساكرة ونكبته:

لما ملك السلطان البلد الجديد واستوى على ملكه، وفد عليه علي بن زكريا شيخ هسكورة مستصباً بما قدم من سوابقه. وقد كان حضر معه حصار البلد الجديد واستدعاه، فجاء بقومه وعساكر المصامدة. وأبلى في حصارها، فرعى السلطان سوابقه وولاه الولاية الكبرى على المصامدة على عادة الدولة في ذلك. ثم وفد بعده محمد بن إبراهيم المبرازي من شيوخ المصامدة، وكانت له ذمة صهر مع الوزير محمد بن يوسف بن علال على أخته، فولاه السلطان مكان علي بن زكريا فغضب لها علي واستشاط وبادر إلى الانتقاض والخلاف. ونصب بعض القرابة من بني عبد الحق، فجهز إليه السلطان العساكر مع محمد بن يوسف بن علال وصالح بن حمو الياباني. وأمر صاحب درعة، وهو يومئذ عمر بن عبد المؤمن بن عمر أن ينهد إليه بعساكر درعة من جهة القبلة، فساروا إليه وحاصروه في جبلة. وجاولوه مرات ينهزم في جميعها، حتى غلبوه على جبلة. وسار إلى إبراهيم بن عمران الصناكي المجاور له في جبلة، فاستذم به. وخشي إبراهيم معرة الخلاف والغلب، ورغبه الوزير محمد بن يوسف بمال بذله له، فأمكنه منه. وقبض عليه الوزير وجاء به إلى فاس، فأدخله في يوم مشهود وشفره واعتقل. فلم يزل في الاعتقال إلى أن هلك السلطان أبو العباس. وارتاب به أهل الدولة بعده، فقتلوه كما نذكره إن شاء الله تعالى.

وفادة أبي تاشفين علي السلطان أبي العباس صريخا علي أبيه ومسيره بالعساكر ومقتل أبيه السلطان أبي حمو:

كان أبو تاشفين ابن السلطان أبي حمو قد وثب على أبيه آخر ثمان وثمانين وسبعمائة

بممالئته لغيره من إخوته، واعتقله بوهران. وخرج في العساكر لطلب إخوته المنتصر وأبي زيان وعمير، وامتنعوا عند حصين بجبل تيطرى فحاصرهم أياماً. ثم تذكر غائلة أبيه، فبعث ابنه أبا زيان. في جماعة من بطانته: منهم موسى ابن الوزير عمران بن موسى وعبد الله ابن جابر الخراساني، فقتلوا بعض ولده بتلمسان ومضوا إليه وهو بمحبسه في وهران. فلما شعر بهم أسرف من الحصن ونادى في أهل المدينة متذمماً بهم، فهرعوا إليه. وتدلى إليهم في عمامته وقد احتزم بها، فأنزلوه وأحدقوا به وأجلسوه على سريره. وتولى كبر ذلك خطيب البلد ابن خزورت ولحق أبو زيان بن أبي تاشفين ناجياً إلى تلمسان. واتبعه السلطان أبو حمو، ففر منها إلى أبيه. ودخل أبو حمو تلمسان وهي طلل وأسوارها خراب، فأقام فيها رسم دولته. وبلغ الخبر إلى أبي تاشفين، فأجفل من تيطرى. وأغذ السير، فدخلها. واعتصم أبوه بمئذنة المسجد، فاستنزله منها وتجافى عن قتله. ورغب إليه أبو حمو في رحلة المشرق لقضاء فرضه، فأسعفه وأركبه السفين مع بعض تجار النصارى إلى الإسكندرية موكلاً به. فلما حاذى مرسى بجاية لاطف النصارى في تخلية سبيله، فاسعف وملك أمره. وبعث إلى صاحب الأمر ببجاية يستأذنه في النزول، فأذن له. وسار منها إلى الجزائر واستخدم العرب، واستصعب عليه أمر تلمسان، فخرج إلى الصحراء. وجاء إلى تلمسان من جهة المغرب وهزم عساكر ابنه أبي تاشفين وملكها. وخرج أبو تاشفين هارباً منها، فلحق بأحياء سويد في مشاتيهم. ودخل أبو حمو تلمسان قي رجب سنة تسعين وسبعمائة. وقد تقدم شرح هذه الأخبار كلها مستوعبة.

ثم وفد أبو تاشفين مع محمد بن عريف شيخ سويد على السلطان أبي العباس صريخاً على أبيه ومؤملاً الكرة بإمداده، فتقبله السلطان وأجمل له المواعيد. وأقام أبو تاشفين في انتظارها، والوزير محمد بن يوسف بن علال يعده ويمنيه ويحلف له على الوفاء. وبعث السلطان أبو حمو إلى السلطان ابن الأحمر، لما علم من استطالته على دولة بني مرين كما مر، يتوسل إليه في أن يصدهم عن صريخ أبي تاشفين وإمداده عليه، فجلا ابن الأحمر في ذلك وجعلها من أهم حاجاته. وخاطب السلطان أبا العباس في أن يجهز إليه

أبا تاشفين، فتعلل عليه في ذلك بأنه استجار بابنه أبي فارس، واستذم به.

ولم يزل الوزير ابن علال يفتل لسلطانه ولابن الأحمر في

الذروة والغارب، حتى تم أمره وأنجز له السلطان بالنصر موعده. وبعث ابنه الأمير أبا فارس والوزير ابن علال في العساكر صريخين له، وانتهوا إلى تازى. وبلغ الخبر إلى أبي حمو، فخرج من تلمسان في عساكره واستألف أولياءه من عبد الله. ونزل بالغيران من وراء جبل بني ورنيد المطل على. تلمسان، وأقام هنالك متحصناً بالجبل وجاءت العيون إلى عساكر بني مرين بتازى من مكانه هو وأعرابه من الغيران، فأجمعوا غزوه. وسار الوزير ابن علال وأبو تاشفين وسلكوا القفر، ودليليهم سليمان بن ناجي من الاحلاف. ثم صبحوا أبا حمو ومن معه من أحياء الخراج بمكانهم من الغيران، فجاولوهم ساعة، ثم ولوا منهزمين وكبا بالسلطان أبي حمو فرسه، فسقط وأدركه بعض أصحاب أبي تاشفين فقتلوه قعصاً بالرماح وجاؤا برأسه إلى ابنه أبي تاشفين والوزير ابن علال، فبعثوا به إلى السلطان وجيء بابنه عمير أسيراً، فهم أخوه أبو تاشفين بمتله، فمنعه بنو مرين أياماً. ثم أمكنوه منه فقتله، ودخل إلى تلمسان اخر سنة إحدى وتسعين وسبعمائة. وخيم الوزير وعساكر بني مرين بظاهر البلد، حتى دفع إليهم ما شارطهم عليه من المال. ثم قفلوا إلى المغرب، وأقام أبو تاشفين بتلمسان يقيم دعوة السلطان أبي العباس صاحب المغرب ويخطب له على منابر تلمسان وأعمالها، ويبعث إليه بالضريبة كل سنة، كما اشترط على نفسه. وكان أبو حمو ملك تلمسان، ولى ابنه أبا زيان على الجزائر. فلما بلغه مقتل أبيه امتعض ولحق بأحباء حصين ناجياً وصريخاً. وجاءه وفد بني عامر من زغبة يدعونه للملك، فسار إليهم. وقام بدعوته شيخهم المسعود بن صغير، ونهضوا جميعاً إلى تلمسان في رجب سنة إثنتين وتسعين وسبعمائة، فحاصروها أياماً. ثم سرب أبو تاشفين المال في العرب، فافترقوا عن أبي زيان. وخرج إليه أبو تاشفين، ابنه صريخاً إلى المغرب، فجاءه بمدد من العسكر. ولما انتهى إلى تاوريرت، أفرج أبو زيان عن تلمسان وأجفل إلى الصحراء. ثم أجمع رأيه على الوفادة إلى صاحب المغرب، فوقد عليه صريخاً، فتلقاه بالتكرمة وبر مقدمه ووعده النصر من عدوه. وأقام عنده إلى حين مهلك أبي تاشفين. والله أعلم.

وفاة أبي تاشفين واستيلاء صاحب المغرب علي تلمسان:

لم يزل هذا الأمير أبو تاشفين مملكاً على تلمسان ومقيماً فيها لدعوة صاحب المغرب أبي العباس ابن السلطان أبي سالم ومؤدياً الضريبة التي فرضها عليه، منذ ملك. وأخوه الأمير أبو زيان مقيم عند صاحب المغرب ينتظر وعده في النصر عليه، حتى تغير السلطان أبو العباس على أبي تاشفين في بعض النزعات الملوكية، فأجاب داعي أبي زيان وجهزه بالعساكر لملك تلمسان. فسار لذلك منتصف سنة خمس وتسعين وسبعمائة وانتهى إلى تازى، وكان أبو تاشفين قد طرقه مرض أزمنه، ثم هلك منه في رمضان من السنة. وكان القائم في دولته أحمد بن العز من صنائعهم وكان يمت إليه بخؤولة، فولى بعده مكانه صبياً من ابنائه، وقام بكفالته. وكان يوسف بن أبي حمو وهو ابن الزابية والياً على الجزائر من قبل أبي تاشفين، فلما بلغه الخبر أغذ السير مع العرب ودخل تلمسان، وقتل أحمد بن العز والصبي المكفول ابن أخيه أبى تاشفين. فلما بلغ الخبر إلى السلطان أبي العباس صاحب المغرب صاحب المغرب خرج إلى تازى وبعث من هنالك ابنه أبا فارس في العساكر، ورد أبا زيان ابن أبي حمو إلى فاس ووكل به. وسار أبو فارس إلى تلمسان، فملكها وأقام فيها دعوة إبيه. وتقدم وزير أبيه صالح بن أبي حمو إلى مليانة، فملكها وما بعدها من الجزائر وتدلس إلى حدود بجاية. واعتصم يوسف بن الزابية بحصون تاجحمومت. وأقام الوزير صالح يحاصره. وانقرضت دولة بني عبد الواد من المغرب الأوسط. والله غالب على أمره.

وفاة السلطان أبي العباس صاحب المغرب واستيلاء أبي زيان ابن أبي حمو علي تلمسان والمغرب الأوسط:

كان السلطان أبو العباس بن أبي سالم، لما وصل إلى تازى وبعث ابنه أبا فارس إلى تلمسان فملكها، أقام هو بتازى يشارف أحوال ابنه ووزيره صالح الذي تقدم لفتح البلاد الشرقية. وكان يوسف بن علي بن غانم أمير أولاد حسين من المعقل، قد حج

سنة ثلاث وتسعين وسبعمئة واتصل بملك مصر من الترك الملك الظاهر برقوق. وتقدمت إلى السلطان فيه وأخبرته بمحله من قومه، فأكرم تلقيه وحمله بعد قضاء حجه هدية إلى صاحب المغرب، يطرفه فيها بتحف من بضائع بلده على عادة الملوك. فلما قدم يوسف بها على السلطان أبي العباس، أعظم موقعه. وجلس في مجلس حفل لعرضها والمباهاة بها. وشرع في المكافأة عليها بتجهيز الجياد والبضائع والثياب، حتى استكمل من ذلك ما رضيه. واعتزم على إنفاذها مع يوسف بن علي حاملها الأول. وإنه يرسله من تازى لأيام مقامته تلك، فطرقه هنالك مرض كان فيه حتفه في شهر محرم سنة ست وتسعين وسبعمائة. واستدعوا ابنه أبا فارس من تلمسان، فبايعوه بتازى وولوه مكانه، ورجعوا به إلى فاس. وأطلقوا أبا زيان بن أبي حمو من الاعتقال. وبعثوا به إلى تلمسان أميراً عليها وقائما بدعوة السلطان أبي فارس فيها، فسار إليها وملكها. وكان أخوه يوسف بن الزابية قد اتصل بأحياء بني عامر يروم ملك تلمسان والاجلاب عليها، فبعث إليهم أبو زيان عندما بلغه ذلك. وبذل لهم عطاء جزيلاً على أن يبعثوا به إليه، فأجابوه إلى ذلك وأسلموه إلى ثقاة أبي زيان. وساروا به، فاعترضهم بعض أحياء العرب ليستنقذوه منهم، فبادروا بقتله وحملوا رأسه إلى أخيه أبي زيان، فسكنت أحواله وذهبت الفتنة بذهابه، واستقامت أمور دولته. وهم ذلك لهذا العهد. والله غالب على أمره.

وقد انتهى بنا القول في دولة بني عبد الواد من زناتة الثانية، وبقي علينا خبر الرهط اللذين تحيزوا منهم إلى بني مرين من أول الدولة. وهم بنو كمي من فصائل علي بن القاسم إخوة طاع الله بن علي وخبر بني كندوز أمرائهم بمراكش. فلنرجع إلى ذكر أخبارهم، وبها نسوق الكلام في أخبار بني عبد الواد. والله وارث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين.

524

خريطة

الخبر عن القرابة المرشحين من آل عبد الحق الامراء علي الغزاة المجاهدين بالاندلس، الذين قاسموا ابن الاحمر في ملكه وانفردوا برياسة جهاده:

كانت الجزيرة الأندلسية من وراء البحر منذ انقضاء أمر بني عبد المؤمن وقيام ابن الأحمر بأمرها، قليلة الحامية، ضعيفة الأحوال، إلا من يلهمه الله إلى عمل الجهاد من قبائل زناتة المؤملين كرة الملك والمقتسمين ممالك الغرب، خصوصاً بني مرين أهل المغرب الأقصى، لاتصال عدوة الأندلس ببسائطه وتعدد الفراض ببحر الزقاق القريب العدوتين. وما زال هذا الزقاق على قديم الزمان لأجل ذلك فرضة دون سواحل المغرب. (ولما استولى) بنو مرين على ممالكه وضاقت أحوال المسلمين بالأندلس. وبمخنقهم الطاغية حتى ألجأهم إلى سيف البحر واستأثر بالفرنتيرة وما وراءها. واستأثر بنو القمط أهل برشلونة وقطلونية بشرق الأندلس. وانتشر في الأقطار ما كان من أمر قرطبة واختيها إشبيلية وبلنسية. وامتعض لذلك المسلمون وتنافسوا في الجهاد وإمداد الأندلس بأموالهم وأنفسهم وسابق الناس إلى ذلك الأمير أبو زكريا بن أبي حفص بما كان صاحب الوقت والمؤمل للكرة، فاستنقذ الكثير من أمواله ومقرباته في أمدادهم، بعد أن كانوا آثروا القيام بدعوته، وأوفدوا عليه المشيخة ببيعته. وكان ليعقوب بن عبد الحق أمل في الجهاد وحرص عليه. واعتزم في سلطان أخيه أبي يحيى على الإجارة، فمنعه ضنانة به على الاغتراب منه. وأوعز إلى صاحب سبتة يومئذ أبي علي بن خلاص بمنعه منها، فوعر له السبيل وشبه عليه المذاهب.

ولم ينشب يعقوب بن عبد الحق، أن قام بسلطان المغرب، بعد أخيه أبي يحيى وشغل بشأنه. وأهمه شأن بني أخيه إدريس بن عبد الحق، بما كان فيهم من الترشيح والمنافسة لبنيه. واستأذنه عامر بن ادريس منهم في الجهاد بالعداوة، فاغتنمها منه وعقد له من مطوعة زناتة على ثلاثة آلاف أو يزيدون. وأجاز معه رخو ابن عمه عبد الله بن عبد الحق. وفصلوا إلى الأندلس سنة إحدى وستين وسبعمائة، فحسنت

آثارهم في الجهاد وكرمت مقاماتهم. تم رجع عامر بن إدريس إلى المغرب وكثر انتقاض القرابة. ونافسهم أقيال زناتة في مثلها، فاجتمع أبناء الملوك بالمغرب الأوسط مثل عبد الملك بن يغمراسن ابن زيان وعايد بن منديل بن عبد الرحمن وزيان بن محمد بن عبد القوي فتعاقدوا على الإجازة إلى الجهاد، فأجازوا فيمن خف معهم من قومهم سنة ست وسبعين وستمائة، فامتلأت الأندلس بأقيال زناته وأعياص الملك منهم. وكان فيمن أجاز من أعياصهم بنو عيسى بن يحيى بن وسناف بن عبو بن أبي بكر بن حمامة. ومنهم سليمان بن إبراهيم، وكانت لهم آثار في الجهاد ومقامات محمودة، وكان موسى بن رحو، لما نازله السلطان وبني أبيه عبد الله بن عبد الحق بحصن علودان ونزلوا على عهده، لحق بتلمسان. وكان بنو عبد الله بن عبد الحق وإدريس بن عبد الحق عصبة من بين سائرهم، لأن عبد الله وإدريس كانا شقيقين لسوط النساء بنت عبد الحق، فاقتفى أثر يعقوب بن عبد الله بن محمد ابن عمه إدريس وخرج على السلطان بقصر كتامة سنة ثلاث وستين وستمائة. ثم استرضاه عمه واستنزله. وبقي يعقوب بن عبد الله في انتقاضه ينتقل في الجهات، إلى أن قتله طلحة بن محلى من أولياء السلطان سنة ثمان وستين وستمائة بجهة سلا، فكفى السلطان شأنه. ولما كان من عهد السلطان لابنه أبي مالك ما قدمناه، نفس عليه هؤلاء القرابة هذا الشان، فانتقضوا ولحق محمد بن إدريس بحصن علودان. ولحق موسى بن رحو بن عبد الله بجبال غمارة ومعه أولاد عمه أبي عياد بن عبد الحق. ونازلهم السلطان، حتى نزلوا على عهده. وأجازهم إلى الأندلس سنة سبعين وستمائة، فأقاموا بها للجهاد سوقاً. ونافستهم أقيال زنانة في مثلها بتلمسان. وأجاز منها إلى الأندلس سنة سبعين وستمائة، فولاه السلطان ابن الأحمر على جميع الغزاة المجاهدين هنالك بما كان كبش كتيبتهم وفحل شولهم. ولم يلبث أن عاد إلى المغرب، فولى السلطان مكانه أخاه عبد الحق. ثم رجع عنهم مغاضبا إلى تلمسان، فولى مكانه على الغزاة المجاهدين إبراهيم بن عيسى بن يحيى بن وسناف، إلى أن كان ما نذكره إن شاء الله تعالى.

الخبر عن موسي بن رحو فاتح هذه الرياسة بالأندلس وخبر أخيه عبد الحق من بعده وابنه حمو بن عبد الحق بعدهما:

لما هلك السلطان الشيخ ابن الأحمر وولي ابنه السلطان الفقيه، ووفد على السلطان يعقوب بن عبد الحق صريخاً للمسلمين، فأجاز إليه أول إجازته سنة ثلاث وسبعين وستمائة وأوقع بجيوش النصرانية. وقتل الزعيم دننه واستوى له الغلب على الأندلس، وبدا لابن الأحمر في أمره وخشي مغبته. وتوقع أن يكون شأنه معه شأن يوسف بن تاشفين والمرابطين مع ابن عباد. وكان بالأندلس من قرابته بنو أشقيلولة قد قاسموه في ممالكها وانفردوا بوادي آش ومالقة وقمارش، حسبما ذكرناه في أخباره مع السلطان. وانتقض عليه أيضاً من رؤساء الأندلس أبو عبدويل وابن الدليل، فكانوا يجلبون على بلاد المسلمين. وكانوا قد أستنجدوا جيوش النصرانية ونازلوا غرناطة وعاثوا في الجهات. فلما استوت قدم السلطان يعقوب بن عبد الحق بالأندلس وصل هؤلاء الثوار به أيديهم، فخشيهم ابن الأحمر جميعاً على نفسه. وقلب للسلطان أبي يوسف ظهر المجن واستظهر عليه بالأعياص من قرابته. وكان هؤلاء القرابة من أولاد رحو بن عبد الله وإدريس بن عبد الله وإدريس بن عبد الحق– وينسبون جميعاً إلى سوط النساء كما ذكرناه، من أولاد أبي عياد بن عبد الحق– لما أوجسوا الخيفة من السلطان واستشعروا النكير منه، لحقوا بالأندلس ثورية بالجهاد وانتباذا عن الشول فراراً عن محله. ولد كان السلطان أبو يوسف متى أحس بريبة منهم في ذلك، إذا انتقضوا عليه، يشخصهم إلى الأندلس، فاجتمعت منهم عند ابن الأحمر عصابة من أولاد عبد الحق كما قلناه وأولاد وسناف وأولاد نزول وتاشفين بن معطي كبير تيربيغن من بني محمد. وتبعهم أولاد محلي أخوال السلطان أبي يوسف وكان ابن الأحمر كثيراً ما يعقد لهم على الغزاة المجاهدين من زناتة لدار الحرب، فعقد أولا لموسى بن رحو سنة ثلاث وسبعين وستمائة ولأخيه عبد الحق بعد انصرافه إلى المغرب، ثم لابراهيم بن عيسى بعد انصرافهما معا كما قلناه. ثم رجعاً فعقد لموسى بن رحو ثانية على أشياخه،

وثبت له قدماً في الرياسة، ليحسن به دفاع السلطان أبي يوسف عنهم. ثم تداولت الإمارة فيهم ما بينهم وبين عمومتهم. وربما عقد قبل ذلك أزمان الفترة لعلي بن أبي عياد بن عبد الحق في بعض الغزوات، ولتاشفين بن معطي في أخرى سنة تسع وسبعين وستمائة ومعه طلحة بن محلي، فاعترضوا الطاغية دون حصن المسلمين وكان لهم الظهور. ثم حدثت الفتنة بينه وبين السلطان أبي تاشفين. وعقد ابن الأحمر في إحدى حروبه معه لعلي بن أبي عياد على زناتة جميعاً وحاشهم إلى رايته، فانفضت جموع السلطان أبي يوسف وظهروا عليه. وتقبضوا في المعركة على ابنه منديل واستاقوه أسيراً، إلى أن أطلقه السلطان ابن الأحمر، في سلم عقده بعد مهلكه، مع ابنه يوسف بن يعقوب. واستبد موسى بن رحو من بعدهما بإمارة الغزاة بالأندلس، إلى أن هلك، فوليها كلت بعده أخوه عبد الحق إلى أن هلك سنة تسع وتسعين وستمائة، وكان مظفر الراية على عدو المسلمين. ولما هلك ولي من بعده ابنه حمو بن عبد الحق، فكانت هذه الإمارة متصلة في بني رحو، إلى أن انتقلت منهم إلى إخونهم من بني أبي العلاء وغيرهم. واندرج حمو في جملة عثمان بن أبي العلاء من بعده حسبما نذكر. وأما إبراهيم بن عيسى الوسنافي، فرجع إلى المغرب ونزل على يوسف بن يعقوب وقتله، بمكانه من حصار تلمسان بعد حين من الدهر، وبعد أن كبر وعمي. والله مالك الأمور لا رب غيره. وكان مهلك يعلى بن أبي عياد، سنة سبع وثمانين ومعطي بن بوتاشفين، سنة تسع وثمانين وستمائة. وطلحة بن محلي سنة ست وثمانين وستمائة. والله أعلم.

الخبر عن عبد الحق بن عثمان شيخ الغزاة بالأندلس:

كان عبد الحق هذا من أعياص الملك المريني ويعاسيبهم، وهو من ولد محمد بن عبد الحق ثاني الأمراء على بني مرين بعد أبيهم عبد الحق. وهلك أبوه عثمان بن محمد بالأندلس، إحدى أيام الجهاد سنة تسع وسبعين وستمائة. وربي ابنه عبد الحق هذا في حجر السلطان يوسف بن يعقوب، إلى أن كان من أمر خروجه مع الوزير رحو بن يعقوب على السلطان أبي الربيع ما ذكرناه في أخباره. ولحق بتلمسان وأجاز منها إلى الأندلس،

وسلطانه يومئذ أبو الجيوش ابن السلطان الفقيه. وشيخ زناتة بها حمو بن عبد الحق بن رحو. وخاطبهم السلطان أبو العباس ملك المغرب في اعتقاله، فأجابوه وفر من محبسه ولحق بدار الحرب. ولما انتقض أبو الوليد ابن الرئيس أبي سعيد وبايع لنفسه بمالقة وزحف إلى غرناطة، فنازلها ووقعت الحرب بظاهرها بين الفريقين. وأخذ في بعض أيامها حمو محن عبد الحق أسيراً وسيق إلى السلطان أبي الوليد. وكان معه عمه العباس بن رحو، فأبى من أسار ابن أخيه وخلى عنه، فرجع إلى سلطانه، فارتاب به لذلك. وعقد على الغزاة مكانه لعبد الحق بن عثمان، استدعاه من مكانه بدار الحرب. ثم غلبهم أبو الوليد على غرناطة. وتحول أبو الجيوش إلى وادي آش، على سلم انعقد بينهم، وسار معه عبد الحق بن عثمان على شأنه. ثم وقعت بينه وبين أبي الجيوش مغاضبة لحق لأجلها بالطاغية وأجاز إلى سبتة، فاستظهر به يحى بن أبي طالب العزفي أيام حصار السلطان أبي سعيد اياه، فكان له في حماية ثغره والدفاع ونه آثار مذكورة. ثم عقد السلطان أبو سعيد السلم ليحيى العزفي وأفرج عنه، فارتحل عبد الحق بن عثمان إلى أفريقية. ونزل ببجاية سنة تسع عشرة وسبعمائة على أبيب عبد الرحمن بن عمر صاحب السلطان أبي يحيى المستبد بالثغور الغربية، فأكرم نزله، وأوسع قراه. وضرب له الفساطيط بالرشة من ساحة البلد استبلاغاً في تكريمه وحمله وأصحابه على مائة وخمسين من الخيل ثم أقدمهم على السلطان بتونس فبر مقدمهم، وخلط عبد الحق بنفسه وآثره بالخلة والصحابة، وأخله بمكان الاستظهار به بعصابته. ولما عقد السلطان لمحمد بن سيد الناس على حجابته سنة سبع وعشرين وستمائة واستقدمه لذلك من ثغر بجاية كما ذكرناه، فعظمت رياسته واستغلظ حجابه. وحجب عبد الحق ذات يوم عن بابه، فسخطها وانصرف مغاضباً. وداخل أبا فارس في الخروج على أخيه، فأبي به وخرج معه صت تونس، فكان من خبرهم ومقتل أبي فارس وخلوص عبد الحق إلى تلمسان ونزوله على أبي تاشفين وغزوه إلى أفريقية مع عساكر بني عبد الواد، سنه تسع وعشرين وسبعمائة، ما ذكرناه في أخبار الدولة الحفصية. ثم لما رجع بنو عبد الخالق إلى تلمسان صمد مولانا السلطان أبو يحيى إلى تونس

في

أخريات سنته. وفر ابن أبي عمران، السلطان المنصوب بتونس من بني أبي حفص إلى أحياء العرب. وتقبض على أبي زيان ابن أخي عبد الحق بن عثمان في لمة من أصحابه، فقتلوا قعصاً بالرماح. ورجع عبد الحق بن عثمان إلى مكانه من تلمسان، فأقام بمثواه عند أبي تاشفين متبوئاً من الكرامة والاعتزاز ما شاء، إلى أن هلك بمهلك أبي تاشفين يوم اقتحم السلطان أبو الحسن تلمسان عليهم سنة سبع وثلاثين وسبعمائة. وقتلوا جميعاً عند قصر الملك أبو تاشفين وابناه عثمان ومسعود وحاجبه موسى بن علي ونزيله عبد الحق هذا وأبو ثابت ابن أخيه، فقطعت رؤوسهم وتركت أشلاؤهم بساحة القصر عبرة للمعتبرين، حسبما ذكرناه في أخبار أبي تاشفين. والبقاء لله وحده.

الخبر عن عثمان بن أبي العلاء، من أمراء الغزاة المجاهدين بالأندلس:

كان أولاد سوط النساء من ولد عبد الحق، أهل عصابة واعتزاز على قومهم، وهم أولاد إدريس وعبد الله ابنيها لشقيقين كما ذكرناه. وكان مهلك إدريس الأكبر يوم مهلك أبيه بتافرطنيت ومهلك عبد الله قبله. وخلف عبد الله ثلاثة من الولد، تشعب فيهم نسله: وهم يعقوب ورخو وإدريس. واستعمل أبو يحيى بن عبد الحق يعقوباً منهم على سلا عند افتتاحه إياها سنة تسع وأربعين وسبعمائة. ثم انتزى بها بعد ذلك على عمه يعقوب سنة ثمان وخمسين وسبعمائة، وكان من شأن ثورة النصارى بها ما ذكرناه، واستخلصها يعقوب بن عبد الحق. ولحق يعقوب بن عبد الله بعلودان من بلاد غمارة وامتنع بها. خرج على أثره بنو عمه إدريس: وهما عامر ومحمد وانتزوا بالقصر الكبير، ولحق بهم كافة أولاد سوط النساء. وطلبهم السلطان، فلحقوا بجبال غمارة ونازلهم، ثم استنزلهم بعد ذلك على الأمان. وعقد لعامر على الغزو إلى الأندلس سنة ستين وستمائة كما ذكرناه، وأجاز معه رحو ابن عمه عبد الله. ورجع محمد بن عامر وفر إلى تلمسان سنة ثمانين وستمائة وأجاز منها إلى الأندلس.

ثم خرجوا على السلطان يعقوب بن عبد الحق سنة تسع وستين وستمائة، ومعهم أولاد أبي
عياد بن عبد الحق واعتصموا بعلودان. واستنزلهم السلطان على اللحاق بتلمسان، فلحقوا بها. وأجاز أولاد سوط النساء وأولاد أبي عياد كافة إلى الأندلس واستقروا بها يومئذ. ورجع عامر منهم ومحمد، وكان من خبرهم ما نذكر. وهلك يعقوب بن عبد الله سنة ثمان وستين وستمائة في اغترابه وانتزائه بقفوله من رباط الفتح، قتله طلحة بن محلى. واستقر بنوه من أولاد سوط النساء بالمغرب. وكان ابنه أبو ثابت أميراً على بلاد السوس، أيام السلطان يوسف بن يعقوب وأوقع بزكنة سنة تسع وتسعين وستمائة، ولم يزل وبنوه بالمغرب من يومئذ. وكان من إخوانه أبو العلاء ورحو إبنا عبد الله بن عبد الحق، تشعب نسله فيهما: وأجاز رحو ألى الأندلس مع عامر ومحمد ابني عمه إدريس. ثم أجاز ابنه موسى سنة تسع وستين وستمائة، مع أولاد أبي عياد وأولاد سوط النساء. ثم رجع إلى محله من الدولة، وفر بابنه سنة خمس وسبعين وستمائة إلى تلمسان، فأجاز منها إلى الأندلس واستقر بها. وأجاز أولاد أبي العلاء سنة خمس وثمانين وستمائة مع أولاد أبي يحيى بن عبد الحق وأولاد عثمان بن نزول واسقروا بالأندلس، وكانوا يرجعون في رياستهم إلى كبيرهم عبد الله بن أبي العلاء. وعقد له ابن الأحمر على الغزاة من زناتة، فيمن كان يعقد لهم من زناتة قبل استقرار المنصب، إلى أن هلك شهيداً في إحدى غزواته سنة ثلاث وتسعين وستمائة. وعقد المخلوع ابن الأحمر لأخيه عثمان بن أبي العلاء، على حامية مالقة وغربيها من الغزاة، لنظر ابن عمه الرئيس أبي سعيد فرج بن إسمعيل بن يوسف بن نصر. ولما غدر الرئيس أبو سعيد بسبتة سنة خمس وسبعمائة، وتمت له الحيلة في تملكها واضطرمت نار العداوة بينهم وبين صاحب المغرب، فنصبوا عثمان هذا للأمر وأجازوه إلى غمامرة، فثار بها ودعا لنفسه وتغلب على أصيلا والعرائش، ثم على القصر. وكان من ذلك ما ذكرناه، إلى أن غلبه أبو الربيع سنة ثمان وستمائة ورجع إلى مكانه من الأندلس. ولما اعتزم أبو الوليد ابن الرئيس أبي سعيد على الخروج على أبي الجيوش صاحب غرناطه، وداخل

في ذلك شيخ الغزاة بمالقة عثمان بن أبي العلاء، فساعده عليه واعتقل أباه الرئيس أبا سعيد وزحف

إلى غرناطة سنة أربع عشرة وسبعمائة. فلما استولى عليها، عقد لعثمان هذا على إمارة الغزاة المجاهدين من زناتة وصرف عنها عثمان بن عبد الحق بن عثمأد، للحق بوادي آش مع أبي الجيوش. وصار حمد بن عبد الحق بن رحو في جملته، بعد أن كان شيخاً على الغزاة كما قلناه. واستمرت أيام ولاية عثمان هذا وبعد فيها صيته، وغص صاحب المغرب أبو سعيد بمكانه. ولما استصرخه المسلمون للجهاد سنة ثمان عشرة وسبعمائة، اعتذر بمكان عثمان هذا واشترط عليهم القبض عليه، حتى يرجع عنهم فلم يمكن ذلك. ونازل الطاغية غرناطة وحاصرها، وكان لعثمان وبنيه في ذلك آثار مذكورة. وأتاح الله للمسلمين في النصرانية، على يد عثمان هذا وبنيه، ما لم تخطر على قلب أحد منهم، فتأكد اغتباط الدولة والمسلمين بمكانهم إلى أن هلك أبو الوليد سنة خمس وعشرين وسبعمائة، باغتيال بعض الرؤساء من قرابته، بمداخلة عثمان هذا زعموا في غدره، ونصب للأمر ابنه محمد صبياً لم يبلغ الحلم. وقام بأمره وزيره محمد بن المحروق من صنائع دولتهم، فاستبد عليه وألقى زمام الدولة بيد عثمان في النقض والإبرام، فاعتز عليهم وقاسمهم في الأمر، واستأثر في أعطيات الغزاة بكثير من أموال الجباية، حتى خشي الوزير على الدولة. وأدار الرأي في كبحه عن التغلب، فجمح وفسد ما بينه وبين الوزير ابن المحروق، فانتقض عليه وخرج مغاضباً، فاضربت فساطيطه بمرج غرناطة. واعصوصب جماعة الغزاة من قبائل زناتة عليه. واعتصم الوزير وأهل الدولة بالحمراء وسعى النائب بينهما أياماً. وأدار الوزير الرأي في أن ينصب له كفؤاً من قرابته، يجاذبه الحبل ويشغله بشأنه عن الدولة، فجأجأ بيحيى بن رحو بن عبد الحق وكان في جملة عثمان وصهراً له، فدخل إليه وعقد له على الغزاة، وتسايلوا إليه. وتفرد عثمان بمعسكره في عشيره وولده وعقد معه السلم، على أن يجيز إلى المغرب. ووافدد بطانته لذلك على السلطان أبي سعيد سنة ثمان وعشرين وسبعمائة. وارتحل من ساحة غرناطة في ألف فارس، زعموا من ذويه وأقاربه وحشمه. وقصد المرية ليجعلها فرضة لمجازه، حته إذا حاذى اندوش.

وكان بينه وبين رؤسائها مداخلة، فخرجوا إليه مؤدين حق مبرته، فغدر بهم وأركب إليها، فملكها وأنزل بها حرمه وأثقاله. ودعا محمد ابن الرئيس أبي سعيد من شلوبانية وكان منزلاً بها، فجاء إليه ونصبه للأمر. وشن الغارات على غرناطة صباحاً ومساءً واضطرمت نار الفتنة. واستركب يحيى بن رحو من قدر عليه من زناته. وطالت الحرب سنين، حتى إذا فتك السلطان محمد بن الأحمر بوزيره ابن المحروق، واستدعى عثمان بن أبي العلاء، وعقد له السلم، على أن يجيز عمه محمد إلى المغرب ويلحق بغرناطة لشأنه من رياسة الغزاة، فتم ذلك سنة تسع وعشرين وسبعمائة ورجع إلى مكانه من الدولة وهلك إثر ذلك. والبقاء لله وحده.

الخبر عن رياسة إبنه أبي ثابت من بعده ومصير أمرهم:

لما هلك شيخ الغزاة ويعسوب زناتة عثمان بن أبي العلاء، قام بأمره في قومه ابنه أبو ثابت عامر. وعقد له السلطان أبو عبد الله بن أبي الوليد على الغزاة المجاهدين كما كان أبوه، فعظم شأنه قوة شكيمة وكثرة عصابة ونفوذ رأي وبسالة. وكان لقومه اعتزاز على الدولة، بما عجموا من عودها وكانوا أولي بأس وقوة فيها واستبداد عليها. وكان السلطان محمد بن أبي الوليد مستنكفاً من الاستبداد عليه في القلة والكثرة فكان كثيراً ما يحقدهم بتسفيه آرائهم والتضييق عليهم في جاههم. ولما وفد على السلطان أبي الحسن سنة إثنتين وثلاثين وسبعمائة، صريخاً على الطاغية، واستغذ ابنه الأمير أبا مالك لمنازلته جبل الفتح، اتهموه بمداخلة السلطان أبي الحسن في شأنهم، فتنكروا وأجمعوا الفتك به، وداخلوا في ذلك بعض صنائعه ممن كان متربصاً بالدولة فساعدهم. ولما افتتح الجبل وكان من شأنه ما قدمنا ذكره، وزحف الطاغية فأناخ عليه، وقصد ابن الأحمر الطاغية في بينه راغباً أن يرجع عن الحصن، فرجع

وافترقت عساكر المسلمين، ارتحل السلطان ابن الأحمر إلى غرناطة سنة ثلاث وثلاثين وسبعمائة ولد قعدوا له بمرصد من طريقه. ونمي إليه الخبر ردعا بأسطوله لركوب البحر إلى مالقة. واستبق إليهم الخبر بذلك، فتبادروا إليه ولقوه بطريقه من ساحل اصطبونة، فلاحوه وعاتبوه في شأن صنيعته عاصم من معلوجاته. وحاجهم عنه، فاعتوروا عاصماً بالرماح، فنكر ذلك عليهم، فألحقوه به وخر صريعاً عن مركوبه وبعثوا إلى أخيه يوسف، فأعطوه بيعتهم وصفقة أيمانهم ورجعوا به إلى غرناطة وهو حذر منهم لفعلتهم التي فعلوا، واستمرت الحال على ذلك. ولما استكمل السلطان أبو الحسن فتح تلمسان وصرف عزائمه إلى الجهاد، داخل ابن الأحمر في إزاحتهم عن الأندلس مكان جهاده، فصادف منه إسعافاً وقبولاً وحرصاً على ذلك. وتقبض على أبي ثابت وإخوته إدريس ومنصور وسلطان. وفر أخوه سليمان، فلحق بالطاغية وكان له في يوم طريف أثر في الإيقاع بالمسلمين. ولما تقبض ابن الأحمر على أبي ثابت وإخوته،. أودعهم جميعا المطبق أياماً. ثم غربهم إلى أفريقية، فنزلوا بتونس على مولانا السلطان أبي يحيى. وأوعز إليه السلطان أبو الحسن بالتوثق منهم أن يتصلوا بنواحي المغرب ويخالفوه إليها أيام شغله بالجهاد في الأندلس، فاعتقلهم وأوفد بهم أبا محمد عبد الله بن تافر كين إلى سدة السلطان أبي الحسن. وكتب إليه شفيعا فيهم، فتقبل شفاعته. وأحسن نزلهم وكرامتهم، حش إذا احتل بسبتة، أيام حصار الجزيرة سنة ثلاث وأربعين وسبعمائة، سعى بهم عنده فتقبض عليهم واعتقلهم بمكناسة. ولما انتزى ابنه الأمير أبو عنان على الأمر وهزم منصور ابن أخيه أبي مالك صاحب فاس ونازله بالبلد الجديد، بعث فيهم إلى مكناسة، فأطلقهم من الاعتقال وأفاض فيهم الإحسان والعطاء، واستظهر بهم على شأنه. وأحل أبا ثابت محل الشورى من مجلسه، وداخل إدريس أخاه في المكر بالبلد الجديد، فنزع إليها ومكر بهم وثار عليهم، إلى أن نزلوا على حكم السلطان أبي عنان، فعقد لأبي ثابت على سبتة وبلاد الريف ليشارف منها الأندلس محمل إمارته. وأطلق يده في المالى والجند وفصل لذلك، فهلك بالطاعون يومئذ سنة تسع وأربعين وسبعمائة بمعسكره إزاء معسكر السلطان من حصار البلد الجديد. واستقر إخوانه في إيالة

السلطان أبي عنان بالمغرب الأقصى، إلى أن كان من مفر أخيه إدريس وولايته على الغزاة بالأندلس، ما نذكره إن شاء الله تعالى.

و تصاريفه: كان رحو بن عبد الله كبير ولد عبد الله بن عبد الحق، وكان له بنون كثيرون تشعب نسله فيهم: منهم موسى وعبد الحق والعباس وعمر ومحمد وعلي ويوسف. وأجازوا
كلهم إلى الأندلس مع أولاد سوط النساء من تلمسان كما قدمناه. وأقام عمر بعدهم بتلمسان مدة واتخذ بها الأهل والولد. ثم لحقهم وولى موسى إمارة الغزاة بعد إبراهيم ابن عيسى الوسنافي وبعده أخوه عبد الحق على الغزاة، أقام بها مدة وأجاز منها إلى سبتة مع الرئيس أبي سعيد وعثمان بن أبي العلاء سنة خمس وسبعمائة وولي بها على الغزاة المجاهدين. ثم رجع إلى الأندلس ولم يلبث بعدها أن أجاز إلى المغرب. ونزل على السلطان أبي سعيد، فأكرم نزله، ثم رجع إلى الأندلس. ولما ولي إمارة الغزإة عثمان بن أبي العلاء، وكان بينهم من المنافسة ما يكون بين فحول الشول، فأشخص بني رحو جميعاً إلى أفريقية، فنزلوا على مولانا السلطان أبي يحيى خير نزل، اصطفاهم واستخلصهم واستظهر بهم في حروبه: وهلك عمر بن رحو ببلاد الجريد، وقبره ببشرى من نفزاوة معروف ونزع ابنه يحيى من بين إخوته عن مولانا السلطان أبي يحمى وصار في جملة ابن أبي عمران، ثم لحق بزواوة وأقام في بني يراتن سنين، ثم أجاز إلى الأندلس واستقر بمكانه من قومه. واصطفاه عثمان بن أبي العلاء وأصهر إليه في ابنته. ولما فسد ما بينه وبين ابن المحروق وزير السلطان بغرناطة سنة سبع وعشرين وسبعمائة واعصوصب عليه الغزاة بمعسكر من مرج غرناطة، فدس يومئذ ابن المحروق إلى يحيى بن عمر هذا ودعاه إلى مكان عثمان ليغيظه بذلك فأجاب، ونزع عن عثمان وقومه إلى ابن المحروق وسلطانه. وعقد له على الغزاة، فتسايلوا إليه من عثمان شيخهم، وانصرف إلى المدية وكان من شأنه ما قصصناه في أخباره. وأقام يحيى بن عمر في رياسته إلى أن هلك ابن المحروق بفتكة سلطانه. واستدعى عثمان بن أبي العلاء للرياسة، فرجع إليها.

وصرف يحيى بن عمر إلى وادي آش، وعقد له على الغزاة بها فأقام حيناً، ثم رجع
إلى مكانه بين قومه. واصطفاه عثمان بن أبي العلاء وابنه أبو ثابت، بما كانت أمه بنت موسى بن رحو، فكان بتعصب لخؤلته فيهم. ثم هلك عثمان وكان ما قدمناه من شأن ولده وفتكهم بالسلطان المخلوع. وتقبض أخوه أبو الحجاج عليهم وأشخصهم إلى أفريقية وقوض مباني رياستهم. وعقد على الغزاة مكانهم ليحمى بن عمر هذا، فاضطلع بها أحسن اضطلاع. واستمرت حاله وحضر مشاهد أبي الحجاج مع السلطان أبي الحسن، فظهرت كفايته وغناؤه. ولما هلك أبو الحجاج سنة خمس وخمسين وسبعمائة، طعيناً بمصلى العيد، في آخر سجدة من صلاته، بيد عبد من عبيد أصطبله مصاب في عقله، أغري زعموا به، وقتل لحينه صبرا بالسيوف. وبوسع لابنه محمد، أخذ له البيعة على الناس يومئذ مولاه رضوان من معلوجيهم، حاجب أبيه وعمه. وقام بأمره واستبد عليه وحجره، فقاسم يحيى بن عمر ست عمر هذا في شأنه وشاركه في أمره وشد أزر سلطانه به، حتى إذا ثار بالحمراء الرئيس ابن عمهم محمد بن إسمعيل بن محمد بن الرئيس أبي سعيد قائماً بدعوة إسمعيل بن أبي الحجاج أخي السلطان محمد كان ساكناً بالحمراء. وتحينوا لذلك مغيب السلطان في متنزهه بروضة خارج الحمراء، فخالفوه إليها وكبسوها ليلاً، فقتلوا الحاجب المستبد رضوان. وجلس السلطان على سرير ملكه ونادوا بالناس إلى بيعته. ولما أصبح غدا عليهم يحيى بن عمر بعد أن يئسوا منه وخشوا عاديته، فأتاهم بيعته وأعطاهم عليها صفقته وانصرف إلى منزله. وبعد أيام من استيلائهم استخلصوا إدريس بن عثمان بن أبي العلاء، كان وصل إليهم من دار الحرب بأرض برشلونة كم نذكر. وولوه إمارة الغزاة وائتمروا في التقبض على يحيى بن عمر. ونذر بذلك، فركب في حاشيته يؤم دار الحرب من أرض الجلالقة. واتبعه إدريس فيمن إليه من قومه، فقاتلهم صدر نهاره وفض جموعهم. ثم خلص إلى تخوم النصرانية ولحق منها بسدة ملك المغرب على أثر سلطانه محمد المخلوع بن أبي الحجاج، وخلف إبنه أبا سعيد عثمان بدار الحرب. ونزل يومئذ على السلطان أبي سالم سنة إحدى وستين وسبعمائة، فأكرم مثواه وأحله من مجلسه

محل الشورى والمؤامرة. واستقر في جملته، إلى أن بعث ملك قشتالة في السلطان المخلوع، بإشارة إبنه أبي سعيد وسعايته في ذلك، ليجلب به على أهل الأندلس بما نقضوا من عهده. وجهزه السلطان أبو سالم سنة ثلاث وستين وسبعمائة، فصحبه

يحيى بن عمر هذا. ولقيهم ابنه أبو سعيد عثمان وقاموا بأمر سلطانهم واستولى على الأندلس بمظاهرتهم، وكان لهم في ذلك آثار. ولما استولى على غرناطة سنة ثلاث وستين وسبعمائة، عقد ليحيى بن عمر على إمارة الغزاة كما كان وأعلى يده. واستخلص عثمان لشوراه وخلطه ببطانته. ونافسه الوزير يومئذ محمد بن الخطيب، فسعى فيهم. وأغرى السلطان بهم، فتقبض عليهم سنة أربع وستين وسبعمائة وأودعهم المطبق. ثم أشخص يحيى سنة ست وستين وسبعمائة إلى المشرق وركب السفين من المرية، فنزل بالإسكندرية. ورجع منها إلى المغرب، ونزل على عمر بن عبد الله أيام استب راده واستقر به في كرامة وخير مقامة. ولم يزل بالمغرب على أعز أحوال، إلى أن هلك سنة إثنتين وثمانين وسبعمائة. ثم أشخص ابنه أبا سعيد عثمان من الاعتقال سنة سبع وستين وسبعمائة إلى أفريقية فنزل ببجاية على مولانا السلطان أبي العباس حافد مولانا السلطان أبي يحيى واستقر في جملته. وحضر معهم فتح تونس وأبلى فيه. وأقطع له السلطان وأسنى له الجراية وخلطه بنفسه واصطفاه لشوراه وأخلته، وهو لهذا العهد من عظماء مجلسه وظهرائه في مقامات حروبه، وإخوته بالأندلس على مراكز عزهم وفي ظلال عصبيتهم مع قومهم، وقد ذهب مواجد السلطان بالأندلس عليهم وصار إلى جميل رأيه فيهم. والله مالك الملك ومقلب القلوب لا رب غيره.

الخبر عن ادريس بن عثمان بن أبي العلاء وإمارته بالأندلس ومصائر أمره:

لما هلك أبو ثابت بن عثمان بن أبي العلاء سنة خمسين وسبعمائة، استقر إخوته في جملة السلطان أبي عنان ملك المغرب وأقطعهم وأسنى جراياتهم، وكان في إدريس منهم بقية من الترشيح يراه الناس بها. فلما نهض السلطان لفتح قسنطينة سنة ثمان وخمسين وسبعمائة وتوغل في ديار أفريقية وحام قومه على مواقعها، تحيلوا عليه في الرجوع به عن قصده منها. وأذنت المشيخة لمن معهم من قومهم في الإنطلاق إلى المغرب، حتى خفي المعسكر من أهله وتآمروا، زعموا في اغتيال السلطان والإدالة منه

بإدريس هذا. ونذر بذلك، فكر راجعاً كما ذكرناه في أخباره. ولما أشيع ذلك بلغ إدريس شأنه، فركب ظهر الغدر وفر من المعسكر ليلاً ولحق بتونس، فنزل على القائم بالدولة يومئذ الحاجب أبي محمد بن تافراكين خير نزل وأبره. وركب السفين من تونس إلى العدوة، فنزل على ابن القمط صاحب برشلونه في حشمه وذويه. وأقام هنالك، إلى إن كان من مهلك رضوان الحاجب المستبد بالأندلس سنة ستين وسبعمائة ما قدمناه، فنزع إلى منبت من غرناطة. ونزل على إسمعيل ابن السلطان أبى الحجاج والقائم بدولته يومئذ الرئيس محمد ابن عمه إسمعيل بن محمد والرئيس أبي سعيد، فلقوه مبرة وتكريماً. ورجوه بالإدالة به من يحيى بن عمر أمير الغزاة يومئذ، لما كانوا يتهمونه من ممالأة المخلوع صاحب الأمر عليهم. ولما نزع يحيى بن عمر إلى الطاغية ولحق بدار الحرب سنة إحدى وستين وسبعمائة، عقدوا لإدريس بن عثمان هذا على الغزاة مكانه. وولوه خطة أبيه وأخيه بدولتهم، فاضطلع بها. ومالأ الرئيس محمداً على قتل سلطانه إسمعيل ابن عمه أبي الحجاج واستبد بالأمر. ولسنتين من ولايته غلبهم المخلوع أبو عبد الله محمد على أمرهم. وزحف إليهم من رندة، كان نزل بها بعد خروجه من دار الحرب مغاضباً للطاغية. وأذن له وزير المغرب عمر بن عبد الله في نزلها فنزلها. ثم زحف إلى الثائر بغرناطة. على ملكهم الرئيس وحاشيته، فأجفلوا. ولحق الرئيس محمد بن إدريس هذا بقشتالة ونزلوا في جملتهم وحاشيتهم على الطاغية، فتقبض عليهم وقتل الرئيس محمداً وحاشيته، جزاءً بما أتوه من غدر رضوان. ثم غدر السلطان إسمعيل من بعده وأودع إدريس ومن معه من الغزاة السجن بإشبيلية، فلم يزل في أسره إلى أن تحيل في الفرار بمداخلة مسلم من الدجن، أعد له فرساً إزاء معتقله، ففك قيده. ونقب البيت وامتطى فرسه ولحق بأرض المسلمين سنة ست وستين وسبعمائة. واتبعوه فأعجزهم، وجاء إلى السلطان أبي عبد الله محمد بن أبي الحجاج، فأكرم نزله وأحسن مبرته. ثم طلب إذنه في اللحاق بالمغرب، فأذن له وأجاز إلى سبتة وبلغ شأنه إلى صاحب الأمر بالمغرب يومئذ عمر برت عبد الله، فأوى إلى عامل سبتة بالتقبض عليه لمكان ما يؤنس من ترشيحه.

وأودعه الجن به كنهاسة، قم نقله السلطان عبد العزيز إلى سجن الغور بفاس، ثم قتلوه خنقاً سنة سبعين وسبعمائة

. والله وارث الأرض ومن عليها.

الخبر عن إمارة علي بن بدر الدين علي الغزاة بالاندلس ومصاير أمره:

قد ذكرنا أن موسى بن رحو بن عبد الله بن عبد الحق، كان أجاز إلى الأندلس مع

محمد وعامر إبني إدريس بن عبد الحق وقومهم، أولاد سوط النساء، سنة تسع وستين وسبعمائة. ثم رجع إلى المغرب وفر إلى تلمسان وأجاز منها إلى الأندلس. وولي إمارة الغزاة بها إلى أن هلك، بعد أن أصهر إليه السلطان يوسف بن يعقوب في إبنته، فعقد له عليها وزفها إليه سنة تسع وسبعين وسبعمائة مع وفد من قومهم. وكان لموسى بن رحو من الولد جماعة: أكبرهم المحمدان جمال الدين وبدر الدين، وضع عليهما هذين اللقبين على طريقة أهل المشرق الشريف المكي، الوافد على المغرب لذلك العهد من شرفاء مكة. وكان هؤلاء الاعياص ملوكهم وأقيالهم يعظمون أهل البيت النبوقي ويلتمسون الدعاء والبركة منهم فيما تيسر من أحوالهم، فحمل موسى بن رحو ولدية هذين إلى الشريف عند وضعهما يحنكهما ويدعو لهما، فقال له الشريف: خذ إليك جمال الدين. وقال في الآخر خذ إليك بدر الدين، فاستحب موسى دعاءهما بهذين اللقبين تبركاً بتسمية الشريف بهما، فاشتهرا بهذين الإسمين. ولما بلغا الأشد وشاركا أباهما في حمل الرياسة وكان من مهلكه ما ذكرناه، وانحرفت الغزاة عنهما إلى عمهما عبد الحق وابنه: فلحق جمال الدين منهما بالطاغية سنة ثلاث ، ثم أجاز البحر من قرطاجنة إلى السلطان يوسف بن يعقوب من معسكره من حصار تلمسان واستقر في جملته، حتى إذا هلك السلطان وتصدى ابنه أبو سالم للقيام بالأمر وكان مغلباً مضعفاً فلم يتم أمره، وتناول الملك أبو ثابت حافد السلطان واستولى عليه. وفر أبو سالم عشي مهلكه ومعه من القرابة جمال الدين هذا وأعمامه العباس وعيسى وعلي بنو رحو بن عبد الله، فتقبض عليهم في طريقهم بمديونة وسيقوا إلى السلطان أبي ثابت، فقتل عمه أبا سالم وجمال الدين بن موسى بن رحو وامتن على الباقين واستحياهم. وانصرف العباس بعدها إلى الأندلس، فكانت له في الجهاد آثار

كما ذكرناه قبل. وأما بدر الدين، فلم يزل بالأندلس مع قومه. ومحله من الرياسة والتجلة

محله من النسب، إلى أن هلك، فقام بالأمر من بعده ابنه علي بن بدر الدين مزاحماً في الرياسة مباهياً لهم بالترشيح. وكان كثيراً ما يعقد له ملوك بني الأحمر على الغزاة من زناتة المرابطين بالثغور فيما بعد عن الحضرة من قواعد الأندلس: مثل مالقة والمرية ووادي آش، سبيل المرشحين من أهل بيته، وكانت إمارة الغزاة بالأندلس مستأثرة بأمر السيف والحرب، مقاسمة للسلطان أكثر الجباية في الأعطية والأرزاق بما كانت الحاجة إليهم في مدافعة العدو ومقارعة ملك الأندلس، فكانوا يغضون لهم عن استطالتهم عليهم لمكان حاجتهم إلى دفاع العدوين، حتى إذا سكن ريح الطاغية، بما كان من شغله بفتنة أهل دينه منذ منتصف هذه المائة، وشغل بني مرين أيضاً بعد مهلك السلطان أبي الحسن وتناسوا عهد الغلب على أقتالهم وجيرانهم. وتنوسي عهد ذلك أجمع، فاعتزم صاحب الأندلس على محو هذه الخطة من دولته. وأغراه بذلك وزيره ابن الخطيب كما ذكرناه حرصاً على خلاء الجولة، فتقبض على يحيى بن عمر وعلى بنيه سنة أربع وستين وسبعمائة كما ذكرناه. وعقد على الغزاة المجاهدين لابنه ولي عهده الأمير يوسف. ومحا رسم الخطة ببني مرين بالجملة، إلى أن توهم فناء الحامية منهم بفناء بيوت العصبية الكبرى، فراجع رأيه في ذلك. وكان علي بن بدر الدين خالصة له وكان مقدماًصصص على الغزاة بوادي آش. ولما لحق السلطان به ناجياً ليلة مهلك رضوان، مانع دونه وظاهره على أمره، حتى إذا ارتحل إلى المغرب إرتحل معه. ونزلوا جميعاً على السلطان أبي سالم سنة إحدى وستين وسبعمائة كما ذكرناه. ولما رجع إلى الأندلس رجع في جملته، فكان له بذلك عهد وذمة رعاهما السلطان له وكان يستخلصه ويناجيه. فلما تفقد مكان الأمير على الغزاة ونظر فيمن يوليه، عثر اختياره على هذا لسابقته ووسائله وما بلاه من نصحه ووقوفه عند حذه، فعقد له سنة سبع وستين وسبعمائة على الغزاة كما كان أولوه، فقام بها واضطلع بأمورها. واستمرت حاله إلى لأن هلك سنة ثمان وستين وسبعمائة. ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام.

الخبر عن إمارة عبد الرحمن بن علي أبي يفلوسن ابن السلطان أبي علي، علي الغزاة بالاندلس ومصاير أمره:

كان ولد السلطان أبي علي قد استوقروا بالأندلس وأجازوا إلى طلب الأمر بالمغرب.

وكان من أمرهم ما شرحناه، إلى أن أجاز عبد الرحمن هذا مع وزيره المطارد به مسعود بن رحو سنة ست وستين وسبعمائة، غساسة على سلم عقده لهم وزير المغرب المستبد بأمره يومئذ عمر بن عبد الله. ونزل عبد الرحمن هذا بالمنكب، وكان السلطان يومئذ معسكراً بها، فتلقاه من الإحتفاء والبر ما يناسبه. وأكرم مثواه وأسنى الجائزة له ولوزيره ولحاشيته. واستقروا في جملة الغزاة المجاهدين، حتى إذا هلك علي بن بدر الدين سنة ثمان وستين وسبعمائة، نظر السلطان فيمن يوليه أمرهم، فعثر اختياره على عبد الرحمن هذا، لما عرف به من البسالة والإقدام ولقرب الشرائح بينه وبين ملك المغرب يومئذ، التي هي ملاك الترشيح لهذه الخطة بالأندلس كما قدمناه، لما كانت رشائح أولاد عبد الله بن عبد الحق قد بعدت باتصال الملك في عمود نسب صاحب المغرب دون نسبهم، فآثره صاحب الأندلس بها وعقد له على الغزاة المجاهدين سنة ثمان وستين وسبعمائة وأضفى عليه لبوس الكرامة والتجلة وأقعده مجلس الوزارة كما كان للأمراء قبله. واتصل الخبر بسلطان المغرب يومئذ عبد العزيز ابن السلطان أبي الحسن، فغص بمكانه وتوهم أن هذه الإمارة زيادة في ترشيحه ووسيلة لملكه. وكانت لوزير الأندلس محمد بن الخطيب مداخلة مع صاحب المغرب، بما أمل أن يجعله فيئة لاعتصامه، فأوعز إليه بالتحيل على إفساد ما بينه وبين صاحب الأندلس، فجهد في ذلك جهده. ولبست عليه وعلى وزيره مسعود بن ماسي، كتب إلى عظماء القبيل وبعض البطانة من أهل الدولة، بالتحبيب والدعوة إلى الخروج على صاحب المغرب، فأحضرهم السلطان ابن الأحمر وأعطاهم كتابهم، فشهد عليهم وأمر بهم، فاعتقلوا بالمطبق سنة سبعين وسبعمائة. واسترضى صاحب المغرب بفعلته فيهم. رنزع الوزير ابن الخطيب بعد ذلك إلى السلطان عبد العزيز، وتبين لسلطانه مكره واحتياله عليهم في شأنهم. ولما هلك عبد العزيز وأظلم الجو بين صاحب الأندلس وبين

القائم بالدولة أبي بكر بن غازي كما قدمناه، وامتعض ابن الأحمر للمسلمين من الفوضى، أطلق عبد الرحمن بن أبي يفلوسن ووزيره مسعود بن ماسي من الاعتقال وجهز لهما الأسطول، فأجازوا فيها إلى المغرب ونزل بمرسى غساسة على بطوية داعياً لنفسه، فقاموا بأمره وكان من شأنهم مع الوزير أبي بكر بن غازي ما قصصناه. واستقر آخر بمراكش وتقاسم ممالك المغرب وأعماله مع السلطان أبي العباس، أحمد بن أبي سالم، صاحب المغرب لهذا العهد. وصار التخم بينهما وادي ملوية. ووقف كل واحد منهم عند حده. والله مالك الملك يولي الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء. وأغفل صاحب الأندلس هذه الخطة من دولته ومحا رسمها من ملكه. وصار أمر الغزاة المجاهدين إليه ويباشر أحوالهم بنفسه وعمهم بنظره. وخص القرابة المرشحين منهم بمزيد تكرمته وعنايته. والأمر على ذلك لهذا العهد، وهو سنة ثلاث وثمانين وسبعمائة والحمد لله على كل حال.

وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وأصحابه وسلم تسليما كثيراً.